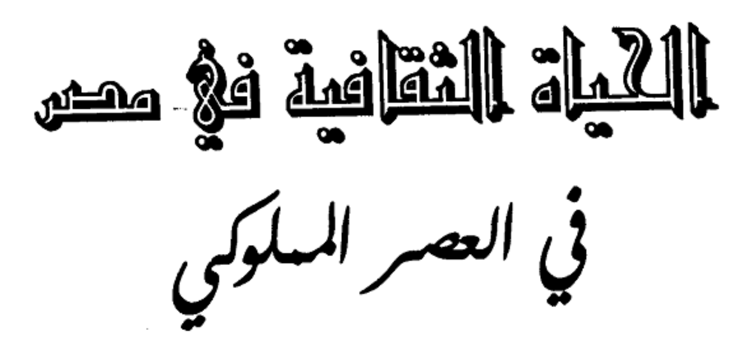
دولة ليبيا

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مصراته ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ.

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الإجازة العالية (الماجستير)في التاريخ الإسلامي.

بعنوان:



الحياة الثقافية في مصر في العصر المملوكي

من سنة 648هـ/ 923هـ – 1250م /1517م

مقدمة من الطالبة:-

ليلى إبراهيم نافع.

إشراف الدكتور:-

مفتاح يونس الرباصي.

للعام الجامعي/2013 – 2014 م.

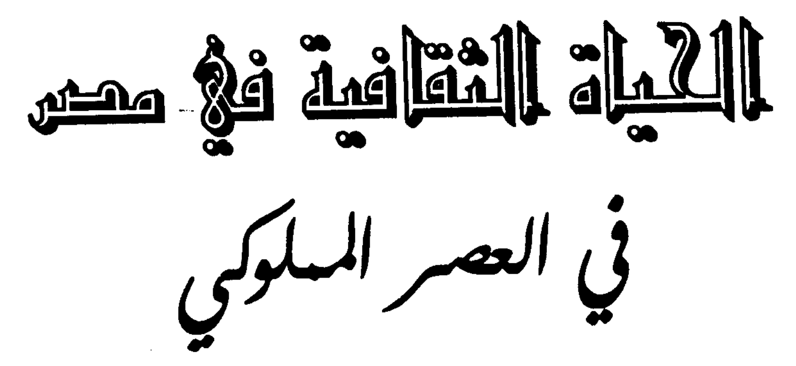
دولة ليبيا

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مصراته ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ.

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الإجازة العالية (الماجستير)في التاريخ الإسلامي.

بعنوان:



مقدمة من الطالبة:-

ليلى إبراهيم نافع.

إشراف الدكتور:-

مفتاح يونس الرباصي.

للعام الجامعي/2013 – 2014 م.





دولة ليبيا
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مصراتة
كلية الآداب
مكتب الدراسات العليا والتدريب والمعيدين

"اعتماد رسالة الإجازة العالية (الماجستير)"

إعداد الطالبة// **ليلي إبراهيم نافع**، والمعنونة:

(الحياة الثقافية في مصرفي العصر المملوكي 648هـ/ 1250م/ 923هـ/1517م)

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الإجازة العالية (الماجستير) في التاريخ.

لجنة المناقشة //

1- أ.د.مفتاح يونس الرباصي. أستاذ مشارك (مشرفاً ومقرراً) التوقيع :.........

2- أ.د.عبدالواحد عبدالسلام شعيب. أستاذ (عضواً خارجياً) التوقيع :.........

3- أ.د.الدهماني سالم الدهماني. أستاذ مساعد (عضواً خارجياً) التوقيع :.........

نوقشت هذه الرسالة يوم الاحد الموافق: 2014/10/19م

العام الجامعي (2014 – 2015م)

يعتمد // ....

د. عمر مصطفى النعاس

مدير مكتب الدراسات العليا والتدريب والمعيدين

بكلية الآداب مصراتة



الإهداء:

إلى الذين يؤمنون بأن الله لا يغير ما

بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . .

أهدي بحثي هذا.

- الباحثة.

فهرس الموضوعات.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المقدمة:

حمداً لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، وبعد

لقد تنوعت الكتابات التاريخية بتنوع ميول واهتمامات المؤرخين، فمنهم من أرخ للجانب السياسي، وآخرون أرخوا لجوانب حياتية أخرى، كالجانب الاقتصادي أو الاجتماعي، وما يمكن قوله أن تلك الجوانب مجتمعة تمثل المشهد الكلي لأي مجتمع.

كما أن تنوع تلك الدراسات يرجع لتنوع ما شهدته البلاد الإسلامية في عصرها الوسيط للعديد من الأحداث والتي يمكن وصفها بالمفصلية في تاريخ المنطقة، ومن بينها ما كان له الأثر الواضح في تغير الخارطة السياسية في المنطقة، كالحملات الصليبية المتعاقبة علي المشرق الإسلامي ومصر، أيضاً الزحف المغولي وإسقاطه لدول وبلدان في المشرق الإسلامي كالدولة العباسية ودولة خوارزم وغيرهما، وما ترتب عليه من نتائج أثرت على جوانب الحياة، كل ذلك أثر في تشكل خارطة سياسية جديدة بالمنطقة، فانهيار الدول برز على أنقاضها دول أخرى.

كذلك مصر لم تكن بمعزل عن تلك التغيرات، فقد برز المماليك كقوة على مجريات الأمور بها، فما حققوه من انتصارات على حملة لويس التاسع الصليبية سنة 647هـ/1250م، وعلى المغول في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م)، التي تعد أول هزيمة للمغول منذ بداية زحفهم نحو المشرق الإسلامي، كل ذلك كان له الأثر الفاعل في وصول وتثبيت المماليك إلى سدة الحكم.

قبل مجيء المماليك لحكم مصر كانت الدولة الأيوبية في المشهد السياسي، فكان الوضع أنداك استثنائياً مقارنة مع غيرها، حيث قامت على أنقاض دولة مختلفة عنها في النهج والهدف والمذهب الديني، فالدولة الفاطمية جعلت من المذهب الشيعي والعمل على نشره وتقبله من قبل السكان العامل المهم في تثبيت أركان

حكمها، وقد كانت المراكز التعليمية المتنوعة هي الوسيلة التي اتخذها الفاطميون لتحقيق هدفهم، وبمجيء الأيوبيين عملوا هم أيضاً على طمس كل الملامح الشيعية التي نشرها سلفهم في الحكم ونشر المذهب السني، فلجئوا إلى نفس النهج باستعانتهم بالمراكز التعليمية، حيث أنشئوا العديد من المدارس والزوايا ودور العلم وغيرها، وقد حققوا بذلك نجاحاً في تدعيم حكمهم والقضاء على تاريخ المذهب الشيعي.

إذاً يمكن القول إن الأيوبيين اهتموا بالحياة العلمية والثقافية في مصر إبان حكمهم لأغراض سياسية، لكن هذا الاهتمام ظل مستمراً من قبل السلاطين ليصبح سمة من سمات الحكم الأيوبي، إلى جانب أن هذه النهضة العلمية والثقافية كانت عاملاً في استقرار الأمور لفترة من الزمن، أيضاً هي عاملاً أساسياً لورثة الأيوبيين وهم المماليك لاستكمال هذه النهضة وإبراز ملامحها، وسيتضح لنا ذلك من خلال فصول هذه الدراسة.

ما يجذر الإشارة إليه أن دولة المماليك وما شهدته مصر في ظلها، يعد من أبرز وأهم مراحل تاريخها الوسيط، فالمتمعن الجيد يجد أن وصول المماليك إلى الحكم، باتخاذهم جملة من التدابير التي رأوا ضرورتها لشرعنة حكمهم، فما حققوه من انجازات عسكرية متمثل في انتصارهم على الصليبيين والمغول، وقيامهم بإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، وما تمثله هذه الخطوة من بعد سياسي، كل هذا أسهم في استقرار الأمور للمماليك وأثر على كل جوانب الحياة الأخرى.

لقد عمل المماليك على تدعيم أركان حكمهم لمصر من خلال انتهاجهم لسياسة داخلية يمكن وصفها بالحكيمة، حيث شهدت البلاد فترات من الاستقرار كانت عاملاً مباشراً ومهماً في التطور الذي طرأ على الجوانب الحياتية، فالتطور والتقدم والازدهار كان سمة للوضع الاقتصادي آنذاك في جوانبه المختلفة، ناهيك عن الاستقرار الاجتماعي والتعايش السلمي بين أطياف وأجناس المجتمع المصري،

حيث تطورت العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع وتنوعت فيها المناسبات الاجتماعية من خلال مواسم يمكن وصفها بالثقافية، والتي كانت جزءاً من الملامح الثقافية للمجتمع، كل هذا وغيره أسهم وساعد في انتعاش وتطور الحياة الثقافية والعلمية في مصر.

هذه الملامح الثقافية والتعليمية جعلتني أتوقف عندها كجزئية من تاريخ المماليك، والتعمق بها في محاولة بحثية لإبرازها بشكل تستحقه، فكان عنوان بحتي هو: (الحياة الثقافية في مصر في العصر المملوكي) من سنة (648 هـ/923هـ) إلى سنة(1250م /1517م).

إشكالية البحث هي أن المماليك اشتهروا من خلال المصادر التاريخية الإسلامية على وجه الخصوص بصفة العسكر، على اعتبار أنهم وجدوا لأغراض حربية عسكرية حيث استعان بهم الأمراء الأيوبيون آنذاك، واستمرت هذه النظرة لهم حتى امتلاكهم زمام الحكم والسلطة في مصر والشام، فقد ركزت المصادر على الجانب السياسي لهم، الأمر لذي جعل جزءاً من تاريخهم الحضاري مبتوراً أو مطموساً بالرغم من ظهور العديد من المظاهر ذات الطابع الحضاري المتميز في مصر إبان العصر المملوكي، لذا ستنصب هذه الدراسة للعمل على إظهار الدور الفعال الذي قام به المماليك في إثراء ثقافة المجتمع المصري وفكره.

وقد اختارت الباحثة موضوع بحثها لاعتبارات عدة، أهمها :-

1. إبراز دور سلاطين المماليك في الحياة الثقافية من خلال إنشائهم للمراكز التعليمية المتنوعة والمختلفة، وتشجيعهم للعلم والعلماء، كذلك التعريف بالموروث الثقافي للمماليك أثناء حكمهم لمصر، لكونه يشكل جزءاً مهماً من الملامح الثقافية للمجتمع المصري أنداك، لازال الكثير منها إلى يومنا هذا، والعمل على إيضاح ما

شهدته البلاد المصرية من حركة علمية وثقافية، برز خلالها العديد من العلماء والمؤلفين الذين زخرت المكتبات بكتبهم القيمة في مجالات عدة.

2. توضيح أنواع التعليم التي كانت سائدة في مصر، ما بين التعليم العام والخاص وخصوصية كل منهما من حيث المنهج والطريقة والمستهدفين من التعليم، وأثر ذلك على الحركة العلمية والثقافية.

3. العمل على إظهار الدور الذي كان لمؤسسة الأوقاف ودعمها للمراكز التعليمية، وأثر ذلك على النهضة العلمية في عصر المماليك، كذلك الوقوف على ما أحدثته الحركة الصوفية من متغيرات وإحداث مفاهيم دينية، كان لها أثرها على ثقافة المجتمع المصري، وكيفية تقبل المجتمع لهذه الحركة.

ومن خلال القراءات الأولى لمجموعة من المصادر والمراجع ذات العلاقة بموضوع البحث، طرحت العديد من الأسئلة على الباحثة، والتي ستحاول جاهدة الإجابة عنها، لعل منها:

إقدام المماليك على إحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها على يد المغول (658هـ/1260م)، كان له بعد سياسي ظهر لدولة المماليك حينئذٍ؛ لكن هل كان لهذه الخطوة من أثرٌ على الحياة العلمية والثقافية؟

اهتم بإنشاء المراكز التعليمية بأنواعها، وشاركوا في الحياة العلمية والثقافية، فما سبب ذلك الاهتمام؟ هل لطبيعة المماليك أنفسهم؟ أم لكسب طبقة العلماء، وما تمثله من أثر في طبقات المجتمع؟

إلى ما يرجع تنوع الأوقاف في عصر المماليك وتعددها، هل لسياسة الدولة نفسها لخلق مصدر دخل؟ أم لأسباب اجتماعية لا علاقة للدولة بها؟

من ضمن التعريف بالتصوف، هو الزهد والتدين ، وهذا من منظور ديني اجتماعي، لكنه في المقابل كان يحمل في طياته العديد من المفاهيم الثقافية والفكرية،إلى أي مدى أثر الفكر الصوفي في الحياة العلمية والثقافية في مصر؟

لقد أكد فلاسفة العلوم أن طبيعة الموضوع هي التي تفرض نوعية المنهج، فقد تم الاعتماد على منهج البحث التاريخي، الذي يقوم أساساً على جمع النصوص التاريخية التي تبين لنا المعلومات والبيانات ذات الصلة بالموضوع من مصادرها الأصلية، والتي أرخت للعصر المملوكي، وتشمل تلك المصادر كتب التاريخ والتراجم والسير والطبقات والرحلات والخطط، إضافةً للمراجع الحديثة، وغيرها مما تناولت موضوع البحث، مع ملاحظة اختلاف كتاباتهم وميولهم ووجهات نظرهم، ناهيك عن الظروف التي كتبت فيها تلك المصنفات وأهدافها، إلى جانب ذلك ستعتمد الباحثة على منهج العرض والتحليل والوصف مع الاعتماد على المناهج الأخرى كلما أمكن ذلك.

لقد تم تقسيم البحث إلى أربعة فصول إلى جانب مقدمة وتمهيد وخاتمة، مع ملاحظة أن هذا التقسيم لم يكن على أساس التسلسل الزمني، وإنما كان في إطار المعالجة الموضوعية لكل جانب من جوانب البحث في فصل بعينه.

المقدمة فقد احتوت على مدخل للموضوع، والسبب في اختياره والمنهج الذي ستستخدمه الباحثة خلال فصول البحث، أيضاً التركيز على إعداد دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع المستخدمة.

جاء التمهيد لدراسة وإيضاح الخلفيات لموضوع البحث، فقسم لقسمين، تناول في الأول منهما لمحة عن الحياة العلمية والثقافية في مصر قبيل العصر المملوكي، أي في عصر الدولة الأيوبية، ومدى الاهتمام من قبل الأيوبيين بهذا الجانب ومدى تطوره.

والمحور الثاني جاء ليعطي لنا لمحة عن نشأة دولة المماليك البحرية والجراكسة، ووصولها لحكم مصر، مع استعراض لأبرز سلاطينها.

أما الفصل الأول فقد عنون بـ(عوامل ازدهار الحياة العلمية)، وتناول فيه المبحث الأول إحياء الخلافة العباسية في مصر، وأثرها على الحركة العلمية والثقافية، والمبحث الثاني تم التركيز فيه على إبراز اهتمام سلاطين المماليك بالعلم وأهله من علماء ومتعلمين، ودور ذلك في تشجيع ودعم الحياة العلمية والثقافية، كذلك تم التطرق إلى حياة العلماء ومستوى معيشتهم، وعلاقتهم بالسلاطين وبالمجتمع والدور الذي كانوا يقومون به، أيضاً تم الحديث في المبحث الثالث عن الاهتمام بإنشاء ودعم المراكز التعليمية العامة والخاصة في مصر.

جاء الفصل الثاني من هذه الدراسة بعنوان (دور المراكز الدينية في الحياة العلمية)، تم الحديث في لمبحث الأول عن أنواع هذه المراكز (المساجد- الخوانق- الزوايا- الأربطة) ودورها في نشر التعليم، ومساهمتها في تطور الحياة الثقافية، أما المبحث الثاني فقد عرج للحديث عن دور الأوقاف في دعم المراكز الدينية والتعليمية، والعمل على الاستمرار في تأدية رسالتها، والمبحث الثالث كان عن الحركة الصوفية وأثرها على الحياة العلمية والثقافية، وأسباب انتشارها في مصر وتطورها في العصر المملوكي.

والفصل الثالث فكان لدراسة (دور المراكز التعليمية في الحياة العلمية)، والتي تناولت فيه المراكز التعليمية بالتفصيل فالمبحث الأول تناول المدارس و ومكاتب السبيل، والمبحث الثاني تحدث فيه عن البيمارستانات وأنواعها، والمبحث الثالث تناولت فيه الطباق(وهي المنشئة التعليمية الخاصة بالمماليك)، والمبحث الرابع كان عن المكتبات بأنواعها الخاصة والعامة وأهم تجهيزاتها، ودور كل هذه المراكز وأهميتها في نشر التعليم في كافة البلاد المصرية وتطورها وتقدمها.

بالنسبة للفصل الرابع من هذه الدراسة فقد جاء بعنوان (أنظمة التعليم وجهود العلماء في إثراء الحركة العلمية)، كان المبحث الأول فيه عن النظام التعليمي من ناحية القائمين بالعملية التعليمية، والموظفين بالمراكز التعليمية، والطلاب وأماكن دراستهم وسكناهم، كذلك طرق التعليم والمناهج الدراسية المتبعة، إلى جانب الإجازات التي كانت تمنح للطلاب.

أما المبحث الثاني فقد تناول أبرز علماء العصر المملوكي، في كل التخصصات والمجالات، والمبحث الثالث كان عن حركة التأليف التي كانت سمة من سمات العصر المملوكي، وازدهارها، ونتاجها العلمي والأدبي في كافة العلوم وتطورها، وانتهى الفصل عند حديثه عن كتب الموسوعات التي تعد ظاهرة ميزت ذلك العصر.

الخاتمة هي عرض لأهم وأبرز النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذه الدراسة البحثية.

لقد اطلعت الباحثة على مجموعة مهمة من المصادر والمراجع ذات العلاقة بالموضوع، وقد تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة لتغطية جوانب الموضع الرئيسية منه وجزئياته، وفيما يلي ذكر مع دراسة نقدية لأهم تلك المصادر والمراجع:-

- كتاب - (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري (ت732/ 1332م) هذا الكتاب موسوعي يشتمل على خمسة فصول من فنون الكتابة أخرها فن التاريخ وقد اختصت الأجزاء الأخيرة من الكتاب بالتأريخ لدولة المماليك حتى سنة (730هـ/1330م) وتتمثل أهمية الكتاب في أن مؤلفه من المؤرخين القلائل الذين عاصروا بداية عصر المماليك لذلك كان هذا الكتاب أساساً لكل مصادر التاريخ المملوكي، كما أن مؤلفه اهتم بتسجيل نصوص الوثائق المتعلقة بالأحداث التي أرخ لها ومنها حجج الوقف التي أفادتنا كثيراً في بحثنا هذا.

- كتاب (السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لبدر الدين بن جماعة(ت733هـ/1332م) الكتاب يعد من المصادر الأساسية التي تناولت الآداب والتقاليد التي ينبغي على طالب العلم ومعلمه إتباعها في بحثه وقراءاته وعلاقاته بأساتذته وأقرانه من الطلاب داخل المراكز التعليمية وخارجها وفيما يتعلق بالمادة التي أمدنا بها فقد اعتمدت عليه في الفصل الثالث والرابع من هذا البحث حيث تناول المدرسين والطلاب والآداب التي ينبغي مراعاتها، كذلك عن حديثه عن الكتب وما يتعلق بتصحيحها وحملها وصفها وشرائها وغير ذلك.

- كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) للسبكي (ت771هـ/1369م)، لقد تناول هذا الكتاب جميع المهن والوظائف في عصره فلم يترك وظيفة في المجتمع بدءاً بالسلطان وانتهاء بالمتسولين في الطرقات إلا وتناولها وتناول آداب كل مهنة وصفات القائم بها وتفصيل ذلك، فهو يعطينا صورة لجميع فئات المجتمع في ذلك العصر وهو مهم لموضوع بحثنا فقد اعتمدت عليه في الفصل الثاني والرابع من خلال المعلومات عن العاملين بالمراكز الدينية والتعليمية، إلا أنه مما يؤخذ عن السبكي أنه عالج هذه الأمور من منظور ديني بحت لم يسع إلى تتبع الجذور التاريخية والاجتماعية للخلل الموجود في المجتمع إلا أن ذلك لا يمنع من أن هذا الكتاب يعد بمثابة علامة بارزة في التاريخ الاجتماعي.

- كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندى(ت821هـ/1418م) يعد من المصادر المهمة لدراسة تاريخ مصر في العصر المملوكي، فقد عاصر القلقشندى جانباً كبيراً من ذلك العصر خاصة أنه عمل في ديوان الإنشا الأمر الذي مكنه من جمع العديد من الوثائق ما بين مكاتبات ومعاهدات ومراسلات أثبتها في تلك الوثائق لديه، كما ساعدته وظيفته في معرفة مواقع المدن والبلدان التي يكتب

عنها وما يتعلق بذلك من أحوال اقتصادية واجتماعية وعلمية وفكرية، وقد خص المراكز التعليمية بنصيب وافر من المعلومات حيث أفادنا الجزء 11،5،4، في التعرف والتحقق من معاني بعض المصطلحات التي وردت في سياق الوثائق المملوكية لبعض الوظائف والأسماء وغيرها من المصطلحات الخاصة بذلك العصر.

- كتاب(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزي(ت 845هـ/1441م) يعد سجلاً لجغرافية مصر وجميع أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لقد اعتمدنا عليه في الفصل الثاني والثالث حيث قدم المقريزي حصراً بالمراكز التعليمية التي وجدت في عصره وقد انفرد بالشرح عن أشكال هذه المؤسسات وظروف إنشائها بالتالي يعد من المصادر المهمة في دراستنا لإعطائه مادة علمية جيدة عن الناحية الثقافية.

- كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لأبن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م) يمتاز هذا الكتاب بعناية مؤلفه بتقديم مادة تاريخية هامة من خلال تعريفه بمشاهير من العلماء ورجال القرن الثامن وترجمتهم، إضافة للعاملين والموظفين الذين شغلوا العديد من المناصب في الدولة.

- كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبن تغري بردي (ت874هـ/1469م) هذا الكتاب يتناول تاريخ مصر وأخبار حكامها مند الفتح العربي الإسلامي حتى سنة وفاة المؤلف ويبدأ ابن تغري بردي في التاريخ لدولة المماليك من الجزء السابع، حيث ركز فيه على الأحداث السياسية الداخلية والخارجية مما ينم عن خبرة واسعة بتلك الأمور وإن كان ذلك راجع لاتصاله بالطبقة الحاكمة، ولكن ذلك لم يمنعه من تناول بعض الأحداث الاجتماعية والثقافية كلما أمكن ذلك

مما أفادنا في هذا البحث، إلا أن ابن تغري كان ينقصه التحليل و التعليق عند تناوله للحدث التاريخي وذكر أسبابه.

ـ كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) السّخاوي الشافعي(ت 902هـ/1498م) والذي يعد استدراك لما فات شيخه ابن حجر في الدرر الكامنة حيث جمع فيه تراجم لمشاهير القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي من العلماء والأدباء والشعراء والخلفاء، ورتب فيه التراجم على الحروف المعجمة، ويشترك كتاب الضوء اللامع وكتاب الدرر الكامنة في أهميتهما بالنسبة لموضوع البحث في إمداده بفيض من المعلومات عن العلماء والأدباء وأحوالهم ووظائفهم.

ـ كتاب (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) لجلال الدين السيوطي (ت911هـ/1505م) جمع فيه تاريخ مصر من بداية الخليقة حتى قرب نهاية عصر سلاطين المماليك حيث ذكر فيه بعض المراكز الدينية والتعليمية إضافة إلى ذكره لعدد كبير من العلماء الذين شغلوا وظائف في هذه المراكز.

ـ كتاب (نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين) للملطي (ت920هـ/ 1514م) يعد من المصادر المهمة في تاريخ دولة المماليك البحرية والجراكسة حيث ذكر جميع سلاطين المماليك وفترات حكمهم بشكل مختصر ومهم وقد أفادنا في دراستنا عند تناولنا لكيفية نشأة دولة المماليك وأهم سلاطينها.

ومن المراجع التي اعتمدت عليها كتاب (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة) لعلي باشا مبارك، يعد هذا الكتاب من المراجع الهامة في دراستنا، فقد تناول فيه كل ما يتعلق بمصر عامةً، والقاهرة خاصةً من تاريخ سياسي واجتماعي واقتصادي، وبما اشتمل عليه من تراجم للأعلام، فالكتاب جاء بمادة علمية زاخرةٌ تمثلت في عشرين جزءاً، كانت الأجزاء الستة الأولى

خاصة بخطط مدينة القاهرة وحدها، بينما خصص الجزء السابع لمدينة الإسكندرية، وسار فيه مؤلفه على نفس نهج المقريزي، حيث تتبع مدن مصر وقراها، فأرخ لها منذ أقدم العصور، ووصف ما بها من مراكز دينية وتعليمية مختلفة ومتنوعة، فقد أفادنا في تتبع هذه المراكز ومعرفة ما آلت إليه.

كتاب (صور من الحضارة الإسلامية في سلطنة المماليك) لحياة ناصر الحجي وهو من المراجع المهمة في دراستنا حيت يتناول جانبا مهما من الحياة العلمية من خلال دراسته لأنواع المدارس وطرق التدريس وأنواع العلوم وغيرها من المعلومات المهمة لموضوع الدراسة.

كتاب (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي) لمحمود رزق سليم يعد من المراجع الهامة لبحثنا هذا من خلال تناوله للحركة العلمية بمختلف مظاهرها من مراكز علمية وعلماء ومؤلفات، ولكن مما يؤخذ عليه عدم ذكره لمصادر معلوماته في كثير من الأحيان، إلا أن ذلك لا ينقص من أهمية هذا الكتاب.

يضاف إلى ذلك العديد من المصادر والمراجع الأخرى المذكورة في ثبت المصادر والمراجع في نهاية هذا البحث.

أخيراً: فما كان لهذه الدراسة أن تكون لولا فضل الله علي أولاً، ومن تم رعاية أستاذي الفاضل الدكتور مفتاح الرباصي، الذي لم يبخل بوقته وجهده في توجيهي لإكمال هذا البحث، فكان لإرشاداته ونصائحه العلمية كبير الأثر في إخراجه على النحو الذي يبدو فيه، فله مني جزيل الشكر وخالص الامتنان.

كما أسجل شكري إلى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة مصراته رئيساً وأعضاء هيئة التدريس لكل ما قدموه لي من توجيه، والشكر موصول إلى مكتب الدراسات العليا بالكلية لما قدمه لنا من خدمات كان لها الأثر في مواصلة دراستنا، وتذليل

الصعوبات أمامنا، الشكر للعاملين بمكتبة الكلية لحرصهم على توفير الكتاب الجيد، وكل ما يفيد الطالب في مسيرة دراسته.

وأتقدم بالشكر الجزيل لمن كانا لي داعما حقيقياً في دراستي بما قدماه لي من دعم وعون ودعاء وأسأل الله أن يمدهما بالصحة وطول العمر أبي وأمي، والشكر لأخوتي وأخواتي جميعاً على كل ما قدموه لي، كما أشكر أهل زوجي جميعاً معي لتشجيعهم المستمر لي.

أطفالي معاذ، لجين، علي، انتم نبراس حياتي شكراً لأنكم تحملتم معي أعباء دراستي وشاركتموني في كل فصل من فصولها، كما أتقدم بالشكر أولاً وأخيراً لزوجي وأستاذي مفتاح علي الزائدي، الذي ساندني في كل مراحل دراستي هذه وكان لي العون من بعد الله سبحانه وتعالى من خلال تشجيعه ووقوفه إلى جانبي حتى أصل لما أنا فيه الآن فالشكر كل الشكر له.

وأخيراً الشكر لكل من قدم لي المساعدة في إكمال بحثي هذا ولو بكلمة.

التمهيد:

أولاً- الحياة الفكرية في مصر قبيل دولة المماليك.

ثانياً- لمحة عن نشأة دولة المماليك.

أولاً: الحياة الفكرية في مصر قبيل دولة المماليك.

من خلال هذا التمهيد سيتم إلقاء الضوء على الحياة الفكرية في مصر قبيل قيام الدولة المملوكية، وذلك من خلال عرض الحياة الفكرية في الدولة الفاطمية والأيوبية بإيجاز، فالدولة الفاطمية أثناء حكمها لمصر فرضت المذهب الشيعي ليكون المذهب الوحيد للسكان، خاصة أن أهل السنة كانوا يمثلون السواد الأعظم من المصريين المسلمين، وفي مستهل القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي عمل الفاطميون على توجيه حملاتهم نحو مصر، للسيطرة عليها، وفي المقابل استطاع دعاتهم نشر هذا المذهب بشكل محدود من حيث عدد من اتبعه من السكان والذين كانوا بدورهم سنداً مهماً اعتمد عليه الفاطميون للدخول إلى مصر سنة (358هـ/968م)، ومن تم السيطرة عليها دون مقاومة بقيادة جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[1].

وهكذا كانت محاولة الفاطميين جادة في تحويل المصريين من المذهب السني، فاتبعت الدولة لذلك عدة وسائل منها إسناد المناصب العليا وخاصة الفقهاء إلى الشيعيين، واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية، وعلى رأسها الجامع الأزهر، واهتمامهم بتعيين المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وإظهار شعائرهم المخالفة لأهل السنة[2].

كان التعليم من الوسائل التي لجأ إليها الفاطميون في توطيد سلطانهم، حيث اتخذوا مراكز تعليمية لنشر مذهبهم والدعاية لهم من أشهرها الجامع الأزهر، ثم جاء

---

(1) عطا الله: خضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1. (د.ت)، ص84.

(2) سرور: محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1965م، ص8.

العصر الأيوبي الذي يعد نموذجاً لازدهار الحياة الفكرية في مصر، حيث يذكر أحد الباحثين قائلاً : " إننا نقرأ تاريخ الملوك الذين تعاقبوا على مصر من لدن صلاح الدين الأيوبي إلى آخر ملك من بني أيوب، فنوشك ألا نصادف فيهم ملكاً قليل العناية بالعلم، أو فاتراً في تشجيع أهله وتقريبهم إليه، بل أوشك أن يكون كل واحدٌ منهم إما شاعراً أو فقيهاً أو محدثاً أو ذا تصانيف ونحو ذلك..."[1].

لكن تجدر الإشارة هنا أنه مع انتقال مصر من حكم الفاطميين إلى حكم الأيوبيين ظهر عهد جديد اختلف عن سابقه في نظامه وسياسته ونهجه، فالأيوبيون كانوا يدينون بالمذهب السني وعملوا على نشره من جديد في مصر، وحاولوا جاهدين طمس معالم المذهب الشيعي والقضاء عليه، فاتخذوا هم أيضاً المراكز التعليمية لهذا الغرض، فقد شهدت مصر منذ بداية العصر الأيوبي اهتماماً عظيماً بإنشاء المدارس لتكون مراكز للتعليم، ينشر من خلالها المذهب السني، وأصبحت هذه المدارس فيما بعد مراكز علمية نشطة، تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير[2].

لقد اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين الأيوبي يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم[3]، كذلك السلطان العادل أبوبكر بن أيوب وهو أخو السلطان الملك الناصر

---

(1) حمزة: عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م، ص149.

(2) فرغلي: إبراهيم، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م، ص59.

(3) السبكي: تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود الطاحني- عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط2، 1992م، ج4، ص349.

صلاح الدين الأيوبي كان شديد الحب للعلماء[1]، كذلك العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطنة، فقد قال عنه ابن خلكان أنه " سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبو طاهر بن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبو محمد بن بري النحوي، وغيرهم..."[2]، كما سار السلطان الكامل على نهج سلفه، حيث شغف بالعلم وأهله، وذلك ما ذكره المقريزي[3] بقوله:" أنه كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع الحديث النبوي، ...، ومناظرة العلماء،... وكان يبيت عنده في القلعة جماعة من أهل العلم ليسامروه..."،ولم يختلف الأمر بالنسبة للسلطان الكامل، فقد كان معظماً للسنة النبوية وأهلها، راغباً في نشرها والتمسك بها، مؤثراً الاجتماع مع العلماء، إنما كان ينبع من أن هؤلاء العلماء هم سند الدولة والمدافعين عنها من خلال دعمهم للدولة، وتشجيع الناس للوقوف معها، والمعروف أن مصر تعرضت لأخطار حروب داهمه، كالحروب الصليبية وحروب المغول[4].

كما اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام من مختلف ضروب المعرفة، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء وهو إسماعيل بن علي بن عماد الدين صاحب حماه، ت(732هـ/1331م)، وكتابه المختصر في أخبار البشر[5]، ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه، صاحب بعلبك ت (628هـ/1230م)، وكان شاعراً وأديباً،

---

(1) المقريزي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد القادر العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ/1997م، ج1 ، ص 349.

(2) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م،ج1، ص 315.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص258.

(4) فرغلي، المرجع السابق، ص55.

(5) الكتبي : محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973م، ج1، ص20. / السبكي، المصدر السابق، ج1، ص24.

والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى ت (656هـ/1258م)، كان مشتغلاً بتحصيل الكتب النفيسة، والملك المؤيد الأيوبي من أهل العلم، اشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، كما أن الملك عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، ت(624هـ/1227م)، حيث كان راغباً في الأدب وأهله،" حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعه..."[1].

لقد تنافس أمراء البيت الأيوبي وكبار موظفي الدولة من الأيوبيين، على إنشاء المدارس ورعاية العلم، فكانت هذه المدارس السند المهم لبسط وتثبيت نفوذهم السياسي، وركيزة لتقوية وضعهم الداخلي في مصر بانتصارهم للمذهب السني، إضافة لحب الأمراء والسلاطين والأعيان للعلم والعلماء، وتشجيعهم له حتى أصبح من المعتاد طوال العصر الأيوبي أن يكون من أثار السلطان مدرسة أو أكثر، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها[2].

بالرغم مما يقال أن صلاح الدين كان قد هَدف من إنشاء المدارس لمحاربة المذهب الشيعي، والعمل على نشر المذهب السني وتعاليمه، فإن التوسع في إنشائها – أي المدارس– كان مظهراً قوياً لرقي الحياة الفكرية في عصر الأيوبيين، حيث بدأ بإنشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي، إذ يروي المقريزي[3] أنه كانت بمصر دارٌ عرفت بدار المعونة، يحبس فيها من يراد حبسه، فهدمها صلاح الدين الأيوبي وبنى مكانها مدرسة للشافعية سنة(566هـ/1170م)، وقد عرفت باسم مدرسة

---

(1) زيدان: جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، 1931م،ج3، ص10./ عاشور: سعيد عبد الفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص118.

(2)عبد العاطي: عبد الغني محمود، التعليم في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970م، ص151.

(3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف"الخطط المقريزية"، دار صادر بيروت، (د.ت)، ج2، ص187.

الناصرية، أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية، وقد عرفت بالمدرسة القمحية[1]، بعد سقوط الدولة الفاطمية أنشأ صلاح الدين الأيوبي ثلاث مدارس، وبذلك صار عدد المدارس التي بناها بالقاهرة وحدها خمس مدارس، وانتهج نهجه من بعده خلفاؤه في دولته، مما أدى إلى زيادة عدد المدارس حتى بلغ عددها بالقاهرة سنة(600هـ/1203م) حوالي ثلاث عشرة مدرسة[2].

ومما هو جدير بالذكر فإن تلك المدارس كانت تعمل جاهدة بدعم من الدولة لتوفير كل ما يحتاجه الطلبة، من مساكن يأوون إليها، ومن مدرسين تنوعت تخصصاتهم، ناهيك عن الرعاية الصحية والغذاء ونحوه التي أولته اهتماماً ملحوظاً، وهنا يذكر ابن جبير[3] قائلاً " اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام للنظر في مصالحهم "، كما تخصصت بعض المدارس في دراسة الحديث النبوي، ومنها دار الحديث بالقاهرة والتي عرفت باسم (الكاملية)، أنشأها السلطان الكامل محمد بن الملك العادل سنة(622هـ/1223م)[4]، كذلك وجدت دار الحديث الأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى سنة(630هـ/1231م)، وأوقف عليها الأوقاف[5]، والمدرسة

---

(1) ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ج4، ص187. / المقريزي، الخطط، ج2، ص464.

(2) عاشور، المرجع السابق، ص120.

(3) أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، السلوك لمعرفة دول الملوك " رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت، 1988م، ص15.

(4) الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان، دول الإسلام، تحقيق : حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص203.

(5) ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/ 1992م، ج6، ص280.

التمهيد:

أولاً- الحياة الفكرية في مصر قبيل دولة المماليك.

ثانياً- لمحة عن نشأة دولة المماليك.

أولاً: الحياة الفكرية في مصر قبيل دولة المماليك.

من خلال هذا التمهيد سيتم إلقاء الضوء على الحياة الفكرية في مصر قبيل قيام الدولة المملوكية، وذلك من خلال عرض الحياة الفكرية في الدولة الفاطمية والأيوبية بإيجاز، فالدولة الفاطمية أثناء حكمها لمصر فرضت المذهب الشيعي ليكون المذهب الوحيد للسكان، خاصة أن أهل السنة كانوا يمثلون السواد الأعظم من المصريين المسلمين، وفي مستهل القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي عمل الفاطميون على توجيه حملاتهم نحو مصر، للسيطرة عليها، وفي المقابل استطاع دعاتهم نشر هذا المذهب بشكل محدود من حيث عدد من اتبعه من السكان والذين كانوا بدورهم سنداً مهماً اعتمد عليه الفاطميون للدخول إلى مصر سنة (358هـ/968م)، ومن تم السيطرة عليها دون مقاومة بقيادة جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[1].

وهكذا كانت محاولة الفاطميين جادة في تحويل المصريين من المذهب السني، فاتبعت الدولة لذلك عدة وسائل منها إسناد المناصب العليا وخاصة الفقهاء إلى الشيعيين، واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية، وعلى رأسها الجامع الأزهر، واهتمامهم بتعيين المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وإظهار شعائرهم المخالفة لأهل السنة[2].

كان التعليم من الوسائل التي لجأ إليها الفاطميون في توطيد سلطانهم، حيث اتخذوا مراكز تعليمية لنشر مذهبهم والدعاية لهم من أشهرها الجامع الأزهر، ثم جاء

---

(1) عطا الله: خضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1. (د.ت)، ص84.

(2) سرور: محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1965م، ص8.

العصر الأيوبي الذي يعد نموذجاً لازدهار الحياة الفكرية في مصر، حيث يذكر أحد الباحثين قائلاً : " إننا نقرأ تاريخ الملوك الذين تعاقبوا على مصر من لدن صلاح الدين الأيوبي إلى آخر ملك من بني أيوب، فنوشك ألا نصادف فيهم ملكاً قليل العناية بالعلم، أو فاتراً في تشجيع أهله وتقريبهم إليه، بل أوشك أن يكون كل واحدٌ منهم إما شاعراً أو فقيهاً أو محدثاً أو ذا تصانيف ونحو ذلك..."[1].

لكن تجدر الإشارة هنا أنه مع انتقال مصر من حكم الفاطميين إلى حكم الأيوبيين ظهر عهد جديد اختلف عن سابقه في نظامه وسياسته ونهجه، فالأيوبيون كانوا يدينون بالمذهب السني وعملوا على نشره من جديد في مصر، وحاولوا جاهدين طمس معالم المذهب الشيعي والقضاء عليه، فاتخذوا هم أيضاً المراكز التعليمية لهذا الغرض، فقد شهدت مصر منذ بداية العصر الأيوبي اهتماماً عظيماً بإنشاء المدارس لتكون مراكز للتعليم، ينشر من خلالها المذهب السني، وأصبحت هذه المدارس فيما بعد مراكز علمية نشطة، تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير[2].

لقد اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين الأيوبي يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم[3]، كذلك السلطان العادل أبوبكر بن أيوب وهو أخو السلطان الملك الناصر

---

(1) حمزة: عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م، ص149.

(2) فرغلي: إبراهيم، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م، ص59.

(3) السبكي: تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود الطاحني- عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط2، 1992م، ج4، ص349.

صلاح الدين الأيوبي كان شديد الحب للعلماء[1]، كذلك العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطنة، فقد قال عنه ابن خلكان أنه " سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبو طاهر بن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبو محمد بن بري النحوي، وغيرهم..."[2]، كما سار السلطان الكامل على نهج سلفه، حيث شغف بالعلم وأهله، وذلك ما ذكره المقريزي[3] بقوله:" أنه كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع الحديث النبوي، ....، ومناظرة العلماء،... وكان يبيت عنده في القلعة جماعة من أهل العلم ليسامروه..."،ولم يختلف الأمر بالنسبة للسلطان الكامل، فقد كان معظماً للسنة النبوية وأهلها، راغباً في نشرها والتمسك بها، مؤثراً الاجتماع مع العلماء، إنما كان ينبع من أن هؤلاء العلماء هم سند الدولة والمدافعين عنها من خلال دعمهم للدولة، وتشجيع الناس للوقوف معها، والمعروف أن مصر تعرضت لأخطار حروب داهمه، كالحروب الصليبية وحروب المغول[4].

كما اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام من مختلف ضروب المعرفة، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء وهو إسماعيل بن علي بن عماد الدين صاحب حماه، ت(732هـ/1331م)، وكتابه المختصر في أخبار البشر[5]، ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه، صاحب بعلبك ت (628هـ/1230م)، وكان شاعراً وأديباً،

---

(1) المقريزي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد القادر العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ/1997م، ج1 ، ص 349.

(2) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م،ج1، ص 315.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص258.

(4) فرغلي، المرجع السابق، ص55.

(5) الكتبي : محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973م، ج1، ص20. / السبكي، المصدر السابق، ج1، ص24.

والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى ت (656هـ/1258م)، كان مشتغلاً بتحصيل الكتب النفيسة، والملك المؤيد الأيوبي من أهل العلم، اشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، كما أن الملك عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، ت(624هـ/1227م)، حيث كان راغباً في الأدب وأهله،" حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعه..."[1].

لقد تنافس أمراء البيت الأيوبي وكبار موظفي الدولة من الأيوبيين، على إنشاء المدارس ورعاية العلم، فكانت هذه المدارس السند المهم لبسط وتثبيت نفوذهم السياسي، وركيزة لتقوية وضعهم الداخلي في مصر بانتصارهم للمذهب السني، إضافة لحب الأمراء والسلاطين والأعيان للعلم والعلماء، وتشجيعهم له حتى أصبح من المعتاد طوال العصر الأيوبي أن يكون من أثار السلطان مدرسة أو أكثر، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها[2].

بالرغم مما يقال أن صلاح الدين كان قد هَدف من إنشاء المدارس لمحاربة المذهب الشيعي، والعمل على نشر المذهب السني وتعاليمه، فإن التوسع في إنشائها – أي المدارس– كان مظهراً قوياً لرقي الحياة الفكرية في عصر الأيوبيين، حيث بدأ بإنشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي، إذ يروي المقريزي[3] أنه كانت بمصر دارٌ عرفت بدار المعونة، يحبس فيها من يراد حبسه، فهدمها صلاح الدين الأيوبي وبنى مكانها مدرسة للشافعية سنة(566هـ/1170م)، وقد عرفت باسم مدرسة

---

(1) زيدان: جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، 1931م،ج3، ص10./ عاشور: سعيد عبد الفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص118.

(2)عبد العاطي: عبد الغني محمود، التعليم في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970م، ص151.

(3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف"الخطط المقريزية"، دار صادر بيروت، (د.ت)، ج2، ص187.

الناصرية، أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية، وقد عرفت بالمدرسة القمحية[1]، بعد سقوط الدولة الفاطمية أنشأ صلاح الدين الأيوبي ثلاث مدارس، وبذلك صار عدد المدارس التي بناها بالقاهرة وحدها خمس مدارس، وانتهج نهجه من بعده خلفاؤه في دولته، مما أدى إلى زيادة عدد المدارس حتى بلغ عددها بالقاهرة سنة(600هـ/1203م) حوالي ثلاث عشرة مدرسة[2].

ومما هو جدير بالذكر فإن تلك المدارس كانت تعمل جاهدة بدعم من الدولة لتوفير كل ما يحتاجه الطلبة، من مساكن يأوون إليها، ومن مدرسين تنوعت تخصصاتهم، ناهيك عن الرعاية الصحية والغذاء ونحوه التي أولته اهتماماً ملحوظاً، وهنا يذكر ابن جبير[3] قائلاً " اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام للنظر في مصالحهم "، كما تخصصت بعض المدارس في دراسة الحديث النبوي، ومنها دار الحديث بالقاهرة والتي عرفت باسم (الكاملية)، أنشأها السلطان الكامل محمد بن الملك العادل سنة(622هـ/1223م)[4]، كذلك وجدت دار الحديث الأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى سنة(630هـ/1231م)، وأوقف عليها الأوقاف[5]، والمدرسة

---

(1) ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ج4، ص187. / المقريزي، الخطط، ج2، ص464.

(2) عاشور، المرجع السابق، ص120.

(3) أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، السلوك لمعرفة دول الملوك " رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت، 1988م، ص15.

(4) الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان، دول الإسلام، تحقيق : حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص203.

(5) ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/ 1992م، ج6، ص280.

الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة(639هـ/1241م)، وكانت هذه المدرسة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة[1].

كانت المدارس أنداك أشبه بالجامعات في الوقت الحالي، فكان لكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وإن كان بعضها يشتمل على المذاهب الأربعة، ولم تقتصر المدارس على العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير فقط، بل كانت مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية[2].

كان يقوم بالتدريس في المدرسة مدرسٌ أو أكثر، يختار من مشايخ علماء عصره، وأوسعهم علماً، لأن مكانة المدرسة وسمعتها التي تؤثر في شهرتها تعتمد أساساً على مكانة المدرسين وشهرتهم، كما أن للمعلم معيد وظيفته مساعدة المدرس في متابعة الطلاب من خلال إعادة الدروس التي ألقاها المدرس عليهم وشرح ما استعصى عليهم، ومنذ العصر الأيوبي أصبح منصب المعيد مرموقاً، وقل أن خلت منه مدرسة من المدارس التي أنشئت في ذلك العصر[3]، فقد عين صلاح الدين الأيوبي معيدين بالمدرسة الناصرية، كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين لكل واحد من المدرسين الأربعة في مدرسته[4]، ووجدت كذلك الكتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم، وقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي عدداً منها

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص 374/ باشا: علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة،1305هـ، ج1 ، ص 77.

(2) عاشور، المرجع السابق، ص121.

(3) عبد العاطي، المرجع السابق، ص62.

(4) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1968م،ج2، ص 157 / المقريزي، الخطط، ج2، ص 374-400.

لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة، مما جعل الرحالة ابن جبير[1] يعتبر ذلك من مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة.

إلى جانب المدارس كانت هناك المساجد، حيث حظيت كثير منها في مصر زمن الأيوبيين بنشاط فكري وعلمي ملحوظ، وإن كانت المساجد قد أقيمت أساساً للعبادة فإنها كانت تؤدي وظيفة تعليمية إلى جانب ما كان يؤدي فيها من شعائر العبادة مع وجود المدرسة، بل لعلها تفوقت أنداك على المدارس، بما اختصت به من ميزات من بينها كثرة المنتفعين بالعلم فيها والحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار مناهج[2] الدراسة وأسلوبها وأوقاتها، وقد أجمل ابن الحاج[3] في كتابه المدخل هذه الميزات بقوله: " وأفضل مواضع التدريس المسجد لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنّة أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله علينا يحصل فيه هذا الغرض متوافراً لأنه موضع مجتمع الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم، إذ المدرسة لا يدخلها في الغالب إلا أحاد الناس بالنسبة للمسجد، لأنه ليس كل الناس يقصد المدرسة، وإنما يقصد أعمهم المسجد"، ومن المساجد التي حظيت بالاهتمام الجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، والجامع الحاكم وجامع ابن طولون.

ثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحاً في العصر الأيوبي وهي ظاهرة التصوف والإكثار من بناء منازل للصوفية والتي عرفت باسم الخانقاوات، ذكر أن صلاح الدين الأيوبي قد أنشأ أول خانقاه بمصر، وهي خانقاه سعيد السعداء سنة (569هـ/1173م)، وولى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ، ووقف عليها الأوقاف

(1) المصدر السابق، ص27.

(2) عبد العاطي، المرجع السابق، ص62.

(3) أبو عبد الله محمد العبدري المالكي الفاسي، المدخل، مكتبة دار التراث،القاهرة، (د.ت).ج2، ص102.

للإنفاق على من فيها من الفقراء، كما خصص لهم في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارها[1].

وكذلك الربط والزوايا فهي مراكز أدت وظائف تعليمية وإصلاحية بجانب قيامها بوظيفتها الأساسية وظيفة التصوف، فإلى كونها أماكن للانقطاع للعبادة كانت مراكز علمية تلقى فيها دروس الفقه والحديث والقراءات، ويتدارس في خلواتها كثير من العلوم كالتصوف والطب والنحو والصرف، وغير ذلك كل بحسب جهده وطاقته وإلمامه بأطراف هذه العلوم[2].

وكان من ثمار النهضة الثقافية في مصر زمن الأيوبيين الاهتمام بالمكتبات، والعناية بالكتب لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات، فقد كان العديد منها ملحقة بالمدارس والجوامع والكتاتيب والخوانق والزوايا، إلى جانب المراكز السابقة وجدت مراكز أخرى مثل بيوت العلماء وحوانيت الوراقين وقصور السلاطين والأمراء ومجالسهم وغيرها[3].

لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التي أوقفوها عليها، ولم تكن جميع هذه الأوقاف أراضي زراعية، حيث ذكر أن صلاح الدين الأيوبي أوقف على مدرسته الصلاحية التي بناها بجوار مقام الإمام الشافعي حماماً وفرناً وحوانيت، فضلاً عن الجزيرة التي كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة، كذلك المدرسة القمحية التي أوقف عليها أوقافاً بالفيوم[4]، كما خصصت للمكاتب

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص415

(2) عبد الكريم: دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ص23.

(3) سلام: أيمن شاهين، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999م، ص68-69.

(4)ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص95.

أوقافاً للإنفاق على مؤدبيها وتلاميذها، وكانت تجرى عليهم الجراية الكافية لهم[1].

لقد برز العديد من العلماء في العصر الأيوبي في علومٍ عدة، منهم في علم اللغة كمحمد بن بري ت(571هـ/1185م)، وأبو الفتح البلطي ت(628هـ/1231م)، وابن الحاجب المتوفي سنة(646هـ/1248م)[2]، والعماد الأصفهاني ت(597هـ/1201م) ، أما في الشعر فبرز منهم ابن سيناء الملك المصري ت(608هـ/1211م)، وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها[3]، وكمال الدين بن النبيه المصري ت(619هـ/1222م)، وابن شمس الخلافة ت (632هـ/1235م)[4]، وعمر بن الفارض ت (632هـ/1235م) [5]، وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف، وجمال الدين بن مطروح ت (649هـ/1251م)، أيضاً بهاء الدين زهير ت (656هـ/1258م)[6].

أما علم التاريخ فقد شهد نشاطاً كبيراً في العصر الأيوبي، فاتجه بعض المؤرخين لكتابة مؤلفات في تاريخ الدولة الإسلامية، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم، في حين عني القسم الأكبر منهم بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبين، ومن مؤرخي ذلك العصر أبو علي الجواني المصري ت(639هـ/1241م)، وبهاء الدين بن شداد، صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة

---

(1) عاشور، المرجع السابق، ص123.

(2) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص55-56.

(3) حمزة: عبد اللطيف، الأدب المصري منذ قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص322.

(4)الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق : إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م،ج19، ص256.

(5)السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص337.

(6) ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص194.

بـ(النوادر السلطانية)، وقد توفي سنة (632هـ/1235م)، وكذلك شهاب الدين أبو شامة ت (665هـ/1267م)، صاحب كتاب الروضتين، وابن ظافر الأزدي صاحب كتاب الدول المنقطعة، وغيرهم الكثير[1].

أما في الطب برز ابن أبي اصيبعة أحمد أبو قاسم بن خليفة الخزرجي، ت (668هـ/1269م)، وقد درس الطب وأخذ عن كبار أطباء عصره، وكتب تاريخه المعروف بـ(عيون الأنباء في طبقات الأطباء)[2]، والعالم العربي ابن البيطار ت(646هـ/1248م)، الذي برز في علاج الأعشاب، وغيرهم الكثير في علوم أخرى[3].

---

(1) عاشور، المرجع السابق، ص118/ مصطفى: شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1979م، ص256.

(2) ابن أبي اصيبعة : موفق الدين أبي العباس أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق : نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص5-6.

(3)المصدر نفسه، ص601.

ثانياً- لمحة عن نشأة دولة المماليك :-

المملوك : هو العبد الذي يباع ويشترى، جمعها مماليك[1]، وقد اقتصرت هذه التسمية في معظم الدول الإسلامية المتأخرة على فئة الرقيق الأبيض الذين يجلبهم التجار من أسواق النخاسة البيضاء من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، ففيهم عنصر الأتراك وفيهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً[2]، والمماليك هم من الرقيق، وهم نوع خاص يجلبون أطفالاً من أسواق النخاسة، ويعرضون على السلطان ليشتريهم، ثم يخضعون لتدريب عسكري خاص ليلتحقوا فيما بعد بخدمة السلاطين[3].

عند دراسة تاريخ المماليك يتضح أن ظهورهم في المنطقة الإسلامية يرجع إلى ما قبل قيام دولتهم بأمدٍ كبير، إذ يرجع إلى عهد الدولة العباسية، فأول من شكل فرقةً عسكرية من المماليك الأتراك خاصة هو الخليفة العباسي المأمون، ومن بعده المعتصم بالله، حيث عني باقتناء أبناء الأتراك الصغار، وعكف على جلبهم من عدة مناطق حتى شكل عدد مماليكه بضعة عشرة ألفاً[4]، ثم أخذ بمبدأ استخدام المماليك

---

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م، ص889.

(2) قاسم: عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك(التاريخ السياسي والاجتماعي)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 1998م، ص25/ عودات: أحمد، تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، اربد، 1990م، ص61.

(3) قاسم، المرجع السابق، ص25/ شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي(العهد المملوكي)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط5، 2000م، ص21-22.

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003م، ص222.

ولاة مصر من الطولونيين إلى الإخشيديين ثم الفاطميين*[1]

أما الدولة الأيوبية ففي عهدها زاد اهتمامها بالمماليك والاعتماد عليهم، حيث تتم تنشئتهم في البلاط على مقربة من السلاطين وأمرائهم، خاصة بعدما أكثر الأمراء الأيوبيون من شراء المماليك ليكونوا عدة لهم وسنداً، وهكذا زادت أعداد المماليك في جيوش الحكام الأيوبيين وزاد نفوذهم وأهميتهم في الحياة السياسية، وذلك في أغلب الأمارات الأيوبية، وقد عم نفوذهم في أغلب المنطقة الإسلامية بما فيها مصر[2].

أما عن تقسيم المماليك فقد اتفق المؤرخون على تقسيمهم إلى قسمين، وهما المماليك البحرية، والمماليك الجراكسة أو البرجية، وفيما يلي لمحة موجزة عن نشأة كل قسم منهما، مع ذكر لأبرز سلاطينهم.

أ) **المماليك البحرية**: -

يعد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (637هـ-1240م/647هـ-1249م)، هو المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك، كما أنه عمل على تكوين فرقة

---

* ينسب الطولونيون إلى أحمد بن طولون الذي كان مملوكاً تركياً، أهداه حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني في جملة الرقيق والهدايا للخليفة المأمون سنة (200هـ/815م)، وتدرج بن طولون في حياة المماليك حتى صار حاكماً على مصر سنة (254هـ/868م)، واعتمد هو الأخر على المماليك من أبناء جنسه التركي، ينظر- العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ص66/ الدولة الإخشيدية سارت على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك ولعل من أبرزهم كافور الإخشيدي الذي حكم مصر، انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص256، أما عن الفاطميين بمصر فإنهم قد أضافوا نوعاً من المماليك جاؤوا من المغرب، عرفوا بالصقالبة، وهم أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر، للمزيد ينظر: المقريزي، الخطط، ج2، ص41-42./ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج2، ص117.

(1) فرغلي المرجع السابق، ص31.

(2) عودات، المرجع السابق، ص65/ فرغلي، المرجع السابق، ص32/ قاسم، المرجع السابق، ص25.

المماليك البحرية، حيث يذكر"... أن الملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر، فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك وجعل معظمهم عساكره..."[1]، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من بني أيوب، أما عن سبب تسميتهم بالبحرية فبعض المؤرخين يرجعون ذلك لاختيار الصالح نجم الدين أيوب لجزيرة الروضة في القاهرة لتكون مركزاً لهم[2]، بينما يرجع آخرون ذلك لكونهم جاءوا من وراء البحار، وكان أغلبهم من الأتراك القفجاق، وتمكنوا من حكم مصر لأكثر من قرن (648هـ-1250م/784هـ-1381م)[3].

تمكن المماليك البحرية بعد سقوط الدولة الأيوبية من الوصول للسلطة، ففي خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان نجم الدين أيوب، وقامت زوجته شجر الذر بإدارة شؤون البلاد حتى تولى الحكم ثوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (647هـ/1250م)[4]، وتمكن من هزيمة الصليبيين في المنصورة وبعد عودته وجد أمامه قوة المماليك ونفوذهم من ناحية، وطموح زوجة أبيه شجر الذر من ناحية أخرى، فوقع في صدام بينه وبين شجر الذر التي استعانت بالمماليك، وانتهى الأمر بقتل ثوران شاه سنة (648هـ/1250م)، وبموته انتهت دولة بني أيوب من مصر تماماً بعد أن حكموا البلاد قرابة 81 سنة[5].

تولت شجر الذر الحكم بعد ثوران شاه، إلا أنها لم تدم فيه أكثر من ثمانين

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص339.

(2)أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط1، 1906م، ج3، ص139-140.

(3) العبادي، المرجع السابق، ص99.

(4) ابن الوكيل : يوسف الملواني، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق : محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1419هـ/ 1999م، ص60.

(5) عاشور، المرجع السابق، ص157./ عودات، المرجع السابق، ص75-76.

يوماً، ويرجع الأمر لكون المصريين أنفوا من قيام امرأة في السلطنة، كما لم يرض الأيوبيون في الشام بهذا الأمر، كما أن الخليفة العباسي المستعصم بالله استهجن أن تكون امرأة على رأس السلطة في مصر، فأرسل إلى المماليك رسالة جاء فيها: " أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها..."[1]، ولمواجهة هذا الأمر رأى أمراء المماليك أن تتزوج شجر الذر من الأمير عز الدين أيبك، وتم ذلك سنة (648هـ/1250م)، حيث خلعت شجر الذر نفسها من الحكم وتنازلت عنه لعز الدين أيبك[2]، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة في تاريخ مصر بحكم المماليك لها.

أبرز سلاطين دولة المماليك البحرية :

- السلطان المعز أيبك التركماني*(648هـ/1250م):

هو السلطان المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي، المعروف بالتركماني، أول ملوك الترك بالديار المصرية، أصله من مماليك الصالح نجم الدين أيوب[3]، اتفق الأمراء على سلطنته في ربيع الأول سنة (648هـ/1250م)[4]،

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص368-369.

(2) فرغلي، المرجع السابق، ص33/ عاشور، المرجع السابق، ص161.

* التركماني نسبة إلى أحد أمراء بني رسول الذين استقلوا باليمن، وكانوا قد عملوا في خدمة بني أيوب بمصر، وقد عرفوا خطأ بالتركماني مع أنهم عرب غساسنة، ينظر : المقريزي، السلوك، ج2، ص368.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص328/ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص3/ الدواداري : أبي بكر بن عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر(الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق : أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1391هـ/ 1971م، ج8، ص12.

(4)ابن الوكيل، المصدر السابق، ص60 / المنصوري : ركن الدين بيبرس المنصوري الخطائي الدوادار المصري، مختار الأخبار، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1413هـ/ 1993م، ص97.

واستمر في الحكم حتى حدث خلاف بينه وبين زوجته شجر الذر التي قامت بقتله مع جواريها في ليلة الأربعاء14 ربيع الأخر لسنة (655هـ/1257م)[1]، وعلى إثر ذلك قتلها المماليك، وكانت فترة حكم عز الدين أيبك سبع سنوات[2].

- **السلطان المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك** (657هـ/1258م):

حكم بعد وفاة والده، حيث اتفق الأمراء على سلطنته ولقبوه بالمنصور، ونظراً لصغر سنه فقد كان سيف الدين قطز أتابكاً له[3]، وفي سنة (656هـ/1258م) ظهر خطر التتار الأمر الذي جعل قطز يخلع المنصور ويحل محله في الحكم، ليتمكن من مواجهة المغول[4]، وبذلك انتهى حكم المنصور بعد سنتين وثمانية أشهر.

- **السلطـان قـطـز** (657-658هـ/1258-1260م):

سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي[5]، تولى السلطنة في شهر ذي القعدة من سنة (657هـ/1258م)، وكان له دورٌ بارز في مواجهة الخطر المغولي والانتصار عليهم في موقعة عين جالوت سنة (658هـ/1260م)، وبعد هذا الانتصار تأمر عليه عدد من قادة المماليك وتم قتله على يد بيبرس البندقداري في نفس السنة[6].

---

(1) المنصوري، المصدر السابق، ص97./ الملطي : عبد الباسط بن خليل بن شاهين، نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1407هـ/1987م، ص69.

(2)ابن الوكيل، المصدر السابق، ص61.

(3) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص37.

(4)ابن الوكيل، المصدر السابق، ص61.

(5) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص67 / المقريزي، السلوك، ج1، ص417.

(6)عاشور، المرجع السابق، ص167 / فرغلي، المرجع السابق، ص36.

ـ السلطان الظاهر بيبرس البندقداري*(658-676هـ/1260-1277م):

بيبرس بن عبد الله البندقداري التركي الصالحي النجمي الأيوبي الكبير الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح[1]، تولى السلطنة في الخامس عشر من ذي القعدة لسنة(658هـ/1260م)، ويعد المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك، ففي الوقت الذي تغلب فيه المماليك على معظم أنحاء الدولة الأيوبية، وبانتصارهم على المغول في عين جالوت والتغلب على الصليبيين، عمل بيبرس على تدعيم أركان دولة المماليك وذلك من خلال إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، وذلك ليكسب حكمه صفة الشرعية، إلا أن ذلك لوحده لا يكفي فقد كان بيبرس حريصاً على التقرب من العلماء والقضاة، وقيامه ببناء المدارس والمساجد منها المدرسة الظاهرية بالقاهرة ومسجده الذي حمل اسمه[2]، كما تمكن من هزيمة الصليبيين والمغول، فكان لذلك أثر كبير في تدعيم أركان الدولة المملوكية التي أصبحت تقوم على أساسين، أحدهما عسكري يعتمد على قوة الجيش المملوكي، والآخر ديني يستند على قوة دينية متمثلة في الخلافة العباسية في القاهرة، إضافة إلى أعمال أخرى[3]، وقد توفي بيبرس في شهر محرم من سنة (676هـ/1277م)، بعد حقبة من الحكم استمرت لسبع عشرة سنة وشهرين[4].

---

* البندقداري : نسبة إلى البندقدار، وهو الذي يحمل قوس البندق خلف السلطان أو الأمير، وقد سمي بيبرس بذلك لأنه كان في أول أمره مملوكاً للأمير أيدكين البندقدار، ثم انتقل إلى الملك الصالح أيوب وصار من مماليكه البحرية، ينظر: ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص 886.

(1) الملطي، المصدر السابق، ص74/ المنصوري، المصدر السابق، ص12.

(2)النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج30، ص93/ المقريزي، الخطط، ج2، ص374-299.

(3) قاسم، المرجع السابق، ج7، ص111.

(4) المنصوري، المصدر السابق، ص12/ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص87-88 .

- الملك السعيد بركه (676-678هـ/1277-1279م):

السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد، المدعو بركه خان ابن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري[1]، تولى السلطنة في أيام والده حيث عقد له الولاية، واستنابه أثناء سفره على مصر، تولى السلطنة يوم الخميس 16 صفر من سنة (676هـ/1277م)، بعد وفاة والده، وقد اختلف عليه الأمراء فخلع نفسه من السلطنة، وكانت مدة حكمه سنتين وثمانية أشهر[2].

- الملك العادل سلامش (678هـ/1279م):

هو العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري[3]، وصل للسلطنة بعد خلع أخيه من نفس السنة، وخلع نفسه هو الأخر بعد مدة حكم لم تتجاوز مائة يوم[4].

- الملك المنصور قلاوون الألفي*(678-689هـ/1279-1290م):

المنصور سيف الدين أبو المعالي قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، تولى السلطنة يوم الأحد 20 رجب سنة (678هـ/1279م)[5]، وهو يعد مؤسس دولة قلاوون، فقد حكم ومن بعده أولاده وأحفاده لأكثر من قرن،

---

(1) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص233/ الملطي، المصدر السابق، ص77.

(2) الشرقاوي : عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق : رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1416هـ/ 1996م، ص100.

(3) ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، تحقيق : قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1936م، ج7، ص150.

(4) ذكر المقريزي أنه خلع بعد مائة يوم، ينظر: السلوك،ج1، ص658، بينما ذكر ابن تغري بردي أن مدة حكم الملك العادل كانت ثلاثة أشهر وستة أيام، ينظر: المصدر السابق، ج7، ص 243.

* سمي الألفي لأنه تم شراؤه بمبلغ قدره ألف دينار، ينظر: الشرقاوي، المصدر السابق، ص100.

(5)ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص678 / المقريزي، الخطط، ج2، ص238.

وذلك من سنة (678هـ/1279م) إلى سنة (784هـ/1382م)[1]، والحقيقة أن هذا الأمر يعد غريباً في دولة المماليك التي لا تؤمن بمبدأ الوراثة في الحكم، نظراً للطبيعة العسكرية التي ميزت تلك الدولة منذ نشأتها، فالمماليك كانوا يرون أنهم متساوون جميعاً من حيث النشأة، وحتى في المطالبة والوصول لعرش البلاد، الذي لا يصله إلا من كان يمتلك القوة والقدرة لذلك، إذاً هل غيّر المماليك مفاهيمهم، وأمنوا بمبدأ الوراثة في الحكم؟ أم أن القوة كان لها دورٌ في استمرار حكم هذه الأسرة لفترة طويلة مقارنة بعمر الدولة ككل؟

يمكن القول أن الظروف والملابسات التي أحاطت بسلاطين تلك الأسرة، التي حكمت مصر والشام والحجاز بصورة غير متصلة، فحكمهم لم يكن حكم متواصل، لكن بالنظر لتاريخ حكمهم يجد أن هذا الأمر يعد ظاهرة مميزة في تاريخ سلاطين المماليك، فالأمر مرده للقوة التي كان يكتسبها المماليك البحرية، فعند ضعف دولة المماليك البحرية وظهور المماليك الجراكسة على مسرح الأحداث من حيث السياسة والقوة معاً، انتهى حكم هذه الأسرة، والمماليك البحرية معهم، كما أن السلطان قلاوون قام بالعديد من الأعمال، أبرزها بناءه للبيمارستان والمدرسة والجامع[2]، وفتوحاته وانتصاره على الصليبيين والمغول[3]، وقد توفي السلطان المنصور قلاوون سنة (689هـ/1290م)، لتكون فترة حكمه إحدى عشرة سنة وثلاثة شهور ونصف[4].

- **الملك الناصر محمد بن قلاوون** (693-698هـ/1293-1298م):

هو السلطان أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان المنصور سيف

---

(1) ابن الوكيل، المصدر السابق، ص62.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص379-381.

(3) الداوداري، المصدر السابق، ص8/ الشرقاوي، المصدر السابق، ص101.

(4)ابن الوكيل، المصدر السابق، ص92/ الملطي، المصدر السابق، ص80.

الدين قلاوون الألفي الصالحي[1]، تولى السلطنة ثلاث مرات، الأولى كانت سنة (693هـ/1293م)، وخلع سنة (694هـ/1294م)، أي بعد سنة واحدة من حكمه، ثم أعيد توليه الحكم سنة (698هـ/1298م)، ثم خلع منه سنة (708هـ/1308م)، فكانت مدة حكمه الثانية عشر سنين وسبعة أشهر، ثم أعيد للسلطنة للمرة الثالثة سنة (709هـ/1309م)، ليبقى فيها قرابة اثنين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وقد قدرت مدة حكمه حوالي ثلاث وأربعين سنة ونصف، وقد توفي سنة (741هـ/1340م)[2].

- **السلطان العادل كتبغا** (694-696هـ/1294-1296م):

هو زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي، تولى السلطنة سنة (694هـ/1294م)، بعد خلع الناصر محمد قلاوون من سلطنته الأولى، ثم خلع سنة (696هـ/1296م)، فكانت مدة سلطنته سنتين وسبعة عشر يوماً[3].

- **المنصور لاجين** (696-698هـ/1296-1298م):

حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري سنة (696هـ/1296م)، ومات مقتولاً سنة (698هـ/1298م)، فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر[4].

- **بيبرس الجاشنكير** (708-709هـ/1308-1309م):

ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير، أصله من المماليك البرجية، وهو يعد أول من تولى السلطنة من الجراكسة سنة (708هـ/1308م)، وبقي فيها

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ص129/ ابن إياس : أبو البركات محمد ابن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، مكتبة الشعب، القاهرة، 1960م، ج1، ص445.

(2) ابن الوكيل، المصدر السابق، ص63/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص3-4.

(3) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص386/ ابن الفرات، المصدر السابق، ج8، ص193.

(4) المنصوري، المصدر السابق، ص104/ ابن الفرات، المصدر السابق، ج8، ص376، الملطي، المصدر السابق، ص101.

أحد عشر شهراً، وهرب إلى بلاد الصعيد وانتهى خبره في سنة(709هـ/1309)[1].

- الناصر حسن (748-752هـ/1347-1351م)(755-762هـ/1354-1360م):

الناصر بدر الدين حسن بن محمد بن قلاوون، تسلطن سنة (748هـ/1347م)، وخلع سنة (752هـ/12351م)، ثم أعيد مرة أخرى سنة (755هـ/1354م)، وانتهى به الأمر مقتولاً سنة (762هـ/1360م)، فكانت مدته الأولى والثانية قرابة أربع عشرة سنة[2].

- الأشرف شعبان (764-778هـ/1362-1376م):

الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة (764هـ/1362م)، وقد مات مقتولاً في سنة (778هـ/1376م)، وكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وشهرين[3].

مما يجذر الإشارة إليه هنا أن بيت السلطان الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر لمدة أربعين سنة، وبعد وفاته توارث العرش في العشرين سنة الأولى ثمانية من أولاده على التعاقب، ثم انتقل الحكم إلى أحفاده في العقدين التاليين، حيث تقلد حكم مصر سلاطين أطفال كانوا يولون ويعزلون طبقاً لأهواء المماليك الذين ازداد نفوذهم في ذلك العهد[4].

في الحقيقة إن هذه الأسرة لم يبرز منها سلاطين أقوياء باستثناء مؤسسها

---

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م ج3، ص468/ المقريزي، الخطط، ج2، ص417.

(2) المقريزي، السلوك، ج2، ص841/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 10، ص148.

(3)المقريزي، الخطط، ج2، ص400/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص20-21/ ابن الوكيل، المصدر السابق، ص64.

(4) فرغلي،المرجع السابق، ص53.

السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل، ثم ابنه الناصر محمد بينما كان أولاده وأحفاده ضعفاء يتحكم بهم الأمراء، وكان أخرهم الملك الصالح الحاجي الذي خلعه الأمير برقوق، وبذلك أنهي حكم أسرة قلاوون، وانتهت دولة المماليك الأولى لتقوم دولة المماليك الثانية وهي دولة المماليك الجراكسة.

ب) المماليك الجراكسة:

المماليك الجراكسة لم يجلبهم الأيوبيون، وإنما اشتراهم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، فقد عمل على تكوين فرقة جديدة من المماليك، وهي تعد كالحرس الخاص، حيث يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون سنداً لأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش، فاختار المماليك الجدد من جنس أخر غير الجنس التركي والتتار، وإنما أقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج، وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، خاصة أن الجراكسة كانت أعدادهم كبيرة في سوق الرقيق وذلك بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول[1].

أكثر السلطان المنصور قلاوون من شراء هؤلاء المماليك، حتى بلغ عددهم في حياته أكثر من ثلاثة ألاف مملوك[2]، وأسكنهم في أبراج القلعة مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم " المماليك البرجية "، وكان قلاوون حريصاً على عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك كما اهتم بتدريبهم وأغدق عليهم من هباته وأمواله الكثير[3].

---

(1) عاشور، المرجع السابق، ص223. / ينظر: قاسم، المرجع السابق، ص142.

(2) المقريزي، السلوك، ج3، ص755.

(3)المصدر نفسه، ج3، ص756.

لقد سار أبناء قلاوون وأحفاده على نفس سياسته في الاهتمام بطائفة المماليك الجراكسة، إذ تذكر المصادر أن الأشرف خليل اشترى حوالي ألفين منهم[1].

بعد وفاة السلطان المنصور قلاوون اختلفت أوضاع هؤلاء المماليك، فبينما فرض عليهم السلطان قلاوون العزلة، قام السلطان خليل بالسماح لهم بالنزول من ثكناتهم العسكرية إلى الأسواق والمدن، فكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى اختلاطهم بالعامة[2].

مع مرور الزمن واهتمام السلاطين بهم والاعتماد عليهم في كل شؤون البلاد ازداد نفوذهم، وفي ذلك يذكر المقريزي[3] :" أنه في سلطنة الناصر محمد الثانية قويت شوكة البرجية بديار مصر، وصارت لهم الحمايات الكبيرة، وتردد الناس إليهم في الأشغال".

وما يهم هنا هو وصولهم للحكم، وذلك كان مند تولى السلطان علاء الدين الحكم حتى وفاته سنة (783هـ/1381م)، وتولى الصالح حاجي تحت إشراف برقوق سنة (783هـ/1381م)، الذي أخذ يمهد لنفسه من خلال تقربه للناس وتخفيض الضرائب وإطلاق سراح السجناء وغيرها من الأمور، حتى كان اجتماعه بأكابر الدولة بالقلعة سنة (784هـ/1382م)، واجمع الحاضرون على خلع السلطان أمير حاجي، وإعلان برقوق سلطاناً[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص241.

(2) قاسم، المرجع السابق، ص143.

(3) السلوك، ج1، ص875.

(4) ابن إياس، المصدر السابق، ج3، ص82.

بدأت بذلك دولة السلاطين الجراكسة، التي استمرت في حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاماً، ومما يجذر الإشارة إليه أن هذه الدولة اختلفت عن دولة المماليك البحرية في عدة نواحي منها:

لقد كان جميع سلاطين المماليك الجراكسة من جنس جركسي، ماعدا اثنين هما (السلطان خشقدم، والسلطان تمريغا)، كما أنهم لم يطبقوا مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول سلاطين البحرية تطبيقه، فقد كانوا زعماء وأمراء كبار، وذلك لا يرجع إلى مهارتهم الحربية وإنما إلى قدرتهم على ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضهم ببعض، مما تجدر الإشارة إليه أن مصر قاست كثيراً في عهد الجراكسة، بسبب المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك، وما كان ينجم عن ذلك من حوادث وقتال في الشوارع، مما سبب في عدم وجود الاستقرار داخل البلد، إلا أن هذه المنازعات حرص المماليك على أن تكون داخل دائرة خاصة، بحيث لم تتمكن أي قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد[1].

أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة:

- الظاهر برقوق(784-791هـ/1382-1388م)(791-801هـ/1388-1398م):

الظاهر أبوسعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي، تولى السلطنة سنة (784هـ/1382م)، بعد أن اجتمع الخليفة المتوكل على الله والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني، وتمت مبايعته على السلطنة وقلده أمور المملكة[2]، كما واجه السلطان برقوق المغول بقيادة تيمورلنك، وأنشأ مدرسته

---

(1) عاشور، المرجع السابق، ص230.

(2) المقريزي، السلوك، ج3، ص 462/ العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق : حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م، ج1، ص107.

المعروفة بالظاهرية[1]، وقد خلع سنة (791هـ/1388م)، وسجن بالكرك، فكانت مدة سلطنته الأولى ست سنوات وبضعة أشهر[2]، ثم أعيد في نفس السنة وظل في السلطنة حتى سنة (801هـ/1398م)، فكانت مدة سلطنته الثانية عشر سنين، وبالتالي فإنه قد حكم حوالي ستة عشر سنة[3].

- **الناصر فرج**(801-808هـ/1398-1405م)(808-815هـ/1405-1412م):

السلطان الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ابن السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق، تولى السلطنة سنة (801هـ/1398م)، وذلك بعهد والده له بالسلطنة قبل وفاته، ثم خلع سنة (808هـ/1405م)، فكانت مدة حكمه الأولى ست سنوات وخمسة أشهر[4]، ثم أعيد للسلطنة في نفس السنة ودام في الحكم إلى سنة (815هـ/1412م)، حيث تم قتله بدمشق، وبهذا فإن كل مدة حكمه كانت قرابة أربع عشرة سنة[5].

- **الأشرف أبو النصر برسباي**(825-841هـ/1422-1437م):

الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، تولى السلطنة سنة (825هـ/1421م)، وقد توفي سنة (841هـ/1437م)، لتكون مدة حكمه ستة عشرة وتسعة شهور وعشرة أيام[6].

---

(1) المقريزي، السلوك، ج3، ص 946/ الملطي، المصدر السابق، ص118.

(2) المقريزي، السلوك، ج3، ص 616.

(3) الملطي، المصدر السابق، ص119/ ابن الوكيل، المصدر السابق، ص65.

(4) المقريزي، السلوك، ج3، ص959/ السخاوي الشافعي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج6، ص168/ ابن اياس، المصدر السابق، ج3، ص275.

(5)المقريزي، الخطط، ج2، ص232/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص11.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص78/ الحنبلي: شهاب الدين أبي الفلاح بن أحمد ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار القلم، بيروت، (د.ت)، ج7، ص238/ السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص8.

- **الأشرف قايتباي** (872-901هـ/1467-1495م):

هو السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري، تولى السلطنة سنة (872هـ/1467م)، وتوفي سنة (901هـ/1495م)، وبلغت مدة حكمه تسع وعشرون سنة وأربعة أشهر[1].

- **الظاهر قانصوه** (904-905هـ/1498-1499م):

السلطان قانصوه المحمدي الأشرفي الجركسي، تولى السلطنة سنة (904هـ/1498م)، بعد قتله لابن أخته الناصر محمد، وقد خلع سنة (905هـ/1500م)، حيث حكم مدة سنة وثمانية أشهر[2].

- **العادل طومان باي** (906هـ/1500م):

طومان باي بن قانصوه، تولى السلطنة سنة (906هـ/1500م)، وخلع في نفس السنة، حيث حكم ما يقارب من مائة يوم في مصر، ثم بقي في دمشق حتى قتل في نفس السنة[3].

- **الأشرف قانصوه الغوري***(906-922هـ/ 1500-1516م):

تولى سلطنته سنة (906هـ/1500م)، واستمر حكمه قرابة ست عشرة سنة وأربعة أشهر، اتصف بالظلم والتعسف، وعمل على مصادرة أموال الناس، وركز اهتمامه على مماليكه ومنشأته المعمارية، وقد كانت البلاد في بداية عهده يسودها الأمن حتى جاء خطر البرتغاليين على طرق التجارة، حيث اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة (892هـ/1487م)، ووصلوا إلى الهند فحققوا بذلك نصراً من

---

(1) السخاوي، المصدر السابق، ج6، ص 201/ الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص6.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج3، ص 446/ الملطي، المصدر السابق، 151.

(3) الملطي، المصدر السابق، ص119/ ابن الوكيل، المصدر السابق، ص65.

* الغوري نسبة إلى طبقة الغور إحدى الطبقات التي كانت بمصر تعلم المماليك للمزيد انظر: الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص113.

خلال توفيرهم لسوق جديد من التوابل وغيرها من السلع، وبضرائب أقل من التي كانت قد فرضتها دولة المماليك، ذلك الأمر كان له الأثر القوي على دولة المماليك واقتصادها، فحرم سلاطينها من الأموال الكثيرة التي كانوا يتحصلون عليها[1]، مما جعل السلطان يقوم بعدة محاولات للقضاء على النفوذ البرتغالي، ولكن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح، وفي الوقت الذي بدأ يشتد فيه خطر البرتغاليين ظهر لهم الخطر العثماني في الشرق الأدنى، فكانت نهاية السلطان الغوري على يد السلطان سليم الأول العثماني سنة (922هـ/1516م)[2].

- الأشرف طومان باي(922هـ/1516م):

تولى السلطنة سنة (922هـ/1516م)، بعد مقتل السلطان الغوري، فقد بايعه أمراء الجراكسة وتبعوه لملاقاة السلطان سليم، فالتقى به في الريدانية، وكانت الهزيمة قد لحقت بالمماليك، فقبض على طومان باي من قبل السلطان سليم العثماني وتم شنقه وعلق في باب زويلة سنة (823هـ/1517م)، وبموته انتهت دولة المماليك، وأصبحت مصر تحت حكم الدولة العثمانية[3].

---

(1) عودات، المرجع السابق، ص 128.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج5، ص 102/ الشرقاوي، المصدر السابق، 112/ عاشور، المرجع السابق، ص261.

(3) الشرقاوي، المصدر السابق، ص112/ ابن الوكيل، المصدر السابق، ص69.

الفصل الأول:

عوامل ازدهار الحياة العلمية:

المبحث الأول: إحياء الخلافة العباسية في مصر وأثرها على الحركة العلمية والثقافية.

المبحث الثاني: اهتمام سلاطين المماليك برعاية وتشجيع العلماء.

المبحث الثالث: الاهتمام بإنشاء ودعم المراكز التعليمية العامة والخاصة في مصر.

المبحث الأول: إحياء الخلافة العباسية في مصر وأثرها على الحركة العلمية والثقافية:

شهدت المنطقة الإسلامية سواء في المشرق أم المغرب الإسلاميين أو بلاد الأندلس خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي جملة من الأحداث السياسية التي نتج عنها انهيار وسقوط لإمارات ودول وحكومات، كالحرب في بلاد الأندلس التي هدفت لطرد الوجود الإسلامي منها، كذلك الغزوات المغولية بقيادة هولاكو على بلدان المشرق الإسلامي، تزامن كل ذلك مع حملة الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر سنة 647هـ/1250م، والتي تصدى لها المماليك بمساعدة أهل مصر، وتمكنوا من هزيمتها وأسر فيها قائدها [(1)].

إلى جانب هذه المتغيرات السياسية بالمنطقة، برزت قوة المماليك في مصر لتكون دولة لهم استطاعت تحقيق انتصارات عدة وانجازات كبيرة كان لها أثرها الإيجابي في المنطقة، لكنها بحاجة إلى دعم يكسب حكمهم صفة شرعية، خاصة وأن معاصريهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم مغتصبون للسلطة، حيث ثارت عليهم القبائل المصرية ورفض أبناء تلك القبائل التي تركزت في أقاليم الشرقية والبحيرة والصعيد على نحو خاص أن يقبلوا بحكم المماليك وتمثل ذلك الرفض في ثوراتهم التي تزعمها (حصن الين بن ثعلب) في عهد الظاهر بيبرس البندقداري والذي نسبت

---

(1) زيادة: محمد مصطفى، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ط1، 1961م، ص200.

إليه المقولة الشهيرة " نحن أصحاب البلاد، بل وإنا أحق بالملك من المماليك...."[1]

لقد استطاع المماليك بقيادة بيبرس القضاء على كل تلك الحركات الداخلية التي عارضت وجودهم على رأس السلطة، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل كان هناك الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام فهم كذلك رفضوا سيطرة المماليك على مقاليد الحكم في مصر واعتبروهم مغتصبين للسلطة، هذا الأمر جعل المماليك يقومون بتنصيب (موسى بن الملك المسعود) ابن السلطان الملك الكامل، وذلك بهدف إشراك الأيوبيين في الحكم وهذا ما يذلل عليه ابن أيبك الدواداري[2] من أن المماليك قالوا "...لا يستقيم لنا الأمر إلا أن نملّك أحداً من بني أيوب فأتفق أمرهم على موسى بن الملك المسعود وكان صغير السن فأقاموه...".

لكن يبدو أن ذلك لم يكن الحل الأمثل للتخلص من المعارضة الأيوبية لهم، إذ زادت حدة الصراع بينهم نتج عنه القضاء على تلك المعارضة بشكل نهائي في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري[3].

يضاف إلى كل ما تقدم ذكره أن كثيراً من السكان نظروا إليهم من زاوية أصلهم غير الحر، فعلى الرغم من انتصاراتهم عل التتار والصليبيين واستقرار بلادهم مصر إلا هذه السيطرة والاستقرار وحكم البلاد لم يكن كافياً لتوطيد حكمهم وسلطانهم فكان عليهم البحث عن سند شرعي يدعمون به حكمهم في نظر مناوئيهم فكان لإحياء الخلافة العباسية في مصر وما تمثله تلك الخلافة من بعد سياسي وديني في أن واحد الداعم لهم لتوطيد حكمهم وإقناع الآخرين بشرعيته[4]، فمن المعروف أن المنطقة الإسلامية شهدت بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول

---

(1)المقريزي، السلوك، ج1،ص376.

(2) المصدر السابق، ج8، ص13.

(3) الشيال: جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1967م، ج1، ص151.

(4) فرغلي، المرجع السابق، ص38.

سنة(656هـ/1258م) حقبة من الفراغ السياسي وكذلك الديني في نفوس السكان، فهي تعد من أطول الدول الإسلامية عمراً منذ تأسيسها سنة (132هـ/ 749م)، حتى سقوطها سنة (656هـ/ 1258م)، وهي مدة زمنية طويلة سيطرت فيها على أقطار شاسعة[1]، لذا رغب الظاهر بيبرس في إعادة إحيائها خاصة بعد المكانة التي نالتها مصر عقب موقعة عين جالوت سنة (658هـ/ 1260م)، في انتصارهم على المغول إلى جانب انتصارهم على الصليبيين وزوال إماراتهم في الشام حيث استولى عليها الظاهر بيبرس ولم يبق في أيديهم منها إلا حماه التي دخلت في طاعة المماليك سنة (746هـ/1345م)[2].

يجدر الذكر هنا أن الظاهر بيبرس لم يكن أول من فكر في إحيائها، فقد حاول عدد من السلاطين من قبله نقل الخلافة إلى بلدانهم لكي يظهروا أمام الآخرين بمظهر الحامي لهذه الخلافة، وليكسبوا إماراتهم تشريفاً كبيراً ومقاماً سياسياً رفيعاً، ولتبقى بلدانهم محط أنظار الحكام في المنطقة.

ففي سنة(269هـ/ 882م)، حاول أحمد ابن طولون استقدام الخليفة العباسي المعتمد على الله إلى القاهرة لكنه فشل في تحقيق ذلك[3]، كما حاول محمد ابن طغج الإخشيدي سنة (333هـ/944م) إحيائها ولكن محاولته لم تنجح[4]، كذلك المظفر قطز عندما علم بوجود أمير عباسي يدعى أبا العباس أحمد قد وصل إلى دمشق أمر بإرساله إلى مصر تمهيداً لإعادته إلى بغداد بعد معركة عين جالوت،

---

(1) فرغلي، المرجع السابق، ص38.

(2) العريني: السيد الباز، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1967، ص49- 50.

(3) كاشف: سيده إسماعيل، أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1965م، ص108.

(4) ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص187.

ولكن قطز قتل قبل تحقيقه ذلك[1]، والناصر يوسف صاحب دمشق وحلب فكر في الإقدام على هذه الخطوة عقب سقوط بغداد ولكن سرعة تطور الأحداث وبروز الخطر المغولي لم يمكناه من تحقيق ذلك[2]، فتلك المحاولات بآت بالفشل، بينما نجح الظاهر بيبرس في تحقيق ذلك، ويرجع الفضل للاستفادة من أوضاع البلاد الإسلامية أنداك وما كانت تعانيه من ضعف وخلو منصب الخلافة، إذ أصبح الوضع يتطلب أن ينهض زعيم إسلامي بهذه الأمة ويتولى أمر هذه الخلافة لتؤدي دورها القيادي الروحي في المنطقة الإسلامية.

بدأ بيبرس في عام 659هـ/1261م في إحيائها من خلال استدعائه للأمير أبي العباس إلى القاهرة ولكن هذا الأخير لم يحضر فصادف أن وصل في ذلك الوقت أمير عباسي أخر وهو أبو القاسم أحمد بن الناصر* إلى القاهرة فاراً من المغول فاستقبله بيبرس استقبالاً حافلاً حضره أعيان الدولة وعلمائها وقضاتها وأهل الذمة[3]، وعقد له في اليوم التالي مجلسا مماثلاً تم فيه مبايعة أبي القاسم بالخلافة بعد أن شهد العربان الذين قدموا معه أمام الجميع بصحة نسبه وأقر الفقهاء ذلك، وحكم قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم تلاه الظاهر بيبرس ونودي به أول خليفة عباسي في مصر[4].

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص272.

(2) طقوش: محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط1، 1997م، ص93.

* محمد بن أحمد أبو النصر الظاهر بن الناصر المستضيء العباسي، من خلفاء الدولة العباسية بويع بعد وفاة أبيه بالخلافة في بغداد سنة 622هـ/1225م، كانت خلافته تسعة أشهر وأيام، ثم أصبح الخليفة الأول لمصر ولقبه الظاهر بيبرس بال(المستنصر) للمزيد ينظر المقريزي، السلوك، جـ1، ص529-530.

(3) المصدر نفسه، جـ1، ص530.

(4) أبو الفداء، المصدر السابق جـ3، ص215.

وفي هذا السياق يذكر المقريزي[1]"... لما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار.. فبايعه الناس ..وكتب بيبرس إلى سائر الملوك والأمراء والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة الجديد، وأمرهم بالدعاء له على المنابر قبله وأن تنقش السكة باسمهما".

مما تقدم ذكره نرى أن بيبرس كان حريصاً على إحياء الخلافة العباسية ليجعلها سنداً للسلطنة المملوكية، وليحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية ويقضي على خطر الطامعين ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات، فوجود الخليفة العباسي في مصر يضفي على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى.

كان المقرر في بداية الأمر أن يكون مكان الخلافة بغداد لذلك جهز بيبرس الخليفة العباسي للسفر واستخدم له العساكر وأنفقت أموال كثيرة لذلك، ورافقه الظاهر بيبرس إلى دمشق وكان عازماً على إمداده بالمزيد من الجند ولكن أحدهم حذر السلطان وأشار عليه بألا يفعل ذلك بحجة أن الخليفة إن استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر[2]، فأقتنع بيبرس بما أشير عليه وترك الخليفة في جند قليل، مما جعله فيما بعد يقع في يد التتار سنة(659هـ/1261م) بالأنبار وقاموا بقتله[3].

على إثر ذلك بايع السلطان بيبرس الأمير العباس أحمد بالخلافة سنة(661هـ/1261م) وجعل محل إقامته بالقاهرة بهدف البقاء تحت سلطته، أيضا

---

(1)السلوك، ج1، ص531.

(2)المصدر نفسه،ج1، ص531-535.

(3) المصدر نفسه، جـ1،542.

للاستفادة من البعد الروحي والسياسي للخلافة ووجودها في القاهرة في توطيد حكمهم.

أما فيما يخص الخلفاء العباسيين فكانت خلافتهم اسمية فقط إذ لم يكن للخليفة أية صلاحيات في الدولة، وهذا الحال استمر منذ إحيائها في مصر سنة (659هـ/1261م) حتى سيطرة العثمانيين على مصر سنة(923هـ/1517م)، فقد ظل الخليفة العباسي وخلافته ليس فيها أمر ولا نهي حسبه أن يقال له أمير المؤمنين[1]، يذكر القلقشندى[2] بخصوص ذلك ".. أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان... ويدعى له قبل السلطان على المنابر..ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك"، كما "...أن المماليك انفردوا وحدهم بلقب سلطان بصفتهم حاميين للخلافة والمتمتعين ببيعتها ويذكر في ذلك"... الحقيقة لا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر... فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطة له على الوجه الشرعي... "[3].

يتضح مما تقدم من نصوص مدى قوة المماليك، وطبيعة حكمهم التي كانت قائمة على الغلبة والقوة لأبن خلدون قول في هذا السياق[4] " ... أن عصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلبهم..."، بالتالي كان حكم المماليك قائم على أساس القوة العسكرية للسلطان المتمثلة في

---

(1)العبادي، المرجع السابق ، ص190.

(2) المصدر السابق،ج3، ص279.

(3) ابن شاهين الظاهري: زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين، زيدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، قدمه: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، القاهرة، 1988م.

(4) ولي الدين عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ص345.

المماليك التابعين له، والقوة الروحية والدينية المتمثلة في الخلافة العباسية.

إن إحياء الخلافة العباسية لم يكن له أثر على الحياة السياسية وحسب وإنما كان له أثر على مؤسسات الدولة بشكل عام ولكن ما مدى انعكاس ذلك على الحياة الفكرية؟ وهل هذا التأثير كان مقتصراً على جانب واحد؟ لمعرفة ذلك يجذر بنا الإشارة إلى أوضاع البلاد السياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها مما كان قائماً في مصر على يد المماليك.

سياسياً أصبح سلاطين المماليك يتمتعون بمقام رفيع في المنطقة الإسلامية وأصبحت لهم المكانة البارزة بين مصافي الدول فاستطاعوا توظيف ذلك في تأسيس دولتهم من خلال تنظيم الجيش وتحصين أطراف الدولة وثغورها وغير ذلك، مما قام به الظاهر بيبرس قبل إحيائه للخلافة العباسية فتمكن من أن يحول دولته من دولة ناشئة إلى دولة ذات أركان قوية وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده[1].

أما عن الوضع الاقتصادي في مصر فقد انتعش كثيراً نظراً للاستقرار السياسي الذي شهدته البلاد آنذاك، ويعود هذا الانتعاش في استقطاب وتشجيع العديد من الهجرات الوافدة إليها والتي حملت فيها التجار والعلماء والصناع وغيرهم، فساعد ذلك في العمل على تنشيط الحركة التجارية وتعددت الأسواق وتنوعت بتنوع الأنشطة التجارية آنذاك، يذكر المقريزي[2] "... بأن الأسواق بلغت الخمسين سوقاً".

إلا أن ما يجب الإشارة إليه أن هذا الانتعاش الاقتصادي انخفض في بعض الفترات فقد شهدت مصر أوضاعاً اقتصادية سيئة في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، عانت فيها من انتشار الأوبئة والأمراض إضافة إلى فيضان

---

(1) عاشور: سعيد عبد الفتاح، مصر في عهد دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م، ص59.

(2)الخطط، ج2، ص94.

النيل، كل ذلك كان له الأثر السيئ على البلاد، إضافة إلى استيلاء أصحاب السلطة في بعض الأحيان على أراضي المزارعين وفرضهم للضرائب الباهظة[1]، نتج عن ذلك فقر للطبقات العامة في مقابل الأوضاع المالية الجيدة للطبقة الحاكمة، واللافت للانتباه أن كل ذلك لم يؤثر في الحياة العلمية التي شهدت تطوراً منقطع النظير، لاهتمام السلاطين والأمراء وأعيان الدولة بإنشاء المراكز التعليمية وتوفير كل ما تحتاجه العملية التعليمة وهذا ما سنلاحظه عند تناولنا لهذا الموضوع لاحقاً.

كما أن الحياة الاجتماعية آنذاك شهدت من خلال المزيج السكاني المتباين في الجنس والدين(من عرب وعجم ومسلمين ومسيحيين ويهود) تألفاً واضحاً ليكون مجتمعاً يسوده التماسك والترابط بين أفراده، كل هذا ساعد في انطلاق الفكر وتحريره، فشجع هذا الأمر وفود العلماء من كافة الأقطار والبلدان[2].

بالعودة للحياة الفكرية فقد زادت أهمية مصر على المستوى الديني والعلمي فسقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة(656هـ/1258م) على أيدي المغول، وما شهدته بلاد الأندلس من سقوط في أيدي نصارى الأسبان، وبلاد الشام على يد الصليبين، كما أن بلاد المغرب لم تكن بأفضل حالٍ من باقي البلدان حيت تفاقمت فيها الفتن وتجددت الخلافات بما لا يدع للعلم والعلماء مكاناً أمنا لهم.

في هذا الشأن يذكر ابن خلدون[3] في ذلك " أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس... لما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين بمراكش... ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية" ويبدو

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص437.

(2) عاشور: سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م، ص10-28.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1993م، ص342.

أن التعليم كان تحصيله عسيراً لطول مدة الدراسة في بلاد المغرب ولعدم وجود الكفاءات والمناخ التعليمي إذ يذكر ابن خلدون[1] أنه "... بقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم... فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية.... وإن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة... طال أمدها في المغرب لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك...".

كل ذلك كان له دوراً كبيراً في هجرة العلماء إلى مصر فهي المكان الوحيد الأمن وفي ذلك يقول السيوطي[2] "... حيث صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها... وصارت مصر محل سكـن العلمـاء ومحط رجال الفضـلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة حيث ما تكون يكون معها الإيمان..."

ازداد النشاط العلمي واجتذب كبار العلماء من كل البلدان ويقول ابن خلدون[3] عندما قدم إلى مصر في ذلك العصر " ... رأيت حاضرة الدنيا وبستان العلم، ومحشر الأمم، وإيوان الإسلام" ويقول كذلك[4]"... كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلا أن الله تعالى قد أبدل منها بأمصار أعظم من تلك... وانتقل العلم إلى عراق العجم بخراسان....ثم إلى القاهرة وما إليه فأهل المشرق ارسخ في صناعة تعليم العلم... " وذكر كذلك[5] "إن شأن بغداد من الخط

---

(1) المقدمة، ص343.

(2) حسن المحاضرة ، ج2، ص94.

(3) تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج5، ص648-689.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص343.

(5) المصدر نفسه، ص40.

والكتابة، بل والعلم انتقل إلى مصر ..."

بالتالي هجرة العلماء إلى مصر خلال العصر المملوكي كان عاملاً مهماً من عوامل ازدهار الحياة الفكرية بها فكل هذه الأحداث كان لها أثرها على نفوس العلماء ورد فعل شديد دعاهم للنهوض لإحياء هذا التراث العلمي وتجديده، خاصة أنهم وجدوا في مصر ترحيباً سواء من السكان أو من السلاطين، وهكذا توالت وفود العلماء إلى مصر طول عصر المماليك، وأصبح الترحيب بهم سنة متبعة، كما أن التنافس بين العلماء وشعورهم بالمسؤولية جعلهم يبدعون في ميادين العلم والتأليف، فشهدت مصر حركة علمية جليلة الشأن، وتنوعت العلوم حتى سمي ذلك العصر بعصر الموسوعات العلمية[1].

أما عن من هاجر إلى مصر آنذاك نذكر منهم : أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (ت 680هـ/1281م) درس بمسقط رأسه (تنس) ثم رحل إلى القاهرة والتقى بعدد من العلماء وأخذ عنهم مجموعة من المصنفات والعلوم والإجازات العلمية، وقد عرض عليه الأمير طيبرس بن عبد الله وظيفة التدريس بمدرسته الطيبرستية[2]، لكنه رفض ذلك وظل بمصر حتى صار له سمعة طيبة وزيادة معرفة في عدة علوم كالمنطق والجدل وغيرها من العلوم الدينية[3].

كما أن بعض العائلات ذات الشهرة العلمية كعائلة ابن تيمية التي اضطرت نتيجة للغزو المغولي للهجرة من موطنها الأصلي حران إلى دمشق سنة(667هـ/1268م)، وحملت معها ما تعتز به من كتب وذخائر علمية نفيسة ثم

---

(1) سليم: محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، 1377هـ/1957م، ص 10-11.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص383.

(3) ابن مريم: أبو عبد الله بن أحمد المليتي التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص67.

انتقلت إلى القاهرة حيث أقام ابن تيمية في مصر فألتف حوله الطلاب وألقى عليهم دروسه وبث فيهم علمه، وأصدر كثيراً من الفتاوى التي بلغت كما قال ابن شاكر الكتبي[1]" ثلاثين مجلداً جمعت ونسخت في مصر....".

أيضا محمد بن عبد الله حافي رأسه (ت 693هـ/1290م) هو محيي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عمر المالكي التلمساني ولد سنة (606هـ/1209م) بتيهرت وتعلم بتلمسان ثم رحل إلى مصر واستقر بالإسكندرية وأخذ بها عن جملة من العلماء ثم تصدر للتدريس مدة طويلة وتخرج على يديه كثير من العلماء وانتهت إليه رياسة النحو بالإسكندرية وصار شيخ هذا العلم بها[2].

أما ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م) فيعد من ابرز علماء المغرب الأوسط الذين كان لهم الأثر الملحوظ في مصر نظراً لمكانته بين العلماء المصريين[3] وعند الأمراء المماليك فقد رحل إلى مصر عدة مرات التقى خلالها بكبار العلماء وتولى الوظائف العلمية بالمدارس المملوكية تزود خلالها بالعلوم الدينية والتصوف، استقر بمصر[4] سنة (763هـ/1360م)، نزل بالإسكندرية ثم قدم إلى القاهرة فأكرمه السلطان الأشرف شعبان و ولاه وظيفة التدريس بالخانقاه الشيخونية[5] والمدرسة الصرغتمشية[6] وكان له مكانة كبيرة عند المماليك، ظل ابن مرزوق ملازماً

---

(1) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973م.

(2) ابن مريم، المصدر السابق، ص67.

(3) الأعرج: عبد العزيز عبد الرحمن، حركة العلماء بين المغرب الأوسط الزياني ومصر المملوكية ودورها في تمتين الروابط الثقافية بين البلدين، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ وعلم الآثار، تلمسان، مقال منشور على الشبكة الإلكترونية، ص3.

(4) ابن مريم، المصدر السابق، ص 185.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص420.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص420.

لنفع الطلبة حتى وفاته بالقاهرة سنة (781هـ/1379م)، كان من المرشحين لتولي قاضي قضاة المالكية بمصر[1].

يذكر ابن بطوطة[2] بعض العلماء الذين هاجروا لمصر منهم(شرف الدين الزواوي المالكي، و أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي وهو عالم في النحو، وبرهان الدين الصفاقسي).

كما ذكر السيوطي[3] العديد من العلماء منهم الأصبهاني شمس الدين محمد كان إماما بارعاً في الجدل والمنطق، صنف كتاباً في هذه العلوم سماه القواعد، وكان عارفاً بالنحو والشعر، ولد بأصبهان سنة(626هـ/1228م)، واشتغل ببغداد ثم قدم للقاهرة فولاه تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء قوص، تولى تدريس المذهب الشافعي، توفي بالقاهرة سنة(688هـ/1289م).

ابن العديم كمال الدين عمر بن جراد الحنفي (ت 660هـ/1262م) نشأ وتعلم في حلب رحل إلى دمشق وفلسطين كان مؤرخاً ومحدثاً، التقى بعدد من العلماء والمشايخ ورجال السلطة[4]، فر من حلب بعد اجتياح التتار لها سنة (658هـ/1260م) إلى مصر توفي بالقاهرة سنة (660هـ/1262م) من مؤلفاته (بغية الطلب في تاريخ حلب)، و(المختار من عيون التاريخ)[5].

وغير ذلك من العلماء الذين لا يسعنا المجال لذكرهم، ومما لاشك فيه أن وجود هؤلاء العلماء في مصر كانت نتيجة نشوء العلاقات الثقافية والتبادل العلمي

---

(1) ابن مريم، المصدر السابق، ص 186.

(2) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف" برحلة ابن بطوطة "، دار صادر، بيروت، 1963م، ص 46.

(3) حسن المحاضرة، جـ1، ص 542-543.

(4) مصطفى، المرجع السابق، جـ2، ص263.

(5) بروكلمان: كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1977م، جـ6، 75-78.

بينهم وبين علماء مصر، فالعلماء الذين قدموا إلى مصر كانوا ينسجون علاقات ثقافية وعلمية قوية مع أقرانهم من خلال المجالس العلمية التي كانوا يتبادلون فيها الآراء في العلوم المختلفة والمصنفات والمستجدات في المسائل الفقهية والعلمية المختلفة، كما حظي بعضهم كما تقدم ذكره بوظائف علمية كالتدريس والإعادة بالمراكز العلمية من خلال توظيف السلاطين والأمراء وأصحاب هذه المراكز لهم وإكرامهم، بل درس بعض هؤلاء الشافعية والحنفية والمالكية فاختلطوا بالعلماء من مختلف المذاهب الفقهية، وهذا يدل على جو التسامح والتعايش بين المذاهب السنية الفقهية المختلفة داخل مصر، وهو ما جعل مسألة التبادل الثقافي تتجاوز الأطر المذهبية والعرقية، فتوسعت المعارف العلمية لديهم وأسهموا في إثراء النهضة العلمية بمصر من خلال مؤلفاتهم واشتغالهم بالتدريس فتربى تحت أيديهم أبناء ذلك العصر وتناقلوا هذه العلوم.

الجدير بالذكر أن ما ساعد على إثراء هذه النهضة العلمية هو إنشاء المراكز العلمية المختلفة والمتنوعة، وتشجيع السلاطين للعلماء والمكانة التي تمتع بها العلماء خلال هذا العصر.

خلاصة القول أن وجود الخلافة بمصر كان داعماً قوياً للدولة في كافة مناحي الحياة، إلا أن هذه الخلافة وحدها لم تكن لتحقق مثل هذا النجاح والازدهار لو لم تكن لدى سلاطين المماليك إرادة قوية لتحقيق هذا الازدهار فنحن لا ننكر أن مصر ورثت بغداد بعد سقوطها كميراث علمي كبير وأصبحت هي مركز النشاط العلمي والديني في المنطقة الإسلامية، إلا أن هذه النهضة الفكرية التي شهدتها مصر لم تكن لتبلغ ما بلغته لو لم تكن هناك رعاية وتشجيع ورغبة من سلاطين المماليك بها وهذا سيظهر لنا جلياً خلال هذا البحث.

المبحث الثاني: اهتمام سلاطين المماليك برعاية وتشجيع العلماء:

إن استقرار الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عهد المماليك بمصر كان له الأثر المباشر والايجابي على الحياة العلمية والفكرية، فكانت مصر هي البلد الوحيد آنذاك قبلة للعلماء الوافدين من المشرق والمغرب على السواء، كما أن استقبال مصر لهم المملوء والاهتمام والتقدير والترحيب كان العامل الأهم والمشجع والدافع لهؤلاء العلماء للتفاني وتقديم كل ما يمكن تقديمه لدعم ودفع الحياة الفكرية والعلمية، لتعويض ما تم تخريبه وتدميره وتشويهه في بلاد الشام من أضرار على كافة النواحي الحياتية بما فيها الجانب العلمي والفكري، لذا أصبحت مصر هي الملجأ والرمز الروحي للمسلمين بإحيائها للخلافة العباسية كما أسلفنا ذكره، لقد عبر السيوطي[1] عن اثر الخلافة بقوله "... وصارت مصر محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء،...".

بالتالي إذا كان استقرار الأحوال السياسية يعتبر سبباً رئيسياً في تجميع صفوة العلماء في مصر، فإن ازدهار الأوضاع الاقتصادية أيضاً يعد عامل جدب أخر إذ ساعد في الإنفاق بسخاء على المراكز التعليمية وجعل الأوقاف لتوفير نفقاتها ونفقات الطلاب والعلماء، من ناحية أخرى توفر المناخ الفكري وحرية التعبير للعلماء في البحث والدرس عدت من الأمور التي أسهمت في تقدم الحركة العلمية في مصر، إضافة للثراء الذي تمتع به التجار في ذلك العصر الأمر الذي جعلهم يقبلون على الاشتغال بالعلم وتشجيعه[2].

---

(1) حسن المحاضرة، جـ2، ص94.

(2) النشار: السيد السيد، تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م، ص56.

إلا أنه بالرغم من كل هذه الإمكانيات والأسس فإن اهتمام سلاطين المماليك بالعلماء كان هو الداعم الحقيقي في هذه النهضة والتطور، إذ يذكر أحد الباحثين[1] "أن هناك أسباباً كثيرة لنهضة العلم وازدهاره في العصر المملوكي، لكن هذه الأسباب مع كثرتها وقوتها لم تكن لتنهض بعبء هذه الحركة العلمية وازدهارها لو لم تكن لدى سلاطين المماليك إرادة لتحقيق ذلك"

وللوقوف على مظاهر هذا الاهتمام من قبل السلطة الحاكمة آنذاك وهم السلاطين، يستوجب الأمر أن نبين من هم أولئك العلماء أو كما عرفوا في ذلك العصر بالمعممين أو أرباب الأقلام؟ وما هي طريقة عيشهم وشكلها ومصادر دخلهم؟ وما الدور الذي مثلوه في البلاد آنذاك؟ وما الأهمية التي منحها لهم السلاطين بشكل خاص وأهميتهم في المجتمع المصري بشكل عام؟ فمن خلال توضيح هذه النقاط أو التساؤلات سيتضح لنا مدى اهتمام السلاطين بهم وما المكانة البارزة التي احتلوها آنذاك.

أ) الحياة الخاصة للعلماء :-

المعممون: تطلق على أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والكتاب، وتطلق عليهم بعض المصادر وصف "أهل العمامة"[2] لارتدائهم العمائم ذات الحجم الكبير فوق الرأس مما يميزهم عن عامة الناس، كما أطلق عليهم لقب " أرباب الأقلام " تميزاً لهم عن أصحاب الوظائف الأخرى خاصة أرباب السيوف من المماليك[3]، وأرباب الأقلام تميزهم عن أصحاب الوظائف الديوانية فهي تمثل العلماء في مختلف المجالات، بينما لفضة أهل العمامة تشملهم جميعاً[4].

---

(1) فرغلي، المرجع السابق، ص55.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ7، ص205.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص 35.

(4) القلقشندى، المصدر السابق، جـ4، ص28.

وقد سموا بأهل العمامة أو المعممين لأن عمائمهم كانت كبيرة الحجم كما ذكرنا، بالتالي أكسبهم ذلك هيئة خاصة عرفوا بها، فعمائمهم كانت تختلف عن باقي طبقات المجتمع الأخرى من حيث الحجم الكبير والوزن الثقيل للحد الذي يلفت الانتباه[1]، إذ يصف السخاوي الشافعي[2] رداء رأس لأحد العلماء "... بأن زنة قبعته نحو عشرة أرطال بالمصري وعمامته أزيد من ثوب بعلبكي". ويصف ابن بطوطة[3] عمامة قاضي الإسكندرية أثناء زيارته لها وهو القاضي عماد الدين الكندي فيقول "... أن له عمامة خرقت المعتاد ولا يوجد مثلها في مشارق الأرض ومغاربها من حيث الفخامة وعندما جلس هذا العالم في صدر المحراب كادت عمامته أن تملأ المحراب...".

كما تميز هؤلاء المعممين بألقاب خاصة ميزتهم عن غيرهم فالقضاة والعلماء اختصوا بالأسماء المضافة للفظ (الدين)، كقولهم في محمد (شمس الدين)، وفي علي (نور الدين)، وفي يوسف (جمال الدين)، وغيرها[4]، هذا بالنسبة للعلماء المسلمين منهم، أما فيما يخص العلماء الأقباط فكانوا يلقبون بلفظ (شيخ)، فيقولون (الشيخ الشمسي) و(الشيخ الموفق)، ومنهم من تلقب بولي الدولة وغيرها من الألقاب الأخرى[5]، وتعد الألقاب من مظاهر التقدير والاحترام التي حرص عليها المعممون وكانوا يعتزون بها ويحرصون على استخدامها.

---

(1) ماير: ل.أ، الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972م، ص89.

(2) التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1896م، ص374.

(3) المصدر السابق، ص23.

(4) القلقشندي: أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/1922م، ج5، ص489-490.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص491/ الباشا: حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.

- مصادر دخلهم:-

كانت الأوقاف مصدراً مهماً لثراء المعممين حيث كان بعض المعممين من أصحاب الوظائف في المنشآت التعليمية ويتوارثون الوظائف ابناً عن أب، إضافة لمخصصات أخرى نقدية وعينية أجرتها هذه الأوقاف عليهم، وقد تباينت المرتبات النقدية بتباين الوظائف، أي أن صاحب الوظيفة العليا كان يحصل على راتب أعلى بكثير من صاحب الوظيفة الدنيا، فعلى سبيل المثال خصص السلطان حسن بن محمد بن قلاوون راتباً لمدرس الحديث في مدرسته ثلاثمائة درهم، ولقارئ الحديث أربعين درهماً فقط[1]، هنا نلاحظ الفرق واضحاً بين كبار الموظفين وصغارهم في هذه الرواتب.

أما عن المخصصات العينية فمنها ما كان شهرياً مثل الغلة أو يومياً مثل اللحم والخبز والعليق والسكر والشمع، وأحياناً سنوية مثل كسوة الصيف والشتاء والأضحية كل سنة[2].

بالتالي كانت الأوقاف مصدراً من مصادر الثراء لهؤلاء المعممين أصحاب الوظائف العليا، أما عن الرواتب التي كانت تصرف للقضاة والعلماء فيرى أحد الباحثين[3] أن ثراء العلماء والقضاة كان مستمداً من المرتبات العينية والنقدية التي كانوا يتقاضونها من الديوان السلطاني.

من خلال ما تقدم نلاحظ أن المرتبات اختلفت باختلاف أصحاب المنشآت والمراكز التي كان يعمل بها هؤلاء المعممين، وتلك المرتبات كانت كبيرة مقارنة

---

(1) باشا، المرجع السابق، ج4، ص84/ البطاوي: حسن أحمد، أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2007م، ص144.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص421/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص266.

(3) قاسم: عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1967م، ص18.

بمستويات ذلك العصر فأكثرها كان خمسون ديناراً، إلا أنها كانت مورداً أساسياً يعتمدون عليه في حياتهم ولكن يجب التنويه أن هذا المبلغ تناقص مع بداية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وذلك لتدهور الأوضاع الاقتصادية، حيث ارتفعت الأسعار وأثر ذلك على شتى جوانب الحياة، والجدير بالذكر أن المرتبات مهما بلغت لا يمكن أن تصل بصاحبها إلى تلك الدرجة من الثراء خاصة أن المقريزي(1) يصف لنا وضع بعض هؤلاء المعممين "... بأنهم بين ميت أو مشتهي للموت" وهؤلاء هم من أرباب الوظائف الصغرى وطلاب العلم وما يلحق بهم الشهود*، بالتالي كانت الأوقاف هي مصدر الثراء خاصة الأوقاف السلطانية فمثلاً كان راتب الإمام في أوقاف جمال الدين الأستادار**خمسين درهماً، بينما راتب

---

(1) إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق : كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2007م، ص149.

* الشهود: جمع شاهد والشاهد هو الذي يشهد بمتعلقات الديوان نفياً أو إثباتاً، أنظر القلقشندى، المصدر السابق، جـ5، ص466/ كما يذكر السبكي أن الشهود في العهد الماضي كانوا قوماً يتعرفون أحوال الناس ويشهدون في القضايا وقد نصبوا أنفسهم لذلك فصارت تلك حرفتهم وكانت لهم حوانيت في الأسواق خاصة بهذه الوظيفة، أنظر السبكي : تاج الدين عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق : محمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993م، ص63.

** الأستادار: هو لقب يطلق على من يتولى إدارة أموال السلطان أو الأمير، ويشرف على كل من في القصر من خدم وغلمان، وهو الذي يسلمهم رواتبهم وكل ما يحتاجون غليه لعملهم أو لأنفسهم ، ويذكر القلقشندى أن هذه الكلمة أصلها فارسي وهي مؤلفة من لفضين فارسيين هم (إستد) ومعناه الأخذ و (دار) ومعناه الممسك فأدغمت الذال في الأولى وهي المعجمة وفي الثانية وهي المهملة فصار (إستذار) ومعناه المتولي للأخذ وسمي بذلك لأنه يتولى أخذ أو قبض المال أنظر القلقشندى، المصدر السابق، ج5، 457/ بينما يذكر حسن الباشا في كتابه الألقاب الإسلامية أن لفظ (دار) في (إستادار) أصله عربي بمعنى القصر أو المحلة وأن اللقب كان يرتبط بالأماكن وهو في أصله (أستاذ الدار) وليس (إستذدار) للمزيد أنظر الباشا: المرجع السابق، ص284.

الإمام في وقف السلطان برسباي فكان ألف درهماً شهرياً، لذلك رغب كثير من المعممين قي تولي الوظائف في أوقاف السلاطين وفضلوها على أوقاف الأمراء[1].

ويمكن القول أن أوضاع المعممين الاقتصادية كانت جيدة جداً فهم تمتعوا بسعة وبسطة في العيش من المؤكد أنها انعكست على إنجازهم في الحياة العلمية في ذلك الوقت.

ب) علاقة العلماء بالدولة والمجتمع وأثاره على شؤون البلاد:-

لقد حرص سلاطين المماليك على أن تكون علاقتهم بطبقة العلماء قوية ووثيقة، فهذه الرابطة تعطيهم دعماً مادياً ومعنوياً في حكمهم للبلاد والمجتمع المصري، الذي كان فيه العلماء يمثلون القوة الروحانية، بالتالي كانوا حريصين على أن ترتبط هذه الطبقة مع طبقة سلاطين المماليك والأمراء الذين يمثلون القوة العسكرية، فهذا التلاحم كان ضرورياً في سبيل خدمة المجتمع، فحرص المماليك على كسب ثقة العلماء ليكسبوا من خلالها ثقة الشعب إلى جانبهم ضد أي قوة داخلية أو خارجية، فاعتراف العلماء من أهل البلاد بشرعية حكمهم من الأمور التي أعطاها المماليك أولوية كبرى، إذ وجدوا فيهم دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون بها في إرضاء الشعب، خاصة أن المماليك لم يكن لهم نظام ثابت في وراثة الحكم إذ يذكر ابن خلدون[2] في هذا الشأن "... أن عصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد"، ذلك أن عصر المماليك كانت إحدى سماته هو عدم إيمانهم بمبدأ الوراثـة كما أشرنا، واعتقادهم أنهم جميعاً سواسـية، لذا شهد عصرهم كثيراً من

---

(1) البطاوي، المرجع السابق، ص 145.

(2) رحلته شرقاً وغرباً، ص333.

الثورات التي قام بها الطامعون في الحكم، فكان الأمير الذي يطمع في الحكم ينشد سنداً شرعياً يساعده في التغلب على خصومه ويكفل له مساندة العامة وكف أيديهم عنه وهذا لا يتم إلا بكسب ولاء العلماء، وأن يكونوا إلى جانب السلطان لما لهم من تأثير على الرأي العام[1].

ولعل من أمثلة ذلك هو ما حدث من قبل الشيخ العز بن عبد السلام ومواقفه القوية، فعندما حضر بيعة الظاهر بيبرس البندقداري لم يبايعه حتى جاء من يشهد بعتقه من قبل السلطان الصالح نجم الدين أيوب[2]، ولم يبايع أي من الخليفتين المستنصر والحاكم العباسيين أحد حتى تقدمهم الشيخ العز بن عبد السلام، وهذا دليل على مكانته في ذلك الوقت، التي وصلت للحد الذي جعل بيبرس يوم مشاهدته لجنازة العز بن عبد السلام ومرورها من تحت القلعة يقول "... اليوم استقر أمري في الملك لأن هذا الرجل لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزعوا الملك مني"[3].

مما سبق نرى أنه لم يعتل سلطان العرش دون إشراف كبار العلماء على اختلاف وظائفهم، ويجب الإشارة إلى أن قيامهم بهذا الأمر كان أمراً ضرورياً في بداية حكم المماليك للبلاد، ولكن مع تمكن المماليك من السيطرة والحكم في البلاد أصبح هذا الأمر من المراسيم الشكلية، وهذه المجالس كانت تعقد عند تولية سلطان جديد سواء في حالة وفاة السلطان السابق أو تنصيب السلطان لأبنه في حياته أو خلع السلطان السابق وقيام أخر مكانه[4]، من أمثلة ذلك ما قام به السلطان قايتباي في سنة(894هـ/1489م) عندما أرسل إلى القضاة الأربعة وعرفهم بضعف

---

(1) البطاوي، المرجع السابق، ص99.

(2) الداوودي: الحافظ شمس الدين محمد بن علي ، طبقات المفسرين، دار الكتب العربية، بيروت، (د . ت)، ص319.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص323.

(4) البطاوي، المرجع السابق، ص101.

الأحوال المالية للبلاد وعجز الدولة عن دفع النفقات وقال للقضاة "... اشهدوا علي أني قد خلعت نفسي من السلطة" إلا أن القضاة تعلقوا به ومنعوه من التنازل عن السلطنة.."[1]، مثال أخر عندما علم أمراء المماليك بالقاهرة بخبر قتل السلطان الغوري سنة (922هـ/1516م) في معركة مرج دابق اختاروا الأمير طومان باي سلطاناً للبلاد فتردد الأخير في قبول السلطنة، فركب الأمراء وتوجهوا إلى الشيخ سعود الذي أقنعه بقبول السلطنة، وأحضر الشيخ مصحفاً ووضعه بين أيدي الأمراء، وحلفهم عليه بأن يطيعوا السلطان ولا يغدروا به، وأن ينتهوا عن ظلم المسلمين فحلف الأمراء على ذلك[2].

هذا يدل على سلطان العلماء في ذلك العصر، إضافة إلى أن هذا فيه إجلال من قبل سلاطين المماليك للعلماء واحترامهم لهم ومن مظاهر هذا الاحترام ما فعله السلطان بيبرس مع الشيخ العز بن عبد السلام كما أسلفنا ذكره، وهذا كان موقفه من بقية العلماء والفقهاء كافة، إذ يذكر أنه كان يقف عندما يرى قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وعندما رفع أحد الأشخاص خصومة إلى قاضي القضاة ضد السلطان بيبرس على بئر تخاصم مع السلطان عليها، فطلب القاضي حضور السلطان إلى مجلس الحكم فحضر وتساوى مع خصمه فأمرهما قاضي القضاة بالجلوس، فجلسا حتى حكم القاضي في القضية[3].

كما كان العلماء يتمتعون بعزة وترفع في تعاملهم مع السلاطين فالشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد بسبب غضبه من نائب السلطنة قرر الاستقالة من وظيفة

---

(1) ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص554.

(2)المصدر نفسه،ج3، ص1050.

(3) ابن عبد الظاهر: محي الدين أبو الفضل المصري، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، مطابع القوات المسلحة، الرياض، ط1، 1976م، ص26.

قاضي قضاة الشافعية عام (697هـ/ 1298م) فطلبه السلطان لاجين فعندما دخل على السلطان قام له فكان الشيخ يتهادى في مشيته والأمراء يطلبون منه الإسراع قائلين: " أسرع السلطان واقف، فيقول لهم أنا أمشي، وعندما وصل قبل السلطان يده.."[1]، والسلطان لاجين كان يقدر العلماء كثيراً حتى أنه كان عندما يدخل عليه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس لا يدعه يقبل الأرض حسب العادة ويقول له " أهل العلم منزهون عن ذلك..." ويجلسه بجواره على المقعد[2].

والسلطان برقوق كان على علاقة ود واحترام مع كثير من العلماء حتى أنه أوصى قبل موته بأن يدفن تحت أرجل مجموعة من كبار المشايخ[3]، وكان بعض السلاطين ينزلون من القلعة مرة أو مرتين في الأسبوع ليزوروا أحد العلماء أو يعوده في مرضه إن مات ذلك العالم حضر السلطان جنازته[4].

كما جاءت بعض الرسائل السلطانية تحمل الكلمات الدالة على هذا الاحترام الذي كان يتمتع به العلماء ومنها " أعز الله تعالى أحكام المجلس العالي القاضوي الأميري العالمي..."[5].

كل هذه المظاهر جعلت العلماء يعيشون في سعة وبسطة ولهم نفوذهم في الدولة مما جعل لهم مكانة لدى الناس والمجتمع لا تقل عن مكانتهم عند السلاطين فهذا الاحترام جعلهم يقفون في وجه السلاطين، ويعتدون بأنفسهم ومكانتهم ويصمدون

---

(1)المقريزي، السلوك، ج1، ص688/ الأدفوي: أبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، ص583.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص88.

(3) البطاوي، المرجع السابق، ص109.

(4) المقريزي، السلوك، ج3، ص444.

(5) القلقشندى، المصدر السابق، ج3، 183.

في وجه السلاطين الأمراء، من ذلك عند زيارة السلطان بيبرس لمدينة الإسكندرية سنة (661هـ/1263م) للشيخ محمد بن منصور القبادي إلا أن الشيخ لم يسمح له بالطلوع إليه ولم يكن يكلمه إلا وهو في البستان والشيخ في عليته[1].

يقول الشيخ زكريا الأنصاري "...كنت أحط على السلطان قايتباي في خطبة الجمعة حتى أظن أنه ما عاد يكلمني قط، وعندما أخرج من الصلاة يتلقاني ويقبل يدي ويقول: جزاك الله خيراً "[2].

كما كان السلاطين يستعينون بالعلماء في شؤون البلاد الخارجية والداخلية فعندما تعرضت البلاد لخطر تيمورلنك لعب العلماء دوراً حيوياً إذ تضافرت جهود السلطان برقوق سنة (789هـ/1387م) مع العلماء لصد هذا الخطر، فقد طاف العلماء شوارع القاهرة لحث الناس على الجهاد وكان المنادي ينادي على الناس قائلاً " الجهاد في سبيل الله تعالى ضد عدوكم تيمورلنك فإنه أخذ البلاد..."[3].

كذلك أسهم العلماء في النواحي الاقتصادية فقد حرص بعض السلاطين على عرض سياسة الدولة النقدية فيما يتعلق بالذهب والفضة عليهم، ولعل الأمر يرجع لحرص هؤلاء السلاطين على تفادي رد فعل العامة إذا تضرروا من تغير العملة الجاري التعامل بها فيكون رأي العلماء والفقهاء في هذه الحالة سنداً شرعياً لتبرير سياستهم، ومن ذلك أنه في عام (818هـ/1415م) استدعى السلطان المؤيد شيخ القضاة والعلماء وتشاور معهم في إبطال التعامل بالذهب الناصري الذي وضعه الناصر فرج بن برقوق وضرب عملة جديدة فاعترض البعض على هذا التغير وقال"..إن هذا فيه إتلاف كثير من المال" ولكن السلطان صمم على تنفيذ ما أراد

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص183.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج4، ص499.

(3) المقريزي، السلوك، ج2، ص1036.

فخسر في ذلك أموالاً كثيرة فعاد وأمر القضاة والعلماء أن يدبروا رأيهم في تسعير العملة المضروبة حتى ينقذ ما يمكن إنقاده من الخسارة التي لحقته[1].

هذا يدل على أن السياسة النقدية كانت رهناً بمشيئة السلطان وحده إلا أن حرصه عل رأي العلماء كان لا يتعدى المشورة لضمان تأييدهم له، ولكن مهما يكن الأمر فهو يعد اعترافاً بمكانة العلماء ودورهم في الدولة، فكانت لهم مشاركات سياسية منها مشاركتهم في السفارات المرسلة للخارج على الرغم من أن بعض هذه السفارات كانت ذات طابع سياسي أو حربي اقتصادي، ولكن لحرص سلاطين المماليك على إظهار التزامهم بالدين خاصة أمام الدول الأخرى فكانت هذه السفارات غالباً ما تضم رجلاً من أهل العلم والدين، مثال ذلك أن السلطان الناصر محمد عين سنة (700هـ/1299م) جماعة من الأمراء وكان معهم الخطيب شمس الدين بن الجوزي خطيب جامع ابن طولون، لكنه اعتذر فعينوا خطيب الجامع الحاكم وناظر دار العدل القاضي عماد الدين السكري[2].

كذلك السفارة التي وجهت للسلطان سليم الأول العثماني سنة (922هـ/1516م) أرسلها السلطان الغوري وكان فيها مع أكابر الدولة رجلان من أهل العلم والدين ليكلما السلطان في حقن دماء المسلمين[3].

هذه المكانة جعلت هؤلاء العلماء مقربين أكثر للسلاطين ولهم دور في شؤون الدولة وأصبحوا يتمتعون بمكانه مميزة لدى السلاطين منهم الشيخ بدر العيني المتوفي سنة (855هـ/1415م) كانت تربطه صداقة حميمة بالسلطان المؤيد شيخ،

---

(1) ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص508/ العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص54.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : دونلدس. ريتشارد، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1419هـ/1998م، ج9، ص361.

(3) ابن زنبل : أحمد الرمال، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق : عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998م، ص20.

ثم الأشرف برسباي ويقال إن العيني عظم أمره عند برسباي وصار ينادمه ويقرأ له التاريخ ويعلمه الدين وذلك لمعرفة العيني باللغة التركية حتى قال عنه برسباي" ... لولا القاضي العيني ما حسن إسلامنا ولا عرفنا كيف نسير في المملكة "[1].

بالتالي نتيجة التقارب والعلاقة الجيدة بين السلاطين والعلماء ازدهرت الحركة الفكرية والنهضة العلمية، كذلك الإنفاق عليها بسخاء من خلال إقامة المراكز التعليمية المتعددة والمتنوعة* أو من خلال مشاركة السلاطين أنفسهم في الحياة العلمية حيث كان لبعضهم باع واسع في المشاركة الفعلية في الحركة العلمية فيصف ابن تغري[2] السلطان بيبرس البندقداري بأنه " كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ يعد أعظم التجارب "، كما كان السلطان الغوري حريصاً على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين كل أسبوع[3].

كما كان السلطان المؤيد شيخ حريصاً على عقد مجالس علمية بقلعة الجبل ثلاث مرات في الأسبوع يحضرها كبار العلماء، وكان يجتمع عنده يوم الأحد والأربعاء جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء يقعدون عنده وهو فيما بينهم كأحدهم، إضافة إلى أنه في غالب ليالي الجمع كان يجتمع عنده جماعة من العلماء والفقهاء وطائفة من القراء والوعاظ، القراء يتلون كتاب الله والعلماء يتباحثون العلوم والوعاظ ينشدون القصائد والموشحات[4].

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص289.

* سنتناول المراكز التعليمية بالتفصيل في الفصل القادم.

(2) المصدر نفسه، ج7، ص86.

(3) النجوم الزاهرة، ج14، 104

(4) عاشور، المجتمع المصري، 158.

تلك المجالس كانت مكاناً لمناقشة مختلف المسائل العلمية والدينية من قبل كبار العلماء والفقهاء وكثيراً ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة[1] .

إن ظاهرة عقد المجالس العلمية بين الأمراء ومحاولة كل منهم أن يحيط نفسه بنخبة من العلماء، كان القصد من ورائها استقطاب العلماء والمفكرين حولهم حتى يظهروا بمظهر القادة المثقفين الذين يرعون العلم ويشجعون العلماء، ليجمعوا حولهم القلوب وتثبت مكانتهم في النفوس، إلا أنه مهما كان الأمر فإن الاهتمام بعقد هذه المجالس والمشاركة في العلوم المختلفة أدى بدوره إلى نهضة علمية وفكرية في مصر ، وهذا راجع لتقريب السلاطين والأمراء للعلماء في مجالسهم ومخالطتهم في الحلقات العلمية، والإغداق عليهم، بالتالي تطورت حركة التأليف التي كان للعلماء دور كبير في تطورها من خلال حرص كثير منهم على تخصيص بعض مؤلفاتهم للإشادة بهؤلاء السلاطين وتسجيل أعمالهم وتواريخهم تخليداً لهم أو تقرباً منهم، بالتالي ارتبط عدد من المؤلفات بالسلاطين فقد اتجه بعض العلماء للتأليف للإجابة عما يطلبه السلطان من إجابات عن المسائل الدينية، أو ما يعترضهم من شؤون الحكم والإدارة، بينما اتخذ بعضهم من المناسبات الخاصة بالسلاطين موضوعاً للتأليف فيه، وغيرها من العوامل التي أسهمت في وضع مصنفات مختلفة ذات أهمية كبرى في تناولها لعهد المماليك لأنها تمثل رؤية لشهود عيان لما يكتبون عنه.

إن ما تقدم ذكره يعطينا نموذجا طيباً لما يمكن للسياسة من تأثير كبير على حركة التأليف التي سنتعرض لها بالتفصيل في هذا البحث.

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص159.

ج) أثر المعاملة الجيدة التي حظي بها العلماء :

إن المعاملة الجيدة التي حظي بها العلماء لم تقف أمام قولهم لكلمة الحق، فبحكم دورهم في التوعية والإرشاد عن طريق الخطابة والتدريس والكتابة وشغلهم للوظائف المتنوعة، بالتالي صاروا زعماء موجهين لمختلف طوائف الشعب نظراً لما للعلم والدين من سلطان على الناس، ونتيجة لإحساسهم بالمسؤولية تجاه حماية مصالح أهل البلاد فكان العالم يتقرب لله بقوله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم، وبذلك نال العلماء مكانة سامية ورفيعة تجاه الحاكم والمحكوم على السواء[1].

لقد تولى العلماء المعارضة ضد بعض السلاطين في أمور عدة ، فعندما تنحرف سياسة السلاطين أو الأمراء عن جادة الصواب نجد بعض العلماء تحرك لمواجهة هذا الانحراف، وعلى رأس هؤلاء العلماء الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية، فهو على رأس العلماء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المجابهين للسلاطين، فعندما ولي بيبرس الجاشنكير السلطنة عام (708هـ/1309م) أرسل رسولاً إلى الإسكندرية وأحضر الشيخ ابن تيمية من السجن ليشهد مع باقي علماء وفقهاء عصره على عقد السلطنة للأمير بيبرس، عندما حضر قال له بيبرس:" الملك الناصر محمد خلع نفسه من السلطنة، فرد ابن تيمية: ومن يشهد بذلك؟ قالوا: هذا كتابه، فأخذه وقرأه، ثم قال: من يشهد أن هذا خطه؟ فأحضره علاء الدين بن عبد الظاهر وقال: اعلم أن هذه علامة الناصر، فقال الشيخ: أريد من يشهد أن هذا خطه، فقالوا: نطلب من يشهد بعزله على لسانه (أي شفاهه)، فجاءوا بالأميرين بلبان والبرواني فشهدا بذلك، فقال لهما الشيخ ابن تيمية: هل معكما عتاقة من الملك

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص38.

المنصور قلاوون؟ (أي ورقة تشهد بأن قلاوون أعتقهما وأصبحا حريّن) فقالا: لا، قال الشيخ: لا تجوز شهادة العبد، فأغتاظ بيبرس وأعاده إلى السجن "[1].

كما يذكر ابن بطوطة[2] أنه سمع بمصر أن السلطان الناصر محمد قال لجلسائه " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية".

نتيجةً لهذه المواقف وغيرها كان للعلماء مكانة مميزة لدى المجتمع المصري لا تقل عن مكانتهم عند سلاطين المماليك، فالناس أكرموا العلماء وأضفوا عليهم مختلف هالات التقدير والاحترام من ألقاب وتفاخيم مثل (فقيه زمانه) و(عالم عصره) و(انتهت إليه رياسة العلم) وغيرها من الألقاب الأخرى[3].

كما اعتاد الناس في الأماكن العامة أن يقدموا العلماء على أنفسهم، فكانوا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدواة[4].

كل ذلك أعطى هؤلاء العلماء مكانه رفيعة عند السلاطين كانت داعماً وعاملاً أساسياً في تقديرهم واحترامهم.

مما يجذر الإشارة إليه أن هذه المعاملة الجيدة لم تستمر على ما هي عليه خاصة منذ النصف الثاني للقرن الثامن الهجري، إذ حدثت بعض التجاوزات التي يظهر فيها جلياً تعرض العلماء للإهانة من قبل الأمراء والسلاطين في بعض الأحيان، من ذلك أنه عندما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة في المرة الثانية عام (709هـ/ 1310م) أخذ في إهانة القضاة والفقهاء الذين خدموا عند السلطان بيبرس الجاشنكير منهم القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر كاتب السر،

---

(1) البطاوي، المرجع السابق، ص111.

(2) المصدر السابق، ص45.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص47.

(4) السخاوي الشافعي، التبر المسبوك ، ص367.

وقام بسبه ونعته (بأسود الوجه)، كذلك عاتب السلطان كلا من الشيخ صدر الدين ابن الوكيل والشيخ شمس الدين ابن عدلان لميلهما إلى السلطان بيبرس الجاشنكير أيام سلطنته[1]، كما أخذ المماليك يتعرضون للعلماء بالنقد ويتهكمون عليهم بمجالسهم بسبب حقدهم عليهم لقربهم من السلاطين، كما منعوهم من ركوب الخيل واشترطوا على السلاطين المناداة في شوارع القاهرة أن متعمماً لا يركب فرساً كما حدث سنة (781هـ/ 1379م)[2]، وكثيراً ما قامت جموع المماليك في شوارع القاهرة بالاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها بعد ضربهم كما حدث سنة (858هـ/1454م)[3]، بالتالي نلاحظ أن هذه اهانة بأسلوب أخر إذ أنه في ذلك العصر كان ركوب الخيل من مظاهر العظمة والتفاخر ولا يسمح بركوبها إلا للحكام والأعيان، لذلك منع منها العلماء من قبل بعض أمراء المماليك.

الجدير بالذكر أن ظاهرة اهانة العلماء تزايدت في عهد السلطان سيف الدين جقمق الذي تجرأ على لطم شيخ على وجهه كاد أن يسقطه على الأرض، ثم أمر بضربه عارياً وسجنه وذلك لأن هذا الشيخ كان نديماً للسلطان برسباي[4]، كما أمر هذا السلطان سنة (851هـ/ 1448م) بحبس قاضي القضاة الشافعي ولي الدين السفطي، الذي بلغ مكانه عالية في الدولة حيث كان على درجة كبيرة من الثراء، ثم حبسه مع أرباب الجرائم في المقشرة*، ثم أفرج عنه، ولكنه ظل يلاحقه وصادر جزءاً

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص7-8.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص534.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص39.

(4) البطاوي، المرجع السابق، ص117.

*المقشرة: سجن يوضع فيه أصحاب الجرائم يقع بجوار باب الفتوح، كان يقشر فيه القمح وهو من أشنع السجون وأضيقها، للمزيد انظر المقريزي، الخطط، ج2، ص188.

من أمواله وظل حال السفطي مع السلطان في تراجع للحد الذي كان فيه عندما يشعر بالخطر يختفي حتى يهدأ السلطان ثم يعود للظهور[1].

وغير ذلك من الحوادث التي لا يسعنا المجال لذكرها ولعل من أسباب معاملة هؤلاء العلماء من قبل بعض السلاطين والأمراء معاملة غير جيدة هو المكانة التي حظي بها العلماء خاصة من قبل الناس والتي دفعتهم لمعارضة السلاطين في كثير من الأحيان كما أشرنا سابقاً، وقد يكون قيام بعض السلاطين والأمراء بالتعرض للعلماء واهانتهم نتيجة محاولة هؤلاء السلاطين الضغط على المتصرفين في أموال الأوقاف لاغتصابها و الاستيلاء عليها فكما أشرنا سابقاً أن العلماء كانوا حماة هذه الأموال الخاصة بالأوقاف، ذلك أن مصر شهدت خلال عصر سلاطين المماليك بعض الفترات التي كثر فيه الاعتداء على الأوقاف وأموال التركات أو أموال الأيتام، من ذلك في سنة (780هـ/1378م) جمع الأمير برقوق القضاة وشيوخ العلم وتحدث معهم في حل الأراضي الموقوفة، لكنه وجد معارضة من بعض العلماء وتأييد من البعض الأخر في أخذ أجرة الأوقاف لفترات معينة، وانتهى المجلس بقول الشيخ سراج الدين عمر البلقيني ".. يا أمراء انتم تأمرون القضاة، فإن لم يفعلوا ما تأمرون به عزلتموهم"، فانفضوا وأخرج الأمراء عدة أوقاف وجعلوها أقطاعات[2]، السبب الأخر أن الفترة الأخيرة من عصر المماليك كانت أكثر الفترات التي تعرض فيها العلماء للإهانة، ولعل مرد ذلك هو التوسع في شراء المماليك الأجلاب*، وانتشارهم

---

(1) البطاوي، المرجع السابق، ص120.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص199.

*الأجلاب أو الجلبان: ظهرت هذه الطائفة من المماليك في عصر المماليك الجراكسة إذ أن السلاطين والأمراء استعاضوا عن المماليك الصغار الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك الكبار الذين تخطوا سن البلوغ، للمزيد أنظر المقريزي، السلوك، ج3، ص53.

في البلاد إذ أن هؤلاء المماليك لم يشبوا في إطار إسلامي كأسلافهم ولم ينالوا حظاً كافياً من التربية الإسلامية، بل جلبوا إلى مصر كباراً، وفي ذلك يقول ابن تغري بردي[1] "... لقد انحل أمر حكام الديار المصرية أرباب الشرع الشريف لعظم شوكة المماليك الأجلاب وصار كل من له حق عند كائن من كان من الناس قصد مملوكاً من المماليك الأجلاب لمساعدته على تخليص حقه، وترك الناس القضاة فقوي أمر الأجلاب وضعفت شوكة القضاة ".

إلا أن هذه الحالات ظلت حالات منفردة مقارنة بالمكانة الكبرى التي حظي بها علماء ذلك العصر عند سلاطين المماليك طيلة فترة حكمهم لمصر.

مما تقدم ذكره نستطيع القول أن المكانة البارزة التي تمتع بها العلماء سواءً في حياتهم الخاصة أم الوظائف التي شغلوها، أو من خلال دورهم الكبير في كافة شؤون الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كان لهذه المكانة الأثر الكبير لانعكاسها على الحياة الفكرية والثقافية في مصر، فمشاركة السلاطين لهم في مجالس العلم وتهيئة المناخ المناسب، وإغداقهم عليهم وسعة العيش والبسطة، إضافةً لاحترامهم وتبجيلهم، ونفوذهم في الدولة من خلال توليهم للوظائف الدينية والسياسية العليا، ونظرة الناس لهم والمكانة التي احتلوها في قلوب العامة، كل هذه العوامل تضافرت مع بعضها لإحداث نهضة علمية كبيرة، فمصر استقبلت هؤلاء العلماء وشجعتهم ووفرت لهم ما يريدون، هذا الأمر جعل هؤلاء العلماء يشعرون بأن الواجب يحتم عليهم النهوض بالحياة العلمية التي أتى عليها المغول في الشرق، والصليبيون في الشام، وبتشجيع السلاطين لهم وإنشاءهم للمراكز العلمية ووقف الأوقاف عليها، أسهم كل ذلك في إثراء الحياة الفكرية والعلمية وقيام نهضة علمية منقطعة النظير.

---

(1) النجوم الزاهرة، ج12، ص260.

المبحث الثالث: الاهتمام بإنشاء ودعم المراكز التعليمية العامة والخاصة في مصر:

شهدت مصر في العصر المملوكي حركة فكرية زاخرة، ونهضة علمية شملت البلاد من أدناها إلى أقصاها، إذ يصفها ابن خلدون[1] بقوله عن العصر المملوكي "...أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ ألاف السنين، فاستحكمت بها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم، .... وأن أمراء الترك ... استكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط وأوقفوا عليها الأوقاف ... ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها..."

هذا النص يقدم لنا وصفاً عن عهد المماليك وما شهده من نهضة علمية كان عمادها في إنشاء المراكز العلمية المتنوعة فقد أقبل سلاطين المماليك وأمرائهم على إنشاء المدارس إقبالاً منقطع النظير، إذ بدأ عصر المماليك وفي مصر عدد لا بأس به من المراكز التعليمية وقد تنوعت هذه المراكز من مدارس ومساجد للمذاهب الأربعة وما شيد من خوانق وأربطة وزوايا للصوفية، إضافةً أنه كان بجوار هذه المراكز التعليمية مكاتب صغيرة متواضعة ملحقة تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة، والعلوم الأولية من تحفيظ القران الكريم.

هذه المراكز العلمية حملت عبء النشاط الفكري وتعددت ونمت نمواً كبيراً فأزداد عددها حتى وصفها ابن بطوطة[2] " بأن المدارس بمصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"

---

(1) المقدمة، ص345.

(2) المصدر السابق، ص37.

كان بعض هذه المدارس في عهد المماليك مثل الجامعات من حيث تزويدها بكل ما تحتاجه وكانت أبوابها مفتوحة ومشايخها حضوراً يفيء إليهم الجاهل والعالم على السواء، والكبير والصغير، ويلازمهم طالب العلم في غدوهم ورواحهم، ولا يفرض على هؤلاء الطلاب أي نفقة بل كان المشايخ والطلاب معاً يجدون من صنوف البر ألوانا شتى تعينهم على طلب العلم وحبه والاستمرار فيه، مما أوقف عليهم أو ما منح لهم وأهدى إليهم[1].

هناك الكثير من المؤلفات التاريخية التي قدمت لنا معلومات عن هذه المراكز التعليمية وأعطتنا صورة واضحة عن النشاط الفكري الضخم في تلك الفترة ومن العلماء الدين كتبوا عن ذلك المقريزي، وأبن شاهين وابن عبد الظاهر والسيوطي وابن دقماق والنويري وغيرهم الكثير بمؤلفاتهم الغنية بتقديم وصف لهذه المراكز والمنشآت التعليمية.

فالنويري يذكر [2] "...أن المماليك اهتموا بالمدارس وعينوا لتلك المدارس المدرسين للتعليم بها و المعيدين للدرس والتحصيل والموظفين لإدارتها، وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة لتضمن للطلاب والمدرسين قدراً من الحياة الهادئة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتعال بالعلم في أمان وطمأنينة"

كما أن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس العدد الكبير فقد"... ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها..." [3].

---

(1) سليم: محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1962م، م3، ج1، ص28./ موير: وليم، دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابد- سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص60-61.

(2) المصدر السابق، ج30، ص341.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص364.

مما يجب ذكره هو أن المماليك كانوا ذوي لسان غير عربي ولم تكن لهم ثقافة معينة لأنهم أخلاط من أجناس شتى، ولأنهم من بلاد متفرقة ولكنهم تعلموا اللغة العربية لغة القرآن الكريم وتفهموا آدابها، فلم يكن همهم تثقيف المصريين ثقافة معينة، وإنما كان الهدف هو محو أثار التشيع الموروث عن الفاطميين من عقولهم، فمصر في ذلك الوقت كانت لا يزال بها أثر للتشيع في بداية حكم المماليك على الرغم من الجهود التي بدلها صلاح الدين الأيوبي لمحاربة التشيع وتدعيم أركان المذهب السني حين سقطت الدولة الفاطمية، وقد سار سلاطين المماليك على نفس السياسة حتى خفت أثار التشيع بالبلاد، ومن الأدلة التي توضح هذه الجهود المبذولة والسياسة المتبعة هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس بتحريمه لأي مذهب عدا المذاهب السنية الأربعة سنة (665هـ/ 1267م) واستمر من جاء بعده من المماليك على نفس السياسة في مقاومة المذهب الشيعي ومحاربته [1].

لقد تبارى السلاطين والأمراء في إقامة المراكز التعليمية إذ ارتبطت العديد من المدارس بعدد من السلاطين وهذه المدارس ازدهر بها العصر المملوكي، منها المدرسة المعزية التي بناها السلطان عز الدين أيبك[2]، كذلك المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس البندقداري سنة (662هـ/1263م)[3]، وقد تابع الملك السعيد بركة سياسة أبيه الظاهر بيبرس في بناء المدارس المهتمة بتدريس الفقه الحنفي والشافعي[4]، ومن أشهر المدارس في العصر المملوكي المدرسة المنصورية التي تشبه الجامعة في الوقت الحاضر وقام بإنشائها السلطان المنصور قلاوون بخط القصرين من القاهرة، وجعل بجانبها قبة كانت بمثابة مدرسة أخرى[5].

---

(1) فرغلي، المرجع السابق، ص56.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص378.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص374-375.

(4) فرغلي، المرجع السابق، ص57.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص 380/ النويري، المصدر السابق، ج32-33، ص70.

كذلك المدرسية الأشرفية التي أسسها الأشرف شعبان بن حسن (777هـ/1370م) وكان بها أكبر المكتبات المدرسية التي زخرت بالكتب النفيسة، أيضا المدرسة الظاهرية التي أنشأها السلطان برقوق بين القصرين سنة(788هـ/ 1386م) وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة عامرة[1].

كما حدا الأمراء حذو السلاطين فأنشأ بهاء الدين علي بن محمد مدرسته المعروفة بالصحابية البهائية و بها خزانة كتب[2]، كما بنا حسام الدين طرنطاي نائب السلطان قلاوون مدرسة للشافعية وهي المعروفة بالحسامية[3]، وغيره من الأمراء.

ولم يكن اهتمام المماليك محصوراً بإنشاء المدارس فقط بل اهتموا بإنشاء الجوامع والمساجد اهتماما كبيراً إذ تذكر المصادر أنه في عهد الناصر محمد بلغ عدد الجوامع أكثر من ثلاثين جامعا من ذلك أنه" ... صارت الجملة مع ما تجدد من الخطب بالمدارس في الدولة الناصرية إحدى وثلاثين خطبة"[4].

كما يذكر ابن شاهين الظاهري[5] انه "... قيل بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف عن ذلك"، ومن أبرز المساجد في ذلك العصر والذي يعد من المراكز التعليمية والتثقيفية هو الأزهر الشريف الذي أعيد إليه النشاط التعليمي في عهد الظاهر بيبرس بعد أن أوقف نشاطه لحوالي مائة سنة، فقد حرمت فيه صلاة الجمعة وكان ذلك خلال سنوات حكم الدولة الأيوبية، وزهاء سبع عشر سنة من حكم المماليك البحرية، بعد أن كان المسجد الأول في الديار المصرية والمسجد

---

(1)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص55.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص271/ باشا، المرجع السابق، ج6، ص4.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص370.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص386.

(5) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج9، ص144.

الرسمي إبان العصر الفاطمي[1]، ولكنه حظي باهتمام كبير في عهد المماليك فالسلطان بيبرس قام بإعادة اعماره فعاد عامراً بتلاوة القرآن الكريم ودراسته وتلقينه، كما أعاد له المماليك أوقافه بل زادوا عليها ما يكفي هذه النهضة العلمية التي استجدت فيه، إذ يصور المقريزي[2] الحياة العلمية بالجامع الأزهر في هذا العصر فيقول "... لم يزل هذا الجامع مد بني تجاور به طائفة من الناس من عجم ومغاربة ومن يرد من أرض الريف إلى القاهرة من طلبة العلم".

من الملاحظ أن هذا النشاط في بناء المراكز التعليمية امتد إلى حكام الأقاليم أيضا، فنجد الأمير المحسني أنشأ مدرسة بدمياط عندما كان والياً عليها فشاهدها ابن بطوطة[3] ونزل بها عند زيارته لتلك المدينة ويذكر "... أنه كان بدمياط أيام إقامتي بها والي يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الأيام ".

كما أسهم بعض التجار والعلماء والقضاة في إنشاء بعض هذه المراكز التعليمية فقد انشأ الإمام الشيخ مجد الدين الخليل سنة(663هـ/1265م) المدرسة المجدية الخليلية[4]، وأنشأ رئيس التجار برهان الدين إبراهيم مدرسته التي عرفت بمدرسة المحلى وأنفق عليها خمسون ألف دينار[5]، والمدرسة الخروبية التي أنشأها القاضي تاج الدين الخروبي[6].

---

(1) الخولي، المرجع السابق، ص51.

(2) الخطط، ج2، ص276.

(3) المصدر السابق، ص35.

(4)المقريزي، الخطط، ج2، ص399.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص369.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص368.

ولم يقتصر إنشاء المدارس على المدن الكبرى بل قام السلاطين بإنشاء الكثير من المدارس في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي[1].

كما اهتم المماليك بإنشاء الزوايا والأربطة والخوانق فيذكر ابن بطوطة[2] أن "... الزوايا كثيرة والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية في مصر معينة لطائفة من الفقراء...."، وهذا فيه دلالة على مدى الاهتمام الذي أولاه المماليك لهذه الأبنية وأهميتها في ذلك الوقت.

إضافة إلى اهتمامهم بإنشاء المكتبات الكثيرة والمتنوعة إذ لا يغيب عنا مدى الأهمية الكبيرة للمكتبة في العهد المملوكي وما قدمته من حفظ للتراث الإسلامي من الفقدان والضياع بعد أن أحرق المغول الكتب وأغرقوها عند اجتياحهم بغداد وهذا التراث لا زال موجوداً حتى الآن، وقد تعددت أنواع المكتبات سواء العامة أو الموقوفة التي ألحقت بالمدارس والمساجد، كذلك المكتبات الخاصة منها أنه كان في قلعة الجبل خزانة كتب ضمت كتباً كثيرة في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم ولكن أصابها في عام (691هـ/ 1291م) حريق فضاعت كتبها بين أيدي الناس ما بين نهب وشراء بأبخس الأثمان[3].

كذلك الاهتمام بالمراكز التعليمية الخاصة بالعسكر وهو ما عرف بالطباق أو الأطباق وهي الأماكن التي كان يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان ويذكر المقريزي[4] أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون هو الذي بنى الطباق بساحة

---

(1) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص323.

(2) المصدر السابق، ص38-39.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص212.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص188.

الإيوان بالقلعة وأسكنها المماليك السلطانية سنة (729هـ/1328م) وذلك بعد هدمه لسجن الجب* الذي بناه والده ليسجن به المماليك، وكان الطباق للمماليك بحيث يرسل السلطان المماليك كل منهم إلى طباقه وفقاً لجنسه وهو ما يعرف برسم الكتابة**[1].

أما عن الحياة العلمية فلم يكن هناك سياسة أو خطة تعليمية ثابتة للدولة وإنما كانت هي سياسة فردية مرتجلة مقيدة برغبة السلطان أو الأمير التي عادة ما يكون دافعها حب الظهور أمام الناس بمظهر الحريص على العلم والدين أو بغية التقرب إلى الله من خلال إنشاء هذه المراكز، أو للإبقاء على بعض الممتلكات بوقفها على المدرسة المنشأة وهذا الأمر الأخير جعل بعض المدارس تزول وينتهي أمرها بمجرد موت واقفها وذلك بسبب تعرضها للإهمال من كل مكان[2].

لم يقتصر اهتمام السلاطين المماليك على إنشاء هذه المدارس والمراكز فقط، وإنما امتد دورهم للإشراف عليها فنجد أنه عند الفراغ من بناء مدرسة يتم الاحتفال عادة بافتتاحها حيث ينزل السلطان إليها في جمع من أمرائه وتجتمع العلماء والأعيان ويختار السلطان من المعلمين والبنائين والمهندسين كما يعين الموظفين والمؤدبين وغيرهم[3].

---

*الجب: كان بقلعة الجبل وهو سجن يسجن به الأمراء وابتدأ عمله سنة 681هـ أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون وبقي حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون نتيجة لحالته السيئة ورداءته، ينظر المقريزي، الخطط، ج2، ص188-189.

** برسم الكتابة: أي تعليم المماليك الصغار وذلك أنه في عهد المماليك كانوا يجلبونهم أطفالاً ويتم تعليمهم تعليماً خاصاً، ينظر المصدر نفسه، ج2، ص213.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص213-214.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، م3،ج1، ص30.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص159-160.

ويقدم المقريزي[1] وصفاً للاحتفال بافتتاح المدرسة الظاهرية التي بناها الظاهر بيبرس سنة (660هـ/1260م) إذ يذكر أنه " ... اجتمع بها أهل العلم وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب في إيوانهم ".

شمل الاهتمام كذلك بتعيين أفضل المدرسين فوظيفة التدريس في ذلك الوقت تعد جليلة القدر حيث كان السلطان المنصور قلاوون يكتب توقيعاً في ديوان الإنشاء من خلاله يقدم النصح للمدرس "... بأن يظهر مكنون علمه للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه لاستمالة طلابه ويربيهم كما يربي الوالد ولده "[2]
إضافة إلى مظاهر النظام التعليمي التي سنتناولها لاحقاً.

كذلك لا يخفى دور الأوقاف التي رصدت للعملية التعليمية، فقد لعبت الأوقاف دورا مهماً في دعم المراكز التعليمية واستمرارها في أداء رسالتها، فقد تميزت الأوقاف في العهد المملوكي بكثرتها بشكل لافت للانتباه، وأنها خصصت للمراكز والنشاطات التعليمية والدينية، من أمثلة ذلك "...انه بلغت الأراضي المحبوسة على المدارس والمساجد والزوايا في عهد الناصر محمد بن قلاوون مائة وثلاثون ألف فدان"[3]، كذلك المدرسة الناصرية ".... لولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت"[4]، إذ يعدد النويري[5] "... ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات* وقاعات وحمامات وخانات وغير ذلك من المباني وكلها تدر الإيجارات

(1) السلوك، ج1، ص504.
(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج11، ص246-247.
(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص318-319.
(4) المصدر نفسه، ج2، ص363.
(5) المصدر السابق، ج30، ص341.
* قيساريات: جمع قياسر وهي السوق المسقوفة وأطلق على الخان أو الوكالة أي البناء الذي يحتوي على غرف ومخازن للتجار، ويعلوه طباق للسكن بارتفاع دورين أو ثلاثة، ينظر عاشور: سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1976م، ص463.

الوفيرة.... وكان جملة ما تدره هذه الأوقاف ريعاً ثابتاً للمدرسة الناصرية يزيد على (8402) ألف درهم في السنة" هذه الأوقاف كان يدفع منها نفقات مكاتب السبيل والمدارس والطلبة، بالتالي نرى ما وفرته الأوقاف من أمن واستقرار للحياة العلمية وسنرى هذه الأهمية أكثر ودور الأوقاف في إثراء الحركة العلمية والحفاظ عليها لاحقاً.

الجدير بالذكر أن سبب الإكثار من اعمار المراكز التعليمية والدينية من قبل السلاطين و الأمراء إبان عصر المماليك يرجع إلى عدة عوامل:-

منها حرص السلاطين والأمراء على خدمة الدين الإسلامي وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية، ومقاومة المد الشيعي في ذلك الوقت.

كذلك وجود العلماء والفقهاء ووفود الطلاب في مصر عصر المماليك كان عاملاً مشجعاً لأصحاب السلطة ومحبي العلم والتعليم لإنشاء المراكز التعليمية والدينية المتنوعة، وكان نتيجة ذلك وجود علاقة وثيقة ورابطة قوية ربطت بين الحكام المماليك وطبقة العلماء من ناحية أخرى، بالتالي مدى انعكاس ذلك على أهل البلاد وتقبلهم للوضع السياسي والرضا بحكم المماليك وهم غرباء عن الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وهذا أيضا يعد عاملاً مهماً ليظهروا بمظهر المشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية، لذلك نلاحظ أنهم انتهجوا سياسة التشجيع على إنشاء المراكز التعليمية واستقدام العلماء البارزين إليها وتوفير كل ما تحتاجه هذه المراكز ولعل السبب وراء ذلك أيضا هو ابتغاء المماليك للشهرة وطيب الذكر أمام الناس وتمكين حكمهم في نفوس المواطنين.

بينما يرى ابن خلدون أن هذه الرغبة في استكثار المراكز العلمية هو لتأمين حياتهم وأولادهم فيقول [1]"... أنهم كانوا يخافون على ذريتهم من التقلبات السياسية

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص345.

وما يمكن أن يتعرضوا له وضياع الثروة بعد موتهم، لذلك أرادوا أن يجنبوهم هذا المصير المظلم فبنوا هذه المراكز العلمية والدينية وأنفقوا عليها أموالهم ونصبوا أولادهم نظاراً عليها وجعلوا لهم فيها نصيباً ثابتاً".

أيضا وجود التنافس بين السلاطين والأمراء على إقامة المنشآت التعليمية والتثقيفية، وإيقاف الأوقاف الضخمة عليها والاهتمام بها.

ومهما كان الأمر فإن هذا النشاط الضخم الذي أولاه سلاطين المماليك لإنشاء المدارس والمساجد وغيرها من دور التعليم والعبادة ورعايتهم لها يعد عاملاً قوياً أسهم في إنشاء نهضة فكرية ذات أسس قوية ازدهرت بمصر طوال عهد المماليك والعهود التي تلته.

الفصل الثاني:

دور المراكز الدينية في الحياة العلمية.

المبحث الأول: المراكز الدينية:

(المساجد، الخوانق، الزوايا، الأربطة)

المبحث الثاني: دور الأوقاف في دعم المراكز الدينية.

المبحث الثالث: الحركات الصوفية وأثرها في الحياة الثقافية والعلمية.

المبحث الأول : المراكز الدينية: (المساجد– الخوانق– الزوايا – الأربطة):

(1) المساجد والجوامع:

لقد تعددت أقوال مؤرخي العصر المملوكي حول عدد الجوامع والمساجد التي شيدت في مصر أيام سلاطين المماليك ومن ذلك قول ابن شاهين الظاهري[1] أنه "... قيل أن بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف عن ذلك"، كما بلغ"... عدد المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة مائة وثلاثين مسجداً"[2]، و القلقشندي[3] يذكر أنها أي المساجد " ...أكثر من أن تحصى، وأعز من أن تستقصى".

مما تقدم ومن خلال ما ورد في تلك المصادر المعاصرة لتلك الحقبة الزمنية يمكن القول أنه كان بمصر في العصر المملوكي عدد كبير من الجوامع والمساجد، منها ما بني في فترات سابقة لحكم المماليك وجدد في أيامهم واستمر في أداء مهامه، ومنها ما بني أثناء العهد المملوكي على يد السلاطين أو الأمراء والخوندات* وكبار رجال الدولة، وهي على النحو التالي:

---

(1) المصدر السابق، ص31.

(2) الخطط، ج2، ص245.

(3) المصدر السابق، ج2، ص365.

* الخوندات: مفردها (خوند) لقب يفيد الاحترام والتبجيل، يخاطب به الذكور والإناث على السواء، كان اللقب يستعمل في البداية للملوك فقط، أما الملكات والأميرات فكان يطلق عليهن لقب خاتون، ثم أصبح يطلق عليهن لقب خوند كذلك، انظر دهمان: أحمد محمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2012م، ص70.

جامع عمر ابن العاص:

أسسه عمرو بن العاص عام (21هـ/641م) في الفسطاط وهو أول جامع يقام في مصر ولا يزال ماثلاً فيها حتى عهد المقريزي فقد"... أهتم بهذا الجامع منذ تأسيسه كل ولاة مصر وسلاطينها وأمرائها*"[1]، ويقال له تاج الجوامع كما سمي بالجامع العتيق، تم الاهتمام به وتجديده في عهد المماليك فابن دقماق يذكر[2] أنه "...عندما تولى قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء الديار المصرية كشف الجامع وأصلح ما مال فيه وهدم بعض غرفه، وأبطل جريان الماء إلى الفسقية لما كان فيه من الضرر على جدران الجامع"، ولكن قاضي القضاة لم يكفيه مال الأحباس لتعمير الجامع فاجتمع والصاحب بهاء الدين محمد مع السلطان الظاهر بيبرس وعرض عليه الأمر فأمر السلطان الظاهر بيبرس سنة (666هـ/1267م) بعمارته، وكتب اسم الظاهر بيبرس على اللوح الأخضر.

ثم جدد في أيام المنصور قلاوون سنة (687هـ/ 1288م) ، في سنة (702هـ/1302م) حدث زلزال بمصر مما أدى إلى تصدع وانهيار في بعض أجزائه فتولى الأمير سلار عمارة هذا الجامع[3]، في سنة (804هـ/1401م) جدده رئيس التجار إبراهيم بن عمرو بن على في عهد السلطان الظاهر برقوق فهدم صدر

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص246.

* تم تجديد هذا الجامع في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد الدولة الأموية وكذلك العباسية، كما قام بتجديده أحمد بن طولون بعد الحريق الذي تعرض له سنة (275هـ/888م)، ولكن في سنة (564هـ/1168م) عندما تمكن الصليبيون من مصر أهمل الجامع حتى عهد صلاح الدين الأيوبي الذي قام بتجديده للمزيد انظر المقريزي، الخطط، ج2، ص246/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص241.

(2) المصدر السابق، ج1، ص70.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص252/ ابن دقماق، المصدر السابق، ج1، ص62.

الجامع بأسره وأعاد البناء كما كان أولاً واستمرت عمارته أربع سنوات، ولم تتعطل فيه صلاة الجمعة مدة عمارته، فالملك الأشرف أبا النصر قايتباي جدد هذا الجامع من بعض جهاته[1].

لقد شهد جامع عمرو بن العاص منذ إنشائه تنوعاً في الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، كما ألحقت به العديد من الزوايا أبرزها زاوية الإمام الشافعي التي عرفت باسمه لأنه درس بها، أوقفها السلطان الناصر صلاح الدين فالمقريزي يقول[2] أنه " ظل يدرس بها أعيان الفقهاء وجلة العلماء" هذا يدل على أن زواياه استمرت في تأدية الدروس بها حتى عهد المقريزي.

هذه الزوايا دُرِّس فيها القرآن الكريم والفقه والأدب والحديث " ... فقبل الوباء الذي أصاب مصر سنة (749هـ/ 1348م) شهد الجامع بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه"[3].

جامع ابن طولون:

بني هذا الجامع سنة (259هـ/872م) موضعه بجبل يشكر*، تم بناءه

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص253/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص243/ باشا، المرجع السابق، ج4، ص6.

(2) الخطط، ج2، ص255.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص256.

* جبل يشكر: هو مكان مشهور بإجابة الدعاء وقيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات، انظر ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعرية القاهرة، تحقيق:أيمن فؤاد سيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1996م، ص76/ ويشكر هو بن جديلة من لخم وتسمى خطه غافق وهو غافق بن الحرث بن عدنان بن عبد الله، المصدر نفسه، ج2، ص266.

سنة(259هـ/872م) كما ذكر ابن عبد الظاهر[1]، بينما المقريزي ذكر[2] أن سنة البناء كانت (263هـ/876م)، مع العلم أن ابن عبد الظاهر أقدم من المقريزي إلا أننا نجد أن العديد من المصادر[3] تكاد تتفق على أن سنة (263هـ/876م) هي السنة التي بني بها الجامع لذلك من المرجح أن التاريخ الذي ذكره ابن عبد الظاهر هو تاريخ بناء القطائع*، أما التاريخ الأخر فهو تاريخ بناء الجامع.

ابتدأ في بنائه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بنائه القطائع[4]، تم تجديده سنة (385هـ/995م) على يد العزيز بالله ابن المعز الفاطمي ويذكر"... أنه أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف للقراءة وبقي الجامع وما حوله حتى زمن المستنصر إذ جاء الغلاء بمصر وخربت القطائع وما حولها.." [5].

في سنة (696هـ/1296م) قام السلطان لاجين بتجديده حيث أمر الأمير علم الدين سنجر الزيني فعمره وأوقف عليه أوقافاً، ورتب فيه دروساً في التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب، وعمل بجواره مكتباً للأيتام والفقراء من أطفال المسلمين لتعليمهم القرآن الكريم حتى بلغت النفقة على عمارته عشرين

---

(1) الروضة البهية، ص76.

(2) الخطط، ج2، ص264.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، 265/ المقريزي، الخطط، ج2، ص264/ السخاوي الحنفي: أبي الحسن نور الدين علي بن أحمد ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط2، 1406هـ/ 1986م، ص92.

* القطائع: بمعنى الأطباق، كانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها فكانت قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراش، ونحو ذلك، وهي بمنزلة الحارات اليوم وكان سبب بناء ابن طولون للقصر والقطائع لكثرة مماليكه وعبيده، بعد بنائه للقصر والميدان، أمر لأصحابه وغلمانه أن يختطوا حول قصره وميدانه بيوتاً، فاختطوا هذه القطائع، انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص15.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص265/ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص76.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص249.

ألف دينار ورجع الجامع لما كان عليه وعمر ما حوله[1]، في سنة (767هـ/1365م) جدد به الأمير يلبغا الخاصكي* دروساً للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً[2]، وممن قام فيه بتدريس الطب شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري**المتوفي سنة (776هـ/1374م)، وممن تولى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر العادلي داودار***السلطان لاجين، ثم وكل أمره إلى القضاة منهم القاضي بدر الدين ابن جماعة، وعز الدين ابن جماعة، وبعد مدة وكل أمره إلى الأمراء ثانية فتولاه الأمير صرغتمش، ثم الجاي اليوسفي، ثم قطوبغا الصفري، ثم عاد أمره إلى القضاء[3].

الجامع الأزهر:

أنشأه جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي، شرع في بنائه سنة (359هـ/969م) أكمل بناءه سنة (361هـ/971م) حيث استغرق بناؤه

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص268/ السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص250.

* الخاصكي: مفرد خاصكية وهم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان ويجعلهم في حرسه الخاص، أخذوا الاسم من حضورهم عند السلطان في أوقات خلوته ويتميزون عن غيرهم بلباسهم وحملهم السيوف، انظر دهمان، المرجع السابق، ص66.

(2) باشا، المرجع السابق، ج4، ص47.

** يعرف بشمس الدين بن تاج الدين، مدرس الأطباء بجامع ابن طولون كان فاضلاً له نظم مات في الثامن من شوال سنة (776هـ/1374م) انظر العسقلاني، أنباء الغمر، ج1، ص94.

*** الداودار: هو المسئول عن تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد وأخذ الخط عن عامة المناشير والتواقيع والكتب، للمزيد انظر القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص19.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص250.

عامين وهو أول مسجد بني في القاهرة ولا يزال قائماً حتى اليوم وهذا الجامع بني أثناء بناء مدينة القاهرة[1].

جدده الحاكم بأمر الله الفاطمي وأوقف عليه الأوقاف[2]، ظل الجامع الأزهر يقوم برسالته العلمية في عهد الفاطميين والتي اقتصر فيها التدريس على المذهب الفاطمي في الفقه وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد، كما عقدت به حلقات الدروس العامة، فكان الأساتذة وفقهاء الشيعة يجلسون لإلقاء دروسهم على من يحضرها في الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعيات والرياضيات[3].

كما جعلت به المجالس للناس كلاً حسب طبقته، فكان للخاصة مجالس، والعامة مجالس، والوافدين من البلاد الأجنبية مجالس[4].

بانتقال السلطة إلى الأيوبيين منع صلاح الدين الأيوبي* الخطبة فيه فانقطعت الخطبة عن الأزهر وأقرت في الجامع الحاكمي، وظل الجامع على هذا الحال طوال فترة حكم الدولة الأيوبية أي حوالي ثمان وتسعين سنة هجرية من سنة (567-665هـ/ 1171-1267م) وقد استغرقت هذه الفترة حكم الدولة الأيوبية

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص273.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص274/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص251.

(3) الشيال، المرجع السابق، ج1، ص148.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص274/ للمزيد عن التعليم في الجامع الأزهر خلال العهد الفاطمي انظر الخولي: محمد عبد العظيم، الأزهر الشريف في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2012م، ص34-47.

* ولى صلاح الدين الأيوبي منصب القضاء لصدر الدين بن درباس وكان شافعياً فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع إقامة خطبتين في بلد واحد، فأبطل الخطبة في الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي لكونه أوسع، وظل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الخطبة فيه حتى أيام الظاهر بيبرس، فأراد إعادة الخطبة فيه لكن قاضي القضاة ابن بنت الأعز رفض وصمم على رفضه، فولى السلطان قاضياً حنفياً فأذن بإعادتها فأعيدت، ينظر السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص252.

وزهاء سبع عشرة سنة من حكم دولة المماليك البحرية[1]، ولكن ذلك لم ينقص من قيمته كمركز علمي في ذلك الوقت خاصة أن الأيوبيين اشتهروا بحبهم للعلم والعلماء ويتضح ذلك من خلال المراكز العلمية التي أنشئت في عهدهم ودورهم البارز في نشر المذهب السني ومحو أثار التشيع في مصر[2].

في عهد المماليك أعيد للأزهر مكانته وأصبح من أهم المساجد والمراكز العلمية فالمماليك منذ بداية عهدهم اتجهوا للاهتمام به وممن عني به وجدده السلطان الظاهر بيبرس الذي عمل على إعادة خطبة الجمعة إليه وذلك في يوم الجمعة من ربيع الأول عام (665هـ/ 1267م)[3]، كما أذن للأمير أيدمر الحلبي في سنة (665هـ/1266م) بإعادة اعمار الجامع فشرع باسترجاع الأراضي التي اغتصبت من ساحة الأزهر وقد جمع له التبرعات، كما أطلق له السلطان بيبرس مبلغاً كبيراً من المال فشرع الأمير أيدمر الحلبي في تجديده حتى عاد للجامع بعض رونقه[4]، منذ ذلك التاريخ ازدادت قيمته التاريخية حتى صار أرفع جوامع القاهرة قدراً، كما بنى فيه الأمير بيلبك الخازندار* مقصورة كبيرة عيّن فيها بعض الفقهاء لقراءة الفقه على المذهب الشافعي، ومحدثاً للحديث النبوي[5].

هكذا بدأ الأزهر يشارك باقي المراكز العلمية في مصر والقاهرة في أداء رسالته العلمية، وفي سنة (702هـ/1302م) أصاب مصر زلزال شديد تهدم على

---

(1) باشا، المرجع السابق، ج4، ص11/ الخولي، المرجع السابق، ص51.

(2) المرجع نفسه، ص42-43.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص275/ القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص364.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص275.

* الخازندار: هو المسئول عن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص21.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص275.

أثره بعض المساجد من بينها الأزهر الذي تصدع فأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون نائب سلطنته الأمير سلار بعمارته وتجديد مبانيه وما تهدم منها، ثم تجددت عمارته على يد القاضي نجم الدين محمد بن الأسعردي محتسب القاهرة سنة (725هـ/ 1324م)[1]، وفي سنة (761هـ/1359م) في عهد السلطان الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون، أستأذنه الأمير سعد الدين بشير الجمدار* ذلك لسكنه قريباً منه في إصلاح الأزهر فنزع كثيراً من مقاصيره وعمل على إصلاح سقوفه وجدرانه حتى عاد إليها رونقها، ورتب فيه مصحفاً وجعل له قارئاً، كما أنشأ ببابه القبلي سبيلاً ومكتباً للأيتام وقرر فيه درساً لفقهاء الحنفية وأوقف عليه أوقافاً جليلة[2].

كذلك في عهد المماليك الجراكسة حظي الأزهر بعناية كبيرة إذ نجد السلطان الظاهر برقوق في سنة (792هـ/ 1390م) يقوم بإصدار مرسوم لمقدم المماليك** الطواشي بهادر نص المرسوم على " أن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي وترك ثروة فإنها تؤول إلى مجاوري الجامع ونقش ذلك على حجر كان مثبتاً على الباب الكبير البحري"[3]، في سنة (800هـ/1379م) تهدمت منارته فعمرت منارة جديدة كانت أطول من الأولى و بلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص275- 276.

* الجمدار: هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصل اللفظة جامادار فارسية بمعنى اللباس داخل البيت ومنها البيجاما، انظر دهمان، المرجع السابق، ص54/ كما تعني حامل المرآة أمام الملك حين يلبس ثيابه مركب من (جام) أي مرآة و(دار) أي حامل، انظر أدي شير: السيد، الألفاظ الفارسية المعربة، دار العربي للبستاني، القاهرة، ط2، 1988م، ص44.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص276/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص36.

** مقدم المماليك: مهمته التحدث عن المماليك السلطانية والتحكم فيهم، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص21.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص276/ باشا، المرجع السابق، ج4، ص11.

عشر ألف درهم نقرة*، ظلت هذه المئذنة حتى سنة(817هـ/1414م) ثم هدمت لميل ظهر فيها وعمل بها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعدما هدم وتم بناؤه بالحجر وركبت المنارة فوق عقدة فهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق، فأعاد بناءها الأمير تاج الدين التاج الشوبكي والي القاهرة ومحتسبها واكتملت سنة (818هـ/1415م) ولكنها ما لبثت أن مالت وأعيد بناءها في سنة (828هـ/1424م) حيث عمل بها السلطان الأشرف برسباي صهريج بصحن الجامع[1].

كان بالأزهر منذ بنائه عدد من الفقراء يلازمون الإقامة به وفي سنة (818هـ/1415م) بلغت عدتهم سبعمائة وخمسين رجلاً مابين عجم و زيالعة**ومن أهل ريف مصر والمغاربة، وكان لكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن الكريم ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلقات الذكر، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس*** إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى[2].

---

* نقرة: هي الدراهم التي يكون ثلثاها من فضة وثلثها نحاس، القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص443.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص276/ الخولي، المرجع السابق، ص76.

** زيالعة: يتمثل الزيالعة في شعوب الصومال والعفر والجالا، المتركزين حول نهر أواشر تلك الشعوب كونت إمارات إسلامية في ذلك العصر أطلق عليها اسم الزيلع أو الزيالعة نسبة إلى ميناء زيلع في الصومال، للمزيد انظر عبد الحليم: رجب محمد، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م، ص54 وما بعدها.

*** الفلوس: هي صنفان المطبوع بالسكة وغير المطبوع، المطبوعة كانت في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ويعتبر كل 48 فلساً منها بدرهم من النقرة، وغير مطبوعة وهي نحاس مكسر من الأحمر والأصفر، القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص444.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص277.

في سنة (818هـ/1415م) ولى نظره الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب* أمر بإخراج المجاورين منه ومنعهم من الإقامة فيه وإخراج ما لهم من صناديق وخزائن وكراسي مصاحف فتشتت شمل الفقراء وتعذرت الأماكن عليهم[1]، في سنة (900هـ/1494م) أجرى الخواجا مصطفى بن محمد بن رستم الرومي بأمر من السلطان قايتباي عمارة للجامع الأزهر وصرف عليه من ماله نحو خمسة عشر ألف دينار، وجاء غاية في الحسن وهو على ما جدد به حتى الآن[2]، كذلك في سنة (915هـ/1509م) قام السلطان الغوري ببناء منارة ضخمة ذات رأس مزدوج لا تزال، باقية حتى الآن إلى جوار منارة السلطان قايتباي[3].

هكذا كان الأزهر من أهم المراكز الدينية والعلمية في ذلك الوقت فقد كانت تدرس بالعصر المملوكي به كتب الحديث المعروفة للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه على مسند الإمام أحمد والشافعي، وكان مذهب الإمام الشافعي أول ما دُرس في عهد السلطان بيبرس، كما كان يدرس به اللغة و الأدب والوعظ ومما يذكر أن السلاطين كانوا يولون أمره بأنفسهم ويعنون بانتقاء شيوخه ومدرسيه وخطبائه، وكثيراً ما كانوا يؤموه لأداء صلاة الجمعة[4].

---

* حاجب الحجاب: هو القائم مقام النائب في كثير من الأمور، وهذا الاسم أول ما عرف في الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان، وكانت مهمته حجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص19-20.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص277/ باشا، المرجع السابق، ج4، ص12.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص12.

(3) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص162/ الخولي، المرجع السابق، ص77.

(4) الخولي، المرجع السابق، ص80/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص36.

الجامع الحاكم:

يقع هذا الجامع خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة، أسسه العزيز بالله الفاطمي، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله*، كان أولاً يعرف بجامع الخطبة واليوم يعرف بالجامع الحاكم ويقال له الجامع الأنور، بدأ في بنائه سنة (380هـ/990م) وتمت عمارته عام (393هـ/1002م) وأوقف عليه الحاكم بأمر الله أوقافاً واسعة وأسواقاً عدة[1]، عند اكتمال الجامع بدأ الطلبة الذين يتحلقون في الجامع الأزهر يتحلقون في هذا الجامع فأصبح له شأناً كبيراً في سنة (403هـ/ 1012م) علقت الستائر على أبوابه وكثير من القناديل ونصب فيه المنبر، وأذن للناس لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضي إليه[2].

أما في العهد المملوكي فإنه في سنة (702هـ/1302م) تهدم الجامع إثر الزلزال الذي أصاب مصر فجدده الأمير بيبرس الجاشنكير، إذ نزل إليه ومعه القضاة والأمراء وأمر بترميم ما تهدم منه، وأقام سقوفه، وأوقف عليه أوقافاً بناحية الجيزة والصعيد وفي الإسكندرية، ورتب فيه دروساً لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة ودرساً في الحديث والنحو والقراءات، وجعل لكل درس مدرس وعدد كبير من الطلبة، وعمل فيه خزانة كتب جليلة، كما جعل فيه عدد من المتصدرين لتلقين القرآن الكريم كذلك في التصدير** للإفادة في العلوم الأخرى، ومعلماً يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله

---

* عندما وسع أمير الجيوش بدر الجمالي القاهرة وجعل أبوابها حيث هي اليوم صار جامع الحاكم داخل القاهرة، المقريزي، الخطط، ج2، ص277.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص277/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص253.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص277.

** التصدير: كلمة ترد بمعنى التدريس، أي يتصدر المدرس مجلساً في المسجد ليدرس الطلبة، دهمان، المرجع السابق، ص45.

عز وجل إذ كان بجانبه مكتباً لتعليم الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم[1]، في سنة (760هـ/1358م) جدد هذا الجامع في الولاية الثانية للملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون فقد جدده وبلط أرضيته على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس، وأضاف إلى أوقافه قطعة أرض قدرها 560 فداناً في طنتبا، وزيادة في معلوم الإمام بالجامع وعلى ما يحتاج إليه، وفي سنة (761هـ/1359م) صودرت أملاك الشيخ الهرماس وهدمت داره التي بناها أمام الجامع وضرب ونفي هو وأولاده[2].

في سنة (780هـ/1378م) جدد فيه رجل يعرف بابن كرسونا المراحلي حيث بيض مئذنته وعمر فسقيته وأستجد به مئذنة ثانية بأعلاه[3].

الجامع الأقمر:

يقع على يمين السالك من شارع الأمشاطية بخط بين لقصرين من جهة باب الفتوح فمكانه كان به علافون* حيث أمر الأمير وزير المأمون بن البطائحي بإنشائه جامعاً فلم يترك أمام القصر دكاناً وبناه سنة (519هـ/1125م) وأوقف عليه الأوقاف[4].

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج32، ص58/ المقريزي، الخطط، ج2، ص278/ الحجي: حياة ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط1، 1412هـ/ 1992م، ص142.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص280.

(3) باشا، المرجع السابق، ج4، ص80.

* العلافون: بائعوا العلف وهو طعام الدواب ويعرف أيضا بالعليق، مسعود: جبران، المعجم الرائد، دار العلم للملايين، لبنان، ط7، 1992م، ص680.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص290.

في العصر المملوكي تمت العناية بهذا الجامع وممن عني به الملك الظاهر بيبرس حيث قام بتجديده وأقام به الخطبة، ثم جدده المشير يلبغا السالمي*سنة (799هـ/1396م) إذ أنشأ بظاهر بابه البحري حوانيت يعلوها طباق[1] وجدد في صحنه بركة ونصب فيه منبراً وبنى على يمين المحراب مئذنة وبيّض الجامع ودهن صدره باللازورد** والذهب وأنشأ به ميضأة وجدد حوضه الذي تشرب منه الدواب[2]، في سنة (815هـ/1412م) هدمت مئذنته وأبطل الماء من البركة وهذا الجامع حتى زمن المقريزي ظل قائماً وعامرً مقام الشعائر تام المنافع واسمه لم يتغير وأرضه منخفضة وللناس في بئره***اعتقاد ويستشفون بمائه[3].

جامع الظاهر:

يقع خارج القاهرة بالحسينية، أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة (665هـ/1266م)، كان موضعه ميدانً عرف بميدان قراقوش وكان منتزه السلطان

---

* يلبغا السالمي: أبو المعالي عبد الله الأمير سيف الدين الحنفي الصوفي الظاهري، كان يعرف في بلا ه باسم يوسف وعندما جلب إلى مصر سمي يلبغا وعرف بالسالمي نسبةً إلى تاجره سالم، المقريزي، الخطط، ج2، ص292.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص168-169.

** اللازورد: من الأحجار الكريمة لونها أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان وأمريكا يستعمل للزينة وله منافع في الطب، انظر المعجم الوسيط، ص810.

(2) باشا، المرجع السابق، ج4، ص60.

*** كان به بئر قديمة قبل الإسلام كانت في دير بهذا الموضع، وعرفت ببئر العظام وذلك لأن جوهر القائد نقل من البئر عظاماً من رمم قوم يقال إنهم الحواريين والعامة تقول بئر العظام، باشا، المرجع السابق، ج4، ص42-43.

(3) المقريزي، ج2، ص290.

ومحل لعبه بالكرة فأختاره ورسم الجامع في قطعة منه ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفاً على الجامع، وأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية، وكتب إلى البلاد بإحضار عمد الرخام، وآلات من الحديد والأخشاب لرسم الأبواب والسقوف وشرع في عمارته سنة (665هـ/1266م)، وفي سنة (666هـ/1267م) أحضر له من قلعة الفرنج بمدينة يافا أخشاباً وألواح الرخام وأمر بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة بالجامع، والرخام يعمل في المحراب، أكمل بنائه سنة (667هـ/1268م)[1]، وخلع على مباشريه ورتب به خطيباً حنفياً، كما قرر الظاهر بيبرس بديار مصر أربعة قضاة شافعي ومالكي وحنبلي وحنفي[2] فأستمر الأمر على ذلك حتى مجيء الفرنساوية إلى مصر*.

الجامع الناصري:

يقع هذا الجامع بشاطئ النيل من ساحل مصر الجديد عمره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش** باسم السلطان الملك الناصر حسن بن

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج31، ص85-86/ المقريزي، الخطط، ج2، ص299/ باشا، المرجع السابق، ج5، ص42-43.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص302.

* يذكر أن الفرنساوية جعلوا من هذا الجامع قلعة عرفت باسم سيكوفسكي، وجعلوا منارته برجاً وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنو به عدة مساكن، وقد خرب هذا الجامع وبني بداخله فرن عرفت باسم الظاهر وبعد ذلك أزيل كل ذلك وأصبح الجامع قائماً بذاته حتى أزيل تماماً، باشا، المرجع السابق، ج5، ص43/ ماهر: سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1979م، ص33.

** ناظر الجيش: هو المسئول عن أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه وهي وظيفة جليلة رفيعة القدر، وديوانها أول ديوان وضع في الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ سنة 20هـ، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص31.

قلاوون شرع في بنائه سنة (712هـ/1312م) أقام في خطابته القاضي بدر الدين محمد ابن جماعة(ت733هـ/1332م)، لهذا الجامع أربعة أبواب ومائة وسبعة عموداً منها عشرة من الصوان في غاية السمك والطول وجملة درعه أحدى عشر ألف ذراع، طوله مائة وعشرون ذراعا، وعرضه مائة ذراع، وفيه ستة عشر شباكاً من حديد ظل هذا الجامع من أحسن جوامع مصر إلى أن خرب ما حوله، و الآن لم يبق من أثر موضعه إلا حوش كبير يعرف بحوش التكية[1].

جامع القلعة:

أنشأ هذا الجامع بقلعة الجبل على يد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة (718هـ/1318م)، كان أولاً جامعاً قديماً وبجواره المطبخ السلطاني والحوائج خاناه** والطشتخاناه**والفرشخاناه***، فهدم الجميع وأضافه للجامع وعمره وأحسن عمارته[2].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص304/ باشا، المرجع السابق، ج5، ص132.

* الحوائج خاناه: معناها بيت الحوائج وهي تحت يد الوزير منها يصرف اللحم الراتب والوقود و الحبوب وكذلك التوابل وغير ذلك من الأصناف المتنوعة للمطبخ السلطان والدور السلطانية والجند وكل من هو مسجل في الديوان الخاص بذلك، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص12.

** الطشتخاناه: بيت الطشت وسميت بذلك لأن يكون فيها الطشت الذي تغسل فيه الأيدي و الطشت الذي يغسل فيه القماش، و الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الأقبية والسيف والخف وسائر الثياب، المصدر نفسه، ج4، ص10.

***الفراشخاناه: معناها بيت الفراش وتشتمل على جميع أنواع الفرش من البسط والخيام، ولها موظف خاص يعرف بالمهتار تحت يده جماعة من الغلمان مرصدون للخدمة فيها في السفر والحضر والمواكب السلطانية يعبر عنهم بالفراشين، ولهم خبرة في إقامة الخيام ومعرفة تامة بشد الأحمال التي تحمل في الموكب على ظهور البغال و بأوزانها، المصدر نفسه، ج4، ص11.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص325.

الجدير بالذكر أن هذا الجامع يرجع إلى عهد السلطان الملك الكامل حيث كان يوجد بالقلعة على عهد السلطان بيبرس البندقداري جامعاً ومن المرجح أن يكون هو نفس الجامع فمن خلال ما ورد في بعض المصادر يتضح ذلك إذ يذكر الدواداري[1] في حوادث سنة (735هـ/1334م) أنه " فيها برزت المراسيم الشريفة بهدم الجامع الذي أنشأه السلطان بالقلعة وأن يجدد بناءه، فهدم جميع ما بداخله من الرواقات والمقصورة والمحراب، وجدد بنائه بما لم تر العيون أحسن منه ... وأعلى قناطر الرواقات إعلاءً شاهقاً وكذلك القبة أعلاها...وعندما أعاد السلطان بناء القبة جعلها عالية شاهقة.....".

كما "...أنه عمل فيه الرخام الفاخر الملون وعمر فيه قبة جليلة"[2] ، و"... أن قبة جامع محمد بالقلعة التي كانت تعرف باسم القبة الخضراء، سقطت في عصر السلطان قايتباي سنة (893هـ/1487م) وأعيد بناؤها وجدد منبر الجامع المصنوع من الرخام الملون "[3].

مما تقدم ذكره نرجح أن هذا الجامع كان يوجد بمكانه جامع قديم لعله من بناء السلطان الكامل، وأن السلطان الناصر محمد أعاد بناءه سنتي (717-718هـ/1317-1318م) ثم عاد فجدد أجزاء هامة فيه وهي رواق القبلة سنة (735هـ/1334م) إذ تذكر إحدى المراجع[4] ما يؤكد ذلك من خلال شريط الكتابة المنقوش على المدخل الرئيسي بالواجهة الغربية الذي نقش عليه تاريخ البناء سنة

---

(1) الدواداري، المصدر السابق، ج9، ص293.

(2) النويري، المصدر السابق، ج32، ص218-219.

(3) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص136

(4) ماهر، المرجع السابق، ج3، ص132-133.

(718هـ/1318م)، بينما نقش على القبة بعد تجديدها وإعلائها أنها كانت سنة (735هـ/1334م).

أما عن شعائره ودروسه فيذكر النويري[1] أن السلطان جلس فيه بعد أن أتم بنائه وعرض سائر المؤدبين في القاهرة والخطباء والقراء، فأختار ثمانية عشر مؤذناً وثلاثة رؤساء جعلهم نواب عليه ورتب فيه أرباب الوظائف وأوقف عليه أوقافاً جليلة فجاء من أجل الجوامع في مصر و أعظمها.

ظل هذا الجامع عامراً بإقامة الشعائر الدينية فيه طوال عصر المماليك البحرية والبرجية، كما كان موضع عناية الحكام السلاطين، فقد كان بمثابة مسجد القصر الخاص*.

جامع أق سنقر الناصري**:

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل من جهة باب الوزير والتبانة، كان موضعه عند مقابر أهل القاهرة، أنشأه الأمير أق سنقر الناصري السلاري بناه بالحجر وجعل

---

(1) المصدر السابق، ج32، ص219.

* لقد ساءت حالة المسجد في العصر العثماني، فقد هدمت قبته وفقد منبره وأسيء استعماله وقضي على الجامع تماماً في عهد الاحتلال الإيطالي لمصر سنة(1882م)، فقد استخدم كمخازن للجيش وسجناً للعاصين والمتمردين، إلا أن أحد المهندسين من جنود الاحتلال يدعى واتسون راعه ما أصاب الجامع فقام بإزالة الحواجز الخشبية وهدم الحوائط التي أقامها جيش الاحتلال، سعاد ماهر، المرجع السابق، ج3، ص133.

** أق سنقر: هو الأمير شمس الدين أحد مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون، عندما عاد الملك الناصر محمد في ولايته الثانية رقاه في الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدمين وزوجه بابنته وأخرجه إلى عدة نيابات وكان مخلصاً في عمله وعمل مع الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد في نيابة الإسكندرية حتى سنة(744هـ/1343م)، حيث قبض عليه وسجن وكان هذا أخر عهده، المقريزي، الخطط، ج2، ص310.

سقوفه عقوداً من الحجارة ورخمه، واهتم ببنائه إذ كان يقعد على عمارته بنفسه ويشيل التراب مع الفعلة بيده، أنشأ بجانبه مكتباً لإقراء أيتام المسلمين القرآن الكريم، وحانوتاً لسقي الناس الماء العذب، ويذكر انه وجد عند حفر أساس هذا الجامع الكثير من الأموال المدفونة هناك استخدمت لتعمير الجامع فيما بعد، كما أوقف عليه الأوقاف منها ضيعة من قرى حلب تغل في السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة ونحو سبعة ألاف دينار، كما قرر فيه درساً للفقه واللغة والحديث، وولى الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الشافعي خطابته، وأقام له سائر ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف، وبنى بجواره مكاناً ليدفن فيه، وظل هذا الجامع من أَجل جوامع مصر، حتى حدثت الفتن ببلاد الشام وخرج النواب عن طاعة سلطان مصر فامتنع وصول غلته وأوقافه من الشام، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه إلا الأذان والصلاة وإقامة الخطبة في الجمع والأعياد[1].

الجامع الخضيري ببولاق:

موضعه بناحية بولاق خارج القاهرة، كان موضعه قديماً مغموراً بماء النيل حتى سنة (700هـ/1300م)، حيث انحسر ماء النيل وصار هذا المكان متنزهاً يجتمع عنده الناس، بعد ذلك بنيت هناك دار لشخص يدعى الحاج محمد بن عز الفراش، كانت تشرف على النيل، بعد وفاته أخذها شخصٌ يقال له تاج الدين بن الأزرق وسكنها فعرفت بأنها دار فسق لكثرة ما يجري فيها من أنواع المحرمات، فتم القبض عليه وبيعت داره، حيث اشتراها الأمير عز الدين أيدمر الخضيري، فهدمها وبنى مكانها هذا الجامع وسماه جامع التوبة، كان من أجَل جوامع مصر، كما عمل

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص310.

به خزانة كتب جليلة نفيسة، ورتب فيه درساً للفقهاء الشافعية، ووقف عليه عدة أوقاف، منها داره في الدرب الأصفر وتمت عمارته سنة (737هـ/1336م)، ضار هذا الجامع مجمعاً يقصده الناس ويرغبون في السكنى بقربه، وبلغت الأماكن التي بجواره من الأسواق والدور الغاية في العمارة، في سنة (806هـ/1403م) انحسر ماء النيل وصار رمله لا يعلوها الماء مما أدى إلى تكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع، وبقى هذا الجامع على حاله[1].

الجامع المؤيدي:

يقع الجامع بجوار باب زويلة من داخله كان موضعه* خزانة شمائل**، وقيسارية***سنقر الأشقر، أنشأه السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي الظاهري

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص312.

* موضعه: سبب اختيار هذا الموضع دون غيره أن السلطان حبس في خزانة شمائل أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية فقاسى في تلك الليلة من البراغيث والبق فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجداً لله عز وجل ومدرسة لأهل العلم فاختار هذه البقعة وفاءً لنذره، المصدر نفسه، ج2، ص328/ العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص56.

** خزانة شمائل: سجن نسب إلى الأمير علم الدين شمائل والي القاهرة في أيام الكامل بن العادل بن أيوب، كان من أشنع السجون وأقبحها، يحبس فيه من وجب عليه القتل، ومن يريد السلطان هلاكه، دهمان، المرجع السابق، ص68.

*** قياسرية أق سنقر: تعرف بعطفه السكرية التي يوجد في بدايتها سبيل الست نفيسة زوجة مراد بك المدفون بجامع الشيخ العارف بسوهاج، السخاوي الحنفي: أبي الحسن نور الدين علي بن أحمد، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، صححه لفيف من العلماء، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1986م، ص80.

هذا الجامع من أحسن جوامع مصر وأفخمها فهو بأنه يمتاز بضخامة بنيانه[1]، ابتدأ بنائه في الرابع عشر من ربيع الأول سنة (818هـ/1415م)، حيث أمر السلطان بانتقال سكان قيسارية الأمير سنقر الأشقر التي كانت تجاه قيسارية الفاضل وزير مصر وقاضيها، وهدمت الدور الموجودة بها وخزانة شمائل[2].

ابتدأ في بنائه سنة (819هـ/1416م)، جلبت له أعمدة الرخام وأخذ باب الجامع من مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون[3].

يُذكر أن الملك المؤيد أوقف هذا الجامع لله تعالى وأوقف عليه أوقافاً جليلة بأرض مصر والشام، في سنة (822هـ/1419م) قرر فيه درساً للشافعية على يد الشيخ شهاب الدين ابن حجر الشافعي، ودرساً للمالكية على يد الشيخ نجم الدين يحي بن أحمد البجائي المغربي المالكي، ودرساً للحنابلة على يد الشيخ عز الدين عبد السلام البغدادي الحنبلي، كما جعل فيه درساً للحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم[4].

في نفس السنة نزل السلطان إلى الجامع وهيئ السماط* العظيم، واستعرض الفقهاء وقرر من أختاره في الدروس، كما جعل قاضي القضاة شمس الدين محمد بن سعد الدين الحنفي على مشيخة التصوف وتدريس الحنفية[5].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص312.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص80.

(3) المصدر نفسه، ج2، 329/ العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص56/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص272.

(4) السخاوي الحنفي، المصدر السابق، ص82.

* السماط: ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين ويطلق أحياناً على المائدة السلطانية، انظر دهمان، المرجع السابق، ص92.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، 330.

هذا الجامع من أحسن جوامع مصر وأفخمها فهو بأنه يمتاز بضخامة بنيانه[1]، ابتدأ بنائه في الرابع عشر من ربيع الأول سنة (818هـ/1415م)، حيث أمر السلطان بانتقال سكان قيسارية الأمير سنقر الأشقر التي كانت تجاه قيسارية الفاضل وزير مصر وقاضيها، وهدمت الدور الموجودة بها وخزانة شمائل[2].

ابتدأ في بنائه سنة (819هـ/1416م)، جلبت له أعمدة الرخام وأخذ باب الجامع من مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون[3].

يُذكر أن الملك المؤيد أوقف هذا الجامع لله تعالى وأوقف عليه أوقافاً جليلة بأرض مصر والشام، في سنة (822هـ/1419م) قرر فيه درساً للشافعية على يد الشيخ شهاب الدين ابن حجر الشافعي، ودرساً للمالكية على يد الشيخ نجم الدين يحي بن أحمد البجائي المغربي المالكي، ودرساً للحنابلة على يد الشيخ عز الدين عبد السلام البغدادي الحنبلي، كما جعل فيه درساً للحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم[4].

في نفس السنة نزل السلطان إلى الجامع وهيئ السماط* العظيم، واستعرض الفقهاء وقرر من أختاره في الدروس، كما جعل قاضي القضاة شمس الدين محمد بن سعد الدين الحنفي على مشيخة التصوف وتدريس الحنفية[5].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص312.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص80.

(3) المصدر نفسه، ج2، 329/ العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص56/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص272.

(4) السخاوي الحنفي، المصدر السابق، ص82.

* السماط: ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين ويطلق أحياناً على المائدة السلطانية، انظر دهمان، المرجع السابق، ص92.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، 330.

كان بهذا الجامع خزانه كتب عظيمة حيث يقول في ذلك المقريزي[1] "...ثم نزل السلطان إلى هذه العمارة ودخل خزانة الكتب التي عملت هناك وقد حمل إليها كتباً كثيرة في أنواع العلوم المختلفة، وقدم له ناصر الدين محمد البارزي خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار فأقر ذلك بالخزانة، و أنعم على البارزي بأن يكون خطيباً وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته".

الجدير بالذكر أن هذا الجامع ورد ذكره عند العسقلاني[2] في (كتابه إنباء الغمر بأبناء العمر)، والسيوطي[3] في (كتابه حسن المحاضرة)على أنه مدرسة، وكما لاحظنا أن هذا الجامع يقوم بمقام المدرسة من ناحية تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، والقرآن الكريم والحديث والتفسير ودور ذلك في إثراء الحركة العلمية في ذلك الوقت لذلك ليس من الغريب أن تذكره بعض المصادر على أنه مدرسة.

من خلال ما تقدم ذكره يمكن معرفة الأشياء المشتركة بين هذه الجوامع من ناحية أهمية إنشائها والدور الذي لعبته في خدمة التعليم، نلاحظ أن الفن المعماري والهندسي بلغ أوجه في تشييد هذه الجوامع من خلال استخدام أجود أنواع الرخام وأحسن أصناف الأخشاب والأعمال الهندسية الجميلة التي تجسدت في القباب والأعمدة وأروقة وأبواب ومنابر وغير ذلك.

كذلك الاهتمام الكبير بترميم هذه الجوامع وتجديدها بل إن بعضها هدم وجدد أكثر من مرة، إضافة إلى أن أصحاب هذه الجوامع سواء من السلاطين أو أمراء أو غيرهم اجتهدوا في بناء الأربطة والخانقاوات والزوايا، كما اشتملت بعض الجوامع

---

(1) الخطط، ج2، ص329.

(2) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص194.

(3) حسن المحاضرة، ج2، ص282.

على قاعات رتب فيها درساً للفقهاء ولقراء القرآن الكريم، وضمت بعض هذه الجوامع مكاتب لإقراء وتعليم أيتام وفقراء المسلمين القرآن الكريم.

بلغ اهتمام أصحاب هذه الجوامع أنهم كانوا يشرفون على عمارتها بأنفسهم كما هو الحال في جامع أق سنقر الناصري[1] حيث كان يشيل التراب مع الفعلة ويشرف بنفسه على البناء، كما اعتنى أصحابها عناية فائقة باختيار من يقوم بالتدريس في تلك الجوامع فهي المكان المعد لاستقبال مختلف الطبقات لأداء الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة والاستماع إلى الخطب والدروس الدينية التهذيبية، ويسجل القلقشندي[2] نسخة توقيع للقاضي عز الدين بن جماعة* ليتولى التدريس عوضاً عن والده القاضي بدر الدين في الجامع العتيق بمصر سنة (730هـ/1330م) ويذكر التوقيع " أن القاضي عز الدين ابن جماعة اختير لهذا المنصب لما يتصف به من صفات نبيلة ومنزلة رفيعة بين العلماء وبناءً على توصية والده بدر الدين، ثم يوصي السلطان القاضي بالعمل بتقوى الله، وأن يجتهد في إفادة الطلبة وتعليمهم"، إلى جانب ذلك كان يتم تعيين عدد من أرباب الوظائف في كل جامع للقيام على خدمته[3]، وخير مثال على ذلك الجامع الحاكم وما كان به من وظائف ودروس كما أسلفنا ذكره.

لم يكن الاهتمام ببناء الجوامع فقط وإنما كان الاهتمام كذلك بتعيين من يهتم بها

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص310.

(2) المصدر السابق، ج11، ص227-229.

* عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، قاضي المسلمين درس وتمرن مع عدد كبير من العلماء والشيوخ خلال سلطنة المماليك، كان محباً للعلم وأهله، شديد التصميم في الأمور التي يتولاها،عندما تولى القضاء عمل على عزل كل نائب وصل إلى منصبه بالمال، ولاه السلطان الناصر محمد قضاء الشام إلى أن عزل نفسه، توفي سنة(767هـ/1365م)، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص489-490.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص309.

وهي وظيفة (النظر) في هذه الجوامع وتعد هذه الوظيفة هامة لأنها مرتبطة باستمرار هذه الجوامع في تأدية رسالتها في خدمة مختلف طبقات الشعب وكانت توكل هذه الوظيفة في العادة إما لأولاد الواقف أو لأحد كبار القضاة[1]، ويحفظ لنا القلقشندي توقيع بنظر الجامع الناصري بقلعة الجبل كتب للقاضي جلال الدين القزويني وهو يومئذ قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية إذ تبين لنا الوثيقة أهمية وظيفة النظر حيث صدر هذا التوقيع بأمر من السلطان نفسه، كما يذل على أن تعيين الناظر تم بأمر سلطاني صادر من السلطان نفسه، كما يدل على مدى حساسية وأهمية هذه الوظيفة وحساسيتها، وتتناول الوثيقة أهمية تعيين ناظر الجامع حتى يتمكن للجامع تأدية الوظائف المطلوبة منه على خير وجه، ووظيفة الناظر هي الإشراف الكامل على كافة أجزاء الجامع وما يتصل به وملاحظة مختلف نشاطاته، وهذا يستلزم الاختيار الحسن للناظر الذي يتولى هذه المهمة ويستطيع مباشرة أمور الجامع ويعينه على ذلك تمسكه بدينه، وتمكنه من علمه و أمانته وقد تناولت الوثيقة أهم أسباب اختيار القاضي القزويني لوظيفة النظر للإشراف على سير الأحوال في الجامع[2].

كما كان يتم الاحتفال بافتتاح الجامع بعد الانتهاء من عمارته احتفالاً كبيراً ويعد ذلك من المناسبات الرسمية التي تستدعي حضور السلطان خاصة إذا كان هذا الجامع أقيم بأمر منه أو باسمه كما حدث حين" انتهت عمارة الجامع الجديد الناصري بساحل مصر، فنزل السلطان إليه، ورتب فيه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي خطيباً، ورتب فيه أربعين صوفياً بداخله وأربعين صوفيا

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص309/ القلقشندي، المصدر السابق، ج11، ص262.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج11، ص264.

في سطحه، ورتب لكل منهم الخبز واللحم في اليوم، ومبلغ خمسة عشر درهماً في الشهر..." [1].

بالتالي نستطيع أن نتبين أن مصر في عصر سلاطين المماليك شهدت نشاطاً دينياً تعليمياً ثقافياً واسعاً استلزم بناءه العدد الكبير من المساجد والجوامع التي لم يكن أغلبها أماكن عبادة فحسب بل كانت مراكز تعليمية ومجالس لاجتماع مختلف الطبقات من العامة والعلماء والقضاة والفقهاء، فغدت هذه المساجد مراكز مهمة في بناء صرح الحياة الدينية والتعليمية في مصر وتفرعت خدماتها وتنوعت وظائفها، فغدت مؤسسات للعلم والدرس وبيوت للعون والمعونة، وضمت أعداداً كبيرة من الطلبة والفقهاء.

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ص480.

(2) الخوانق:

يعرفها المقريزي[1] باسم الخوانك وهي جمع خانقاه هي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خانقاه بمعنى الموضع الذي يأكل فيه الملك، كذلك المكان الذي ينقطع فيه الصوفية للعبادة والتصوف، وهي حديثة في الإسلام حيث ظهرت في حدود الأربعمائة الهجرية و أول من أحدثها في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي، دخلت هذه الكلمة العربية منذ انتشار التصوف فهي كالدير في النصرانية[2].

أنشئت الخانقاوات أول أمرها لكي تكون ملاجئ ومنازل للفقراء والمحتاجين والغرباء ثم أصبح بعضها دُوراً تعليمية تُلقى فيها دروس العلم على اختلاف موادها، وقد تميزت الخوانق عن الأربطة والزوايا باتساعها وبكثرة من أوى إليها من غرباء الصوفية وفقرائهم وبعضهم كان على علم وبصيرة وفقه بالدين وما يتصل به، فيكون وجوده مؤذنا بنشر العلم وبث أحكام الشريعة، وفي أحيان كثيرة كان نظر الخوانق يسند إلى أحد علماء الدين الفضلاء منهم تاج الدين ابن بنت الأعز الذي تولى نظر خانقاه سعيد السعداء[3]، والشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود القصر الذي تولى مشيخة خانقاه سرياقوس[4]، فهؤلاء العلماء من المؤكد أن وجودهم كان له الدور الكبير في التعليم ونواة لدروس العلم، وبعض هذه الخوانق رتبت فيها دروس كالتي بالمساجد والمدارس، غير أن الخوانق كانت منقطعاً ينقطع فيه هؤلاء اللاجئون للعبادة والتأمل والتهذيب الروحي، ولعل ذلك هو أهم الفوارق بين الخوانق والمدارس، ولا يمنع هذا الوضع أن يخرج من هذه الخوانق علماء أجلاء يجمعون

---

(1) الخطط، ج2، ص414.

(2) دهمان، المرجع السابق، ص66.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، 415.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص422.

بين التصوف العملي والعلمي، ويكونوا ذوي خبرة وبصيرة بأحكام الشريعة بل وبغيرها، لذلك نجد السلاطين والأمراء أو غيرهم يفيضون على هؤلاء العلماء المنقطعين فيها بضروب من البر و الإحسان والمعونة، من خلال ما أوقف عليهم من أوقاف منها أراضي ودور أو نحو ذلك، ويقدمون إليهم الطعام والشراب والكساء، فكانت حياتهم داخل خوانقهم أحفل من حياة الفقراء في خارجها وأقرب إلى التمتع والترف، ويعتقد بعض صوفيتها أن الأموال الموقوفة عليها حق خالص لهم لا ينبغي المساس به، وإن كانت حقوقاً لم ينص عليها شرط الواقف بل هي حقوقاً مكتسبة[1]، ومن خلال هذا البحث نتناول بالدراسة لأهم هذه الخوانق في العهد المملوكي وأهميتها ودورها التعليمي والديني وهي كالأتي:

خانقاه سعيد السعداء*:

هي أول خانقاه بنيت بديار مصر في سنة (569هـ/1173م) أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي وجعلها وقفاً على فقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، وجعل عليها أوقافاً واسعة للإنفاق، واشترط أن من يتوفى فيها من الصوفية وترك عشرين ديناراً فإنها للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، كما جعل لكل من أراد السفر من الصوفية كل ما يحتاجه، ورتب لساكنيها الطعام والخبز يومياً[2].

---

(1) حجي، المرجع السابق، ص160.

* سعيد السعداء: هو أحد الأساتذة المحنكين الذين كانوا يخدمون في القصر العيني لدى الفاطميين و اسمه الأستاذ قنبر أو عنبر، كانت داره بخط باب العيد بالقاهرة لقب سعيد السعداء، قتل سنة (544هـ/1149م) ورمي رأسه من القصر وصلبت جثته بباب زويلة، للمزيد ينظر المقريزي، الخطط، ج2، ص415/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص415.

ولي مشيختها الأكابر ونعث شيخها بشيخ الشيوخ* وكان المقيمين بها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم وقد تولى مشيختها الأكابر والأعيان منهم أولاد شيخ الشيوخ بن حموية الجويني وأولاده كمال الدين أحمد ومعين الدين حسن، كما تولاها قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وغيرهم الكثير[1].

استمرت العناية بها في العصر المملوكي وبلغ عدد نزلائها حوالي ثلاثمائة صوفي لهم في كل يوم الخبز واللحم وفي كل شهر صابون وحلوى وفي كل سنة كسوة بأربعين درهماً لكل منهم[2]، وفي سنة (790هـ/1388م) تولى نظرها الأمير يلبغا السالمي**، الذي أخرج كتاب الوقف وأراد العمل بما فيه من شرط الواقف فقطع منه العشرات من الصوفية المنزلين بها ممن اشتهروا بالمال والمناصب، وزاد الفقراء المجردين المقيمين بها في كل يوم رغيفاً من الخبر فصار لكل منهم أربعة أرغفة، ورتب بالخانقاه وظيفة ذكر بعد صلاة العشاء، وبعد صلاة الظهر[3]، وهكذا كانت هذه الخانقاه من دور العلم في ذلك العصر.

---

* لم يطلق اسم شيخ الشيوخ إلا على شيخ هذه الخانقاه، استمر حتى بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس فدُعي شيخها بشيخ الشيوخ واستمر ذلك بعدهم حتى كانت الحوادث والمحن سنة (806هـ/1403م) وضاعت الأحوال، وتلاشت الرتب وتلقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ ، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص260.

(2)المقريزي، الخطط، ج2، ص 416.

** تولاها هذا الأمير بأمر من السلطان برقوق فقد جرت العادة أن يتولى نظر الخانقاه أحد مشايخها لكن تولاها في تلك السنة شخص يعرف بالشيخ محمد البلالي فقطع بعض العطية التي كانت تعطى لفقراء الصوفية للحد الذي قام فيه بغلق مطبخ الخانقاه فكثرت الشكوى للسلطان برقوق فولى الأمير يلبغا عليه، المصدر نفسه، ج2، ص416.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص416.

الخانقاه البيبرسية:

بناها ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصور قبل أن يلي سلطنة مصر سنة (706هـ/1306م)، وهي تعد من أجل الخانقاوات بالقاهرة من ناحية البناء والأهمية، أنشأها بموضع دار الوزراء تجاه رحبة العيد، أنشأ بجانبها رباطاً كبيراً يمكن الوصول إليه من داخلها[1]، ويُذكر أن قياس أرض الخانقاه والرباط والقبة نحو فدان* وثلث[2]، كمل بنائها سنة (709هـ/1309م) استغرق بنائها ثلاث سنوات وقد قرر فيها أربعمائة صوفي، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس** الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرق لكل منهم في كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر وجعل لهم الحلوى".

كما رتب بالغرفة درساً للحديث النبوي له مدرس وعنده عدد من المحدثين، القراء بالشباك الكبير*** يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهاراً ووقف عليها عدة ضياع

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

* الفدان: المحراث وكذلك النير على عنق الثورين للحرث، وهو مقدار من الأراضي الزراعية تختلف مساحتها في البلدان العربية ومساحتها في مصر 4200م^2، المعجم الوسيط، ص677.

** أبناء الناس: هم فرقة الجيش المملوكي تسمى بأولاد الناس وقد شملت هذه الفرقة أبناء أمراء المماليك فقط المملوكين بدون عبودية أي أن أبوهم كان مملوكاً وأصبح حراً فهم أحرار ولهم تربية وأدب، انظر دهمان، المرجع السابق، ص26.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص416.

*** الشباك الكبير: هو الذي كان بدار الخلافة ببغداد وكانت الخلفاء تجلس فيه، ولكن الأمير أبو الحارث البساسيري حمله من بغداد لما غلب على الخليفة القائم العباسي وأرسل به إلى صاحب مصر فجعل في دار الوزراء واستمر فيها إلى أن عمر الأمير بيبرس الجاشنكير الخانقاه البيبرسية فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه، انظر المقريزي، ج2، ص417/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص265.

بدمشق وحماه والجيزة من أرض مصر وبالصعيد والوجه البحري والريع و القيسارية بالقاهرة[1].

عندما خلع بيبرس الجاشنكير من السلطنة تولاها الناصر محمد بن قلاوون فأغلق هذه الخانقاه فلبثت نحو عشرين عاماً معطلة ثم أمر بفتحها في أول سنة (726هـ/1325م) ففتحت وأعاد إليها ما كان موقوفاً عليها واستمرت حتى تولى السلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة (776هـ/ 1374م)، فعانت كثير من الاضطراب وضعف أمرها، وقد كان لهذه الخانقاه مهابة في نفوس الناس حيث كان لا يسمح بدخولها إلا لأهلها من الفقهاء وأهل الخير[2].

خانقاه سرياقوس:

أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خارج القاهرة من شماليها نحو بريد منها بأول بني إسرائيل بسماسم سرياقوس* بدأ بإنشائها سنة (723هـ/ 1323م) وأكمل بنائها سنة (725هـ/ 1324م)، جعل بها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى بجانبها مسجداً، وبنى بها حماماً ومطبخاً، وعندما اكتمل بناها خرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق ومدت هناك الأسمطة العظيمة، وقرر السلطان لمشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصر ولقبه بشيخ الشيوخ، وجعل لكل صوفي في اليوم اللحم المطبوخ والخبز النقي،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص417.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص417.

* سبب اختيار هذا الموضع أن السلطان عندما كان كعادته ذاهبا للصيد أصابه ألم عظيم في جوفه وهو في تلك المنطقة هذا الألم كاد يأتي عليه وهو يتجلد ويتكتم حتى نزل عن فرسه والألم يتزايد فنذر إن عافاه الله ليبتنين في هذا الموضع بيتاً يعبد فيه الله تعالى فخف عليه ما يجده فعاد إلى قلعة الجبل وبعد شفائه رجع ومعه المهندسين وأختط هذه الخانقاه، انظر المقريزي، ج2، ص422.

ويصرف لهم في كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة عنها ديناران وكذلك الحلوى والزيت والصابون ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة وفي شهر رمضان والعيدين، وكان بها خزانه يوضع فيها السكر والأشربه والأدوية، وكان بالخانقاه الطبائعي* والجرائحي** والكحال***ومصلح الشعر، ويصرف لمن بها للذهاب للحمام فكان المنقطع لا يحتاج إلى شيء غيرها ويتفرغ للعبادة، وفي سنة (779هـ/ 1377م) استجد بها حماماً للنساء، ظلت الخانقاه على هذا الحال حتى سنة (806هـ/1403م) حيث بطل طعامها وصار يصرف لصوفيتها مبلغاً من نقد مصر وظلت على ذلك الأمر[1].

خانقاه بكتمر:

أنشأه الأمير بكتمر الساقي (726هـ/ 1325م) بطرف القرافة في سفح الجبل، وكانت من أجل الخانقاوات في مصر، جعل عليها الشيخ شمس الدين الرومي وجعل معه عشرين صوفياً وجعل له في الشهر مائة درهم وعن معلوم الإقامة خمسين درهماً، وجعل لكل واحد من هؤلاء الصوفية ثلاثين درهماً، كما جعل فيها قراء وقرر لهم الطعام والخبز وفي كل يوم درهم والحلوى والزيت والصابون في كل

---

* الطبائعي: هو طبيب الأمراض الباطنية، انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص346.

** الجرائحي: هو طبيب الجراحة فقد عرف قديما بأدواته وهي المبضع والمراهم والموس، انظر ابن الجوزية: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الزرعي، زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1998م، ج4، ص130.

*** الكحال: كذلك يصفه ابن الجوزي بقوله بمروده أي الكحال ويقصد به طبيب العيون، المصدر نفسه، ج4، ص130.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص422-423.

شهر، ولكن هذه الخانقاه خربت سنة (806هـ/ 1403) بسبب الأوضاع الاقتصادية التي عانت منها البلاد شأنها في ذلك شأن الكثير من المراكز الأخرى[1].

الخانقاه العلائية*:

أنشأها الأمير علاء الدين مغلضاي الجمالي الناصري أستاذ الدار العالية، أنشأه قبالة داره برأس درب ملوخيا بالقاهرة، كملت عمارته سنة (730هـ/ 1329م)، رتب لمشيختها والتدريس بها القاضي علاء الدين علي بن القاضي فخر الدين عثمان الماريديني الحنفي**، اشترط أن يجلس أول النهار لإلقاء درس على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويجلس بعد العصر هو وجماعة الصوفية، رتب له في كل شهر ستين درهماً وثمن الخبز واللحم أربعين درهماً ورتب معه عشرين من الصوفية، ولكل واحد منهم في كل شهر واحداً وعشرين درهماً من ذلك جامكية***سبعة دراهم ونصف، والخبز والطعام، كما رتب الواقف من فائض الوقف أحد عشر طالباً لحضور الدرس خاصة، وجعل للمنهي منهم في كل شهر عشرة دراهم، وللمبتدئ

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص424.

* الخانقاه العلائية: وردت عند المقريزي على أنها المدرسة الجمالية، ويذكر أن صاحبها جعلها خانقاه للصوفية، انظر الخطط، ج2، ص392/بينما وردت عند النويري بأنها خانقاه والنويري أقدم من المقريزي كذلك تنطبق عليها أوصاف الخانقاه فذكرناها مع الخانقاوات ولا يكاد يكون هناك اختلاف بينهما

**هو عثمان بن مصطفى الماريديني الأصل تفقه وأفتى ودرس وله مصنفات ، توفي سنة (750هـ/1349م) من أهم مؤلفاته الجوهر النقي وتخريج الأحاديث، انظر العسقلاني، الذرر الكامنة، ج3، ص84.

** الجامكية: بالفارسية بمعنى اللباس وفي الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة، أحياناً تأتي بمعنى اللباس وأحياناً بمعنى الراتب الشهري وفقاً لسياق الكلام، انظر النويري، المصدر السابق، ج32، ص7.

ثلاثة دراهم، كما رتب أموالاً للفقراء، وجعل بها عشرة قراء يقرؤون القرآن لكل منهم عشرة دراهم بالشهر، ورتب بها قارئاً للصوفية ومؤذنا وشخصاً يتولى المزولة*، وبواباً وجعل لكل هؤلاء مرتبات شهرية، كما جعل مكتب سبيل فيه عشرون نفراً من الأيتام رتب لكل منهم في كل يوم ثُمْنَ درهم أي حوالي ثلاثة دراهم ونصف في الشهر، وجعل لهم كسوة في الصيف والشتاء وثَمن الأدوية والمداد وغير ذلك مما يحتاجه الخناق والموجودين به، فكانت هذه الخانقاه من الدور التعليمية والمراكز الدينية الجليلة[1].

خانقاه شيخو:

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة (756هـ/1355م) في حي الصليبية اتجاه جامعه، وكان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون، فرغ من عمارتها سنة (757هـ/ 1356م)، رتب فيها دروساً عدة منها دروس في المذاهب الأربعة ودروس في الحديث وأخرى في القراءات بالروايات السبع، وجعل لكل درس من هذه الدروس مدرساً وعنده عدد من الطلبة مقيداً بالحضور والاستماع إليه، وجعل على مشيختها الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي** إذ اشترط عليه شيخو حضور التصوف وتدريس الحنفية بالديار المصرية وأن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً وهذا الشرط عام لجميع أرباب الوظائف، وجعل له النظر

---

* المزولة: هي الساعة الشمسية التي يعين بها الوقت بظل الشاخص الذي يثبت عليها وجمعها مزاول، النويري، المصدر السابق، ج32، ص7.

(1) المصدر نفسه، ج32، ص231.

** البابرتي: من أعلام الفقه الحنفي في مصر برع في الشرح والتأليف في المذهب من مؤلفاته مختصر ابن الحاجب، توفي سنة (786هـ/ 1384م)، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص250.

في أعمال الخانقاه، ورتب لكل من الطلبة كل ما يحتاجونه من الطعام واللحم والخبز في اليوم وكذلك في الشهر الحلوى والزيت والصابون، وأوقف عليها أوقافاً جليلة فعظم قدرها وأشتهر في الأقطار ذكرها وتخرج منها كثير من أهل العلم[1].

فالمقريزي يقول[2] أن حالها استمر في أحسن ما هو عليه حتى تولى السلطنة الملك الناصر فرج الذي بدأ في أخذ أموالها فتناقصت أحوالها حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدة أشهر.

كما ذكر السيوطي[3] عدداً من أفاضل العلماء الذين تولوا مشيخة هذه الخانقاه بعد وفاة البابرتي عام (786هـ/ 1384م) منهم عز الدين يوسف بن محمود الرازي وجمال الدين محمود المعروف بابن العجمي وسيف الدين السيرامي وغيرهم.

من خلال ما تقدم يمكن القول أن الخانقاوات أسهمت في إثراء الحياة العلمية والثقافية في العهد المملوكي ولعلنا تناولنا أهم الخانقاوات في ذلك الوقت مع العلم أن هناك العديد من الخانقاوات الأخرى التي قد لا تكون على نفس الأهمية والشهرة، ولكن من المؤكد أنه كان لها دور وأهمية حتى ولو كانت بسيطة، والحقيقة أنه في العصر المملوكي وصلت الخانقاوات أعلى درجات الارتقاء في التنظيم وأساليب الدرس ونخبة العلماء المشرفين على حلقات الدراسة والوعظ والتفسير من ذلك على سبيل المثال لا الحصر خانقاه سرياقوس، كذلك الخانقاه العلائية كما تقدم ذكره.

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص421/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص266/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص62.

(2) الخطط، ج2، ص421

(3) حسن المحاضرة، ج2، ص266.

بلغ الاهتمام بالخانقاوات بأن كان هناك تركيز في اختيار من يتولى مشيخة* هذه الخانقاوات، فهذا الأمر يعد من الأمور الدقيقة التي تتطلب اهتماما كبيراً إذ لابد أن تتوفر في الشيخ شروط ومواصفات ينفرد بها دون غيره من الشخصيات وهذه الصفات تكون معيناً له في خلق حياة منظمة داخل الخانقاه، والاستمرار في القيام بمسؤوليتها الدينية والتعليمية على خير وجه[1].

كما تم الاهتمام بالخوانق من ناحية تنظيم عملية توزيع الغداء اليومي والمصروف الشهري، ولعل من أمثلة ذلك ما تقدم ذكره عن خانقاه الأمير بكتمر الساقي وما رتب فيه للمشايخ من أموال وللصوفية وكذلك الطعام والشراب، كما كان تدريس الطلبة وتعليمهم أحد الأهداف الرئيسية لبعض الخانقاوات من ذلك خانقاه شيخو[2] التي أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة (756هـ/1355م) ورتب فيها دروساً عدة كما تقدم ذكره، وعلى ذلك يمكن القول إن الخانقاه كانت تؤدي أيضاً وظيفة المدرسة لتعليم وتخريج الطلاب إضافة إلى وجود مكاتب ببعضها لتعليم أيتام المسلمين من الأطفال كتاب الله تعالى وتعليمهم الخط ولهم في كل يوم الخبز والطعام كما هو الحال في الخانقاه العلائية التي أنشأها الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي الناصري إذ جعل به مكتب يدرس فيه قرابة العشرين نفراً من الأيتام ورتب لهم مصروفاً شهرياً يقدر بحوالي ثلاثة دراهم ونصف في الشهر إضافة للكسوة في الصيف والشتاء[3].

*** شيخ الخانقاه: يجب عليه تحمل الأذى والضيم على نفسه وتعليم المريدين وعدم التلفظ بألفاظ غريبة كالتجلي والمشاهدة ورفع الحجاب وغير ذلك، للمزيد أنظر السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم، ص124.**

(1) الحجي، المرجع السابق، ص161.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص424-421/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص266.

(3) النويري، المصدر السابق، ج32، ص231.

(3) **الزوايا**:

- **الزوايا**: مفردها زاوية، وهي كلمة عربية تعني الركن من الدار أو المكان عامة، ثم أصبحت تطلق على المكان الذي يبنى لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد، وكان غرض منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب[1].

- أيضاً هي كلمة تطلق على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح والعبادة، يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه ولا يوجد فيه منبر أو مئذنة، ولكن قد يوجد فيه محراب[2].

لقد ارتبطت الزوايا في العادة باسم شخصيات دينية معروفة بالفضيلة ومشهورة بالفقه ولهم أتباع ومريدون ومعارف كذلك لهم حضوه لدى السلاطين والأمراء، إذاً كانت الزاوية تعد مركزاً للتصوف وسماع القرآن الكريم والحديث، واقتصرت خدمات بعض الزوايا على حسب وصية الواقف وعادة كانت مقتصرة على إعانة أصحاب الحاجة والمعوزين وتعد الزوايا صغيرة مقارنة بالخوانق ومن أبرزها:-

زاوية الشيخ خضر:

أنشأها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل تشرف على الخليج الكبير، عرفت باسم الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوى، سبب إنشائها أن هذا الشيخ أخبر الأمير سيف الدين قشتمر العجمي أنه لابد أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقداري فأخبر الأمير قشتمر بيبرس بذلك، فلما صارت له السلطنة قربه إليه وبنى له هذه الزاوية، إضافة إلى زوايا

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص182.

(2) دهمان، المرجع السابق، ص85.

أخرى، وأوقف عليها أراضي تغل في السنة نحو ثلاثين ألف درهم، وصار يستشيره في أموره ويصطحبه معه في أسفاره، حتى أطلق يده في المملكة، ظل على هذا الحال حتى سنة (671هـ/1272م) حيث قبض عليه واعتقل بقلعة الجبل وذلك لإعطائه بعض التحف التي تحصل عليها من السلطان لبعض المردان* فبلغ السلطان ذلك فحبسه حتى توفي سنة (676هـ/1277م) وظلت زاويته قائمة من بعده باسمه(1).

زاوية الطراطرية:

بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون بوساطة القاضي شرف الدين النشو برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية في سنة (740هـ/1339م) وكانا من أهل الخير والصلاح(2).

كما كان هناك زوايا أخرى منها زاوية تقي الدين التي بقلعة الجبل أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (270هـ/1320م) لسكنى الشيخ تقي الدين رجب العجمي، وظلت منزلاً لفقراء العجم، كذلك زاوية نصر أنشأها الشيخ نصر بن سليمان المنجى، وكان متخلياً للعبادة يرد إليه أكابر الناس وأعيان الدولة، وغيرها من الزوايا(3).

---

* المردان جمع مفرده أمرد يقال (مرد) والأمرد : الشاب الذي بلغ خروج لحيته ، وطر شاربه ، ولم تبد لحيته، ومرد مرداً ومرودة وتمرد بقي زماناً ثم التحى بعد ذلك فهو يشبه النساء، ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص75.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص431.

(2) المصدر نفسه، الخطط، ج2، ص432.

(3) المصدر نفسه، الخطط، ج2، ص432-433-434.

الجدير بالذكر أن الزوايا كانت أماكن للوعظ، إذ يجتمع فيها الناس مع الشيوخ ويذكرونهم ويروون لهم الحديث ويشاركون أحياناً في بعض العلوم، بالتالي يمكن القول أن كل شيخ من هؤلاء كان يمثل مع طلابه ومريديه مدرسة أخلاقية قائمة بذاتها متسمة بأفكار خاصة وتيارات دينية متنوعة وكان من هؤلاء الشيوخ من علم بالأزهر وعرف بعلمه وتقواه كالشيخ نصر بن سليمان المنجى شيخ زاوية نصر كما تقدم ذكره.

من جانب أخر يذكر السُّبكي[1] "...أنه كان من واجب شيخ الزاوية تهيئة الطعام للواردين والمتجاورين ومؤانستهم إذا قدموا بحيث تزول خجلة الغربة عنهم ولا بأس بإفراد مكان للوارد لئلا يستحي وقت أكله وراحته..."، كما كانت الزوايا أحياناً مكاناً يدفن فيه أصحابها حسب وصيتهم.

بالتالي يمكن القول أن الزوايا كانت تؤدي منافع تعليمية واجتماعية لطلاب العلم والفقراء، إلى جانب أنها كانت مركزاً للمتصوفة لمن يرغب في الانقطاع عن المجتمع و الانصراف كلية للعبادة والزهد، وكان الزهاد غالباً في الزوايا يرفضون المساعدات المالية التي كانت تقدم لهم من بعض الأمراء المماليك ويفضلون في المقابل العيش بالقليل مما يرد إليهم من ريع الوقف[2].

---

(1) معيد النعم ومبيد النقم، ص126.

(2) الحجي، المرجع السابق، ص 163.

(4) الأربطـة:

- مفردها رباط وهي كلمة عربية الأصل تعني مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو، ثم أصبحت مكاناً لإيواء الزهاد المنقطعين للعبادة والعلم، وأصله من يربط كل واحد من الفريقين خيله(1).

لقد كان للأربطة دوراً كبيراً في خدمة أغراض التصوف و الانقطاع للعبادة والتعليم، كما كان معروف أن الرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم حيث يتم الصرف عليهم من ريع أوقافه(2)، ومن أبرز هذه الأربطة:

رباط الآثار:

أنشأه الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب، وهو خارج القاهرة بالقرب من بركة الحبش مطل على النيل، عرف برباط الآثار وذلك لوجود قطعتين من الخشب والحديد يقال إنهما من أثار مسجد رسول الله ﷺ، اشتراهما الصاحب تاج الدين بمبلغ ستين ألف درهم فضة، ويذكر المقريزي(3) "..أن ابن الصاحب تاج الدين هو من أكمل بنائه، وأصبح الناس يترددون عليه ويتباركون به، في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، قرر فيه درساً لفقهاء الشافعية، وجعل له مدرساً وعدة طلبة تصرف لهم مرتبات في كل شهر من وقفه عليهم، ثم أوقف السلطان الظاهر برقوق قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بهذا الرباط، ويحتوي رباط الآثار على خزانة كتب قيمة ".

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص182/المقريزي، الخطط، ج2، ص427.
(2) الحجي، المرجع السابق، ص164.
(3) الخطط، ج2، ص429.

رباط الأفرم:

أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم سنة (663هـ/1264م)، رتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً، كما جعل فيه منبراً يخطب عليه للجمعة والعيدين، وقرر لهم معاليم الأوقاف التي رصدها لهم[1].

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الرباط هو بيت للصوفية وهو مأوى ومدرسة لهم، إلى جانب ما يؤديه الرباط من مسؤولية الجامع الذي يرتاده المسلمون لتأدية صلاة الجمعة والعيدين، وقد ساعدت الأوقاف الجارية هذه المراكز الدينية للاستمرار في تأدية رسالتها، وكان حرص أصحاب الأربطة على استمراريتها في تحقيق الأهداف الدينية والتعليمية سبباً رئيسياً في أن يكثر هؤلاء المؤسسون من رصد الأوقاف العديدة مما ساهم في الصرف على كافة الأغراض الخاصة بالرباط.

كما أن بعض الأربطة اقتصرت على خدمة النساء وتعليمهن وإيوائهن مثل رباط البغدادية الذي أسسته تذكار باي خاتون ابنة السلطان الظاهر بيبرس سنة (684هـ/ 1285م)، وأوكلت مهمة الإشراف على جميع مسؤولياته إلى الشيخة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية[2]، وقد ضم هذا الرباط النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانةً لهن؛ لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات[3].

يمكن القول أن الأربطة كانت دوراً تعليمية مصغرة وملاجئ للعامة ومراكز اجتماعية وعلمية مهمة لما تقدمه من خدمات اجتماعية وثقافية لمختلف فئات المجتمع .

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص429.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص429.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص429.

المبحث الثاني : دور الأوقاف في دعم المراكز الدينية:

كان للأوقاف في عصر سلاطين المماليك أثر عظيم في استمرار الحياة العلمية وانتعاشها وسيرها في الطريق الصحيح، ولعل السر الكامن وراء النهضة الفكرية يعود إليها حيث كانت المورد الأول لكل المراكز والفعاليات.

والوقف يعني أن توقف أملاك الواقف ولا يتم التصرف فيها بينما يتم التصرف في ريعها وصرفه على مركز معين مثل الجامع أو المدرسة، أو دفع رواتب أشخاص حددهم الواقف عادة ما يكونوا ذريته أو غيرهم من أفراد العائلة أو العتقاء من العبيد(1).

أحياناً يتم العمل بالأوقاف أثناء حياة الواقف وأحياناً بعد وفاته، وقد عرفت الأوقاف في مصر عصر المماليك ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول:** يعرف بالأحباس ويترأسها داودار السلطان وتتألف من ديوان فيه عدة كتاب ومدبر، و يشتمل هذا النوع على أرض من أعمال مصر خصصت للقيام بمصالح المساجد والزوايا ونحوها من جهات البر(2).
- **النوع الثاني:** يعرف بالأوقاف الحكمية بمصر والقاهرة ويترأسها قاضي القضاة الشافعي، ويقال لمن يتولى هذا النوع ناظر الأوقاف ويشتمل على الأوقاف المحبوسة على الحرمين والصدقات والأسرى(3).
- **النوع الثالث:** الأوقاف الأهلية ولها ناظر خاص وهو من أولاد الواقف، أو من ولاة

---

(1) الخولي، المرجع السابق، ص105.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص295-296.

(3) الخولي، المرجع السابق، ص105.

السلطان أو القاضي ويشتمل على الأراضي الموقوفة لصالح المدارس والخوانق والجوامع والترب[1].

كان يهتم بأمور الوقف موظف يعرف بالناظر (ناضر الوقف) وهو المسئول عن المباشرة في توظيف الوقف بحسب الجهة المخصصة، وينقل لنا القلقشندي[2] نسخة توقيع لناظر أوقاف مصر والقاهرة التي تبين من خلالها وظيفة الناظر وأهمية الوقف على المراكز التعليمية تقول النسخة ".. ولما كان فلان هو الذي لا يتدنس عرضه بشائبة، ولا تمسه المصالح وهي عن فكره غائبة..... فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنة التأثير، ولينظر في هذه الأوقاف على اختلافها من ربوع ومبان ومساكن،....وليتبع شروط الواقفين ولا يعدل عنها.... ويندرج في هذه الأوقاف ما على المساجد ومواطن الذكر، فليقم شعائرها، وليحفظ أثارها، وليرفع منارها... " .

كما ترتبط بالأوقاف وظيفة أخرى وهي وظيفة (نظر الأحباس) وهي وظيفة عالية المقدار فصاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا والمدارس من الأراضي المفردة لذلك، وما هو من ذلك على سبيل البر والصدقة لأناس معينين[3]، وتتبع هذه الوظيفة ديوان الأحباس أو ديوان الأوقاف وهو يشبه وزارة الأوقاف في عصرنا، وكان لبعض الأوقاف الكبيرة جيش من الموظفين الإداريين، والقصد من وراء هذه الوظيفة دوام الأوقاف واستمرارها، فكان لابد أن يجد الواقف من سيكون مسئولاً عن نظارة الوقف بعده، وأحياناً يرى بعض الواقفين أن يكون ناظر وقفهم قاضي قضاة المذهب الذي يعتنقه[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص295-296.

(2) المصدر السابق، ج11، ص253-255.

(3) المصدر نفسه، ج11، ص37-39.

(4) الخولي، المرجع السابق، ص106.

عندما يكون الواقف من كبار أعيان النخبة العسكرية يتم تعيين ضابط عسكري ناظراً على الأوقاف[1]، والمصادر التاريخية تبين لنا العلاقة القوية بين المساجد والمدارس والأوقاف، فالأوقاف لها الفضل الأول في احتفاظ المساجد الكبرى بشهرتها العلمية من ناحية، واستمرارها مركزاً للحركة العلمية من ناحية ثانية، لذلك نجد أنه لم يبن مسجداً إلا وقد قرر واقفه الذي سيصرف عليه وعلى القائمين ببنائه والعاملين به من الأئمة والخدم والمؤذنين والمدرسين ونحو ذلك، كذلك الحال بالنسبة للمدارس الرسمية فقد كان للأوقاف دور كبير في تتبيث أركانها ودعم نظامها وتمكين هذه المدارس من أداء رسالتها، فالريع الذي تقدمه الأوقاف تدفع منه مرتبات موظفي المدرسة والطلبة بحسب شرط الواقف.

إن أوقاف المدارس كانت سبباً في توجه المدرسين إليها وإقبال طلبة العلم عليها، في حين أدى انقطاع الوقف إلى توقف أنشطة بعض المدارس وإغلاقها، فالخانقاه العلائية التي جأت باسم المدرسة الجمالية عند المقريزي ".. تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها، وتعطل منها حضور الدرس "[2].

مما يميز دولة المماليك كثرة أوقافها على المراكز التعليمية والدينية حرصاً على استمرارها في أداء دورها، فلم يقتصر دورها على توفير الأموال لهذه المراكز التعليمية وإنما تعدى الأمر ذلك إذ يمكننا القول إن وثيقة الواقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمراكز التعليمية والتي تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي

---

(1) أمين: محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980م، ص95.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص392.

يجب أن تتوفر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وما إلى ذلك من التنظيمات المالية والإدارية[1].

أ) نماذج لبعض المراكز الدينية و التعليمية ودور الوقف في دعمها:

رصدت الأوقاف لكافة المراكز التعليمية والدينية من مساجد ومدارس و خوانق ومكتبات وغير ذلك منها:

- **الجامع الأزهر:** أوقفت عليه في العصر المملوكي الكثير من أراضي مصر فعندما جدده الأمير عز الدين أيدمر الحلي عام (665هـ/1266م) رتب فيه الدروس المختلفة كما"... أوقف على ذلك الأوقاف الدارة"[2] ، كذلك الأمير سعيد الدين بشير الجمدار عام (761هـ/1359م) أنشأ فوقه مكتباً للأيتام وأجرى عليهم الطعام الذي كان يطبخ كل يوم وأنزل إليه قدوراً من نحاس جعلها فيه ورتب فيه درساً للفقهاء الحنفية، وأوقف عليه أوقافاً جليلة[3]، عملت هذه الأوقاف على تعظيم دور الأزهر فلم يقتصر دوره على نشر العلم وإقامة الشعائر الدينية بل أصبح الأزهر صرحاً علمياً حيث ألحقت به المدارس مما جعل له مكانة كبيرة في قلوب الناس.

-**الجامع الحاكم:** قام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بتجديده سنة (702هـ/1302م) على إثر الزلزال الذي أصاب البلاد تلك السنة، وأوقف عليه

---

(1) أمين المرجع السابق، ص242.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص275.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص 276.

أوقافاً بالجيزة وبعض بلاد الصعيد والإسكندرية فكانت ذات ريع عظيم، ثم زاد الملك الناصر حسن بن الناصر قلاوون عام (760هـ/ 1358م) في مخصصات هذا الجامع وفي أوقافه إذ يقال أنه أوقف عليه نحو 560 فداناً بجهة طنتبا[1]، هذه الأوقاف ساهمت في دعمه حيث رتبت به الدروس والتصديرات وقدر معلوم للعاملين به، فقد رتب لكل واحد من القضاة والفقهاء عن وظيفة التدريس في كل شهر مائة درهم وثلاثين نقرة، وجعل لكل درس معيدين ورتب لكل واحد في الشهر خمسين درهماً، ورتب لطلبة كل مذهب في كل شهر ثلاثمائة نقرة، كما رتب فيه ميعاداً للعامة جعل به شيخه القاضي مجد الدين بن الخشاب، ورتب له في كل شهر مائة وثلاثين درهم[2].

كذلك أنشأ به خزانة كتب وقف بها نحو خمسمائة مجلد من كتب العلوم والآداب والتاريخ و ختمات شريفة و ربعات، ورتب فيه عشرين مقرئاً جعل لكل واحد منهم عشرة دراهم، وثلاثة أئمة لكل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهماً وفقيهين يعلمان عدد من الصبيان الأيتام، ورتب لهم في كل شهر خمسين درهماً[3].

-**الجامع الطولوني:** جعل له الأمير علم الدين سنجر الدواداري من خالص ماله عشرين ألف دينار عيناً لعمارته، ورتب به درساً للتفسير والحديث والفقه وجعل فيه دروساً على المذاهب الأربعة كما جعل لهذه الدروس مدرساً لكل طائفة ومعيدين وطلبة[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص280/ باشا، المرجع السابق، ج4، ص80.

(2) النويري، المصدر السابق، ج32، ص58-59.

(3) المصدر نفسه، ج32، ص 59.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص336.

- **الخانقاه العلائية:** أوقف الأمير علاء الدين مغلطاي أوقافاً جليلة حيث رتب فيها دروساً للفقه وجعل لمشيختها ستين درهماً والخبز واللحم وجعل بها عشرين من الصوفية يحضرون الدرس لكل منهم في الشهر واحداً وعشرين درهماً من ذلك جامكية سبعة دراهم ونصف، وغير ذلك من الجرايات على باقي العاملين في الخانقاه، وأوقف على ذلك من أمواله وأملاكه ما يقوم به وزيادة[1].

-**المدرسة الصالحية:** يذكر المقريزي[2] "... أن الملك السعيد بركة أوقف على هذه المدرسة الصاغة التي اتجاهها وأماكن بالقاهرة وبمدينة المحلة الغربية وقطع أراضي جزائر بالأعمال الجيزية وجعل بها مدرسين للمذاهب الأربعة عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومه وغير ذلك، وثبت وقف ذلك على يد قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي، ونفذه قاضي القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكي وذلك في سنة (677هـ/1364م) وهي جارية في وقفها إلى اليوم".

لقد أهتم المماليك بمكاتب السبيل ولعل أشهرها الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون بجوار البيمارستان المنصوري حيث رتب فيه فقيهين يعلمان ستين صغيراً من الأيتام القرآن الكريم ورتب لهم جامكية في كل شهر، وجراية في كل يوم، وهيئ لكل منهما (المعلمان) في كل شهر ثلاثين درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف وجعل للأيتام في كل يوم لكل واحد منهم رطلان خبز وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف[3].

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج32، ص6/ المقريزي، الخطط، ج2، ص392.

(2) الخطط، ج2، ص374.

(3) النويري، المصدر السابق، ج32، ص71/ المقريزي، الخطط، ج2، ص407.

ولعل من أبرز الأوقاف هي التي أوقفت على البيمارستان المنصوري فعندما"... كملت عمارته أوقف السلطان عليه من أملاكه القياسر والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق وغير ذلك من الضياع بالشام ما يحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته في كل شهر جملة كثيرة "[1]، ومن هذه الأوقاف قيسارية الصبانة بالفسطاط وفندق الملك السعيد بالفسطاط وحمام السابط وقيسارية المحلى والضيافة وقيسارية الفاضل بالقاهرة وسوق القفصيات وسوق الكتبيين وسوق الأمشاطين وسوق النقلين[2]".

تكمن أهمية البيمارستان كذلك بما عينه له المنصور حيث رتب فيه أرباب الوظائف وغيرهم وجعل النظر فيه لنفسه أيام حياته ولذريته من بعده ثم بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي[3]، وقد ضمن وقفه بكتاب أرخ في يوم الثلاثاء الثالث عشر من صفر سنة (680هـ/1281م) وجاء فيه "... فبلغ مصروف الشراب (الدواء) منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر ورتب فيه عدة موظفين ما بين أمين ومباشر وجعل مباشر للإدارة، وهم الذين يضبطون ما يستشري من الأصناف وما يحضر منها إلى المارستان ومباشرون لاستخراج مال الوقف، ومباشرون في المطبخ ومباشرون في عمارة الأوقاف التي تتعلق به"[4].

يذكر القلقشندي[5] "... إن نظره رتبة سنية يتولاه الوزراء ومن في معناهم"، وفي هذا دلالة على أهمية هذا المعمار وقيمته في ذلك الوقت.

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج32، ص70.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص81-86-89-87/ ابن دقماق،المصدر السابق، ج1، ص38-40.

(3) النويري، المصدر لسابق، ج32، ص71/ المقريزي، الخطط، ج2، ص407.

(4) النويري، المصدر السابق، ج32، 72.

(5) المصدر السابق، ج3، ص366.

- **المكتبات:** قدم الوقف دعم كبير للمكتبات من خلال بذل السلاطين والأمراء كذلك حب العلماء للعلم والمعرفة وسعي طلبة العلم لاقتناء الكتب من خلال نسخها أو استعارتها من المكتبات الموقوفة أو بشرائها فقد تعددت أنواع المكتبات الموقوفة في العصر المملوكي، منها الملحقة بالمساجد والمدارس والمكتبات الخاصة، من هذه المكتبات خزانة الكتب التي كانت بجامع ابن طولون "... فان الحاكم بأمر الله الفاطمي أنزل إلى الجامع ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً"[1]، كما ضمت مكتبته كتب في علوم عدة كالفلسفة والحكمة والنجوم والطب والفلك والتاريخ[2].

و من مكتبات المدارس الموقوفة خزانة الكتب الخاصة بالمدرسة الظاهرية التي أسسها السلطان الظاهر بيبرس عام (662هـ/1263م) وأوقف على هذه المدرسة خزانة كتب جليلة حمل إليها أمهات الكتب في سائر العلوم والمذاهب[3].

كذلك الأمر مع المكتبات الخاصة منها أن العلامة ابن حجر العسقلاني كان يبيح لطلابه وللعلماء الانتفاع من خزانة كتبه[4]، وغير ذلك من المكتبات التي ذكرناها في القسم الخاص بها من هذا البحث.

تجدر الإشارة هنا أن نظام الوقف بما يشتمل عليه من ناظر ومشرفين ووصية وقف تعطي الأوقاف طابع الشرعية الرسمية، إلا أن هذا النظام عجز أحياناً على أن يكفل للأوقاف الحركة الكاملة والشرعية التامة التي قد تحول دون طمع الطامعين للاستيلاء عليها، سواء بالشراء أم الاستبدال أو الأخذ عنوة وغصباً،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص267.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص250.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص378/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص264.

(4) السخاوي الشافعي: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1999م، ج2، ص36.

وقد شهد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي الكثير من هذه الحوادث من ذلك ما يذكره السخاوي الشافعي[1] عن جمال الدين يوسف الأستادار وهو أحد رجال الدولة الدين لعبوا دوراً كبيراً في الاستيلاء على أوقاف الآخرين وما انتهجه من سلب ونهب للأوقاف فيقول"... استبدل القصور الزاهرة المنيفة بالقاهرة، كقصر بشتك والحجازية وغيرها من الطين في الجيزة وغيرها..."

نستنتج من ذلك اشتراك عدد من الأمراء ورجال الدولة في العصر المملوكي وبعض كبار القضاة في انتهاك حرمة الأوقاف والاستيلاء عليها، إما عن طريق الاستبدال الإجباري أو السلب بالقوة.

أما عن موقف السلاطين المماليك فمنهم من اجتهد في منع هذا الانتهاك لحماية الأوقاف، ومنهم من اشترك في عمليات الاستبدال ومحاولات الاستيلاء، ومنهم من كان اضعف من أن يعترض على ذلك أو يحاول أن يمنع حدوثه من ذلك دار القاضي أوحد الدين التي بناها حين كان يباشر توقيع الأمير برقوق بعد سنة (708هـ/1308م) سكنها أيام توليه وظيفة كاتب السر إلى أن مات بها فحبسها على أولاده فاستمرت بأيديهم حتى أخدها منهم الأمير جمال الدين الأستادار كما أخد غيرها من الأوقاف[2]، بعد ذلك قتله الملك الناصر فرج بن برقوق ورجع جميع ما تركه وصار في جملة الأموال السلطانية[3].

بالنتيجة نرى أن الاستيلاء على الأوقاف غصباً، واستبدالها بالقوة بل وبيع أوقاف الأيتام من الأمور التي حدثت في العصر المملوكي وبمختلف الطرق غير الشرعية وانغمس في انتهاك حرمة هذه الأوقاف بعض السلاطين والقضاة والوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة.

---

(1) الضوء اللامع، ج10، ص296.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص77.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص52.

إلا أنه على الرغم من هذه الخروقات كان هناك من السلاطين من يقف ضدها من ذلك أنه في عام (713هـ/1313م) ولى الناصر محمد نيابة دار العدل وشد الأوقاف إلى الأمير بدر الدين محمد بن الوزيري الذي كان مشهوراً بالأمانة وحسن الخلق والدراية بالأمور فباشر عمله في شد الأوقاف وجلس القضاة الأربعة بين يديه بدار العدل ورفعت إليه القصص الخاصة بالأوقاف فطلب سائر مباشري الأوقاف وألزمهم بعمل الحساب مدة عشرين سنة بالأوقاف، إلا أن رجال الدولة والقضاة الذين كانوا يقومون بهذه الخروقات جمعوا عليه وأكثروا الدعاوي عند السلطان بأن له أغراض فاسدة، فما كان إلا أن منعه السلطان من التحدث في الأوقاف[1]، من هذه الحادثة نلاحظ أن التلاعب في الأوقاف لم يكن مقصوراً على مباشري الأوقاف بل شمل القضاة أيضاً، ومن ناحية أخرى نلاحظ اهتمام الناصر محمد بإرساء قواعد الإخلاص والصدق في مباشرة الأوقاف والانتفاع من أموالها وفقاً للشروط التي وضعت بها، لذا عمل على تعيين ابن الوزيري المعروف بالأمانة للقيام بوظيفة شد الأوقاف والنهوض بمسئولية الكشف عن أي تلاعب من قبل مباشرها والمسئولين عنها.

ب) العوامل التي أسهمت في ازدهار الوقف في العصر المملوكي :

- كان للدور الذي قام به المماليك من إنشاء المدارس والجوامع والربط والخوانق وغير ذلك من المراكز العلمية والدينية ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة لضمان استمراريتها الأمر الذي ساعدهم على ذلك هو العامل الاقتصادي للدولة فقد كان

---

(1) المقريزي، السلوك ج2، ص126/ الحجي: حياة ناصر، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـ/ 1983م، ص154-155.

اقتصاد دولة المماليك مزدهراً ذلك لاهتمامهم بالزراعة والتجارة والصناعة خاصة التجارة التي احتلت المكان الأول في الحياة الاقتصادية ونتج عن هذا الازدهار الاقتصادي ثراء الدولة وامتلاكها لثروات طائلة فانعكس هذا الثراء على الأعمال العمرانية من خلال إنشاء المراكز المختلفة والمتنوعة ووقف الأوقاف عليها لضمان استمراريتها، كما عملت الدولة على الأنفاق بسخاء على هذه المراكز مما جعلها تؤدي الدور المطلوب منها[1]، هذه النهضة أبهرت الرحالة الأوربيين في العصور الوسطى إذ تذكر إحدى المراجع[2] "... يمكننا أن نتخيل الدهشة التي تتملك رحالة العصور الوسطى حين يقفون على قمة جبل المقطم،...مما زاد من روعته عدد لا يحصى من القباب والمآذن التي أضفت نوعاً من التغيير الجميل على المدينة التي تتشابه سقوفها المسطحة"

- كان للعامل الديني كان له دور كبير في دعم الأوقاف فقد أنشأ المماليك المراكز العلمية التي كان بعضها وقفاً لله تعالى كما هو الحال في المارستان المنصوري والمدرسة الطيبرسية وغير ذلك فقد اعتنق المماليك الإسلام وتربوا عليه وهذا جعل عدداً كبيراً منهم يشعر بالمسؤولية أمام الله وأمام الناس في الدفاع عن البلاد وإقامة بنيانها فانعكس كل ذلك على إنشاء المساجد والمدارس ووقف الأوقاف عليها، كذلك التنافس بين أصحاب المذاهب الفقهية فكل منهم يريد بناء مدرسة تؤيد مذهبه الفقهي وهذا يظهر جلياً من خلال المدارس التي أنشئت ووقف بعضها على مذهب معين كما سيتضح لنا في الفصل القادم.

---

(1) للمزيد عن الأوضاع الاقتصادية ينظر نجيب: عامر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، عمان، ط1، 2003م.

(2) فيت: جاستوف، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر، بيروت، 1968م.

في هذا الشأن يقول ابن خلدون[1] " ...أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يستخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب المُلك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها"، هذا النص يوضح أن أحد أسباب ازدهار الأوقاف في عصر المماليك هو خوف السلاطين والأمراء وأصحاب المناصب العليا في الدولة على ذريتهم وخلفائهم من أن تصادر أملاكهم بعد وفاتهم فعملوا على الإكثار من العمائر ووقفها لتكون ملكاً لهم فلا يستطيع أحد التطاول عليها وأخذها، مهما يكن الأمر فإن هذه العوامل ساعدت في ازدهار الوقف وكثرته مما يضمن للمراكز التعليمية الاستمرارية في أداء دورها التعليمي.

ج) أثار نظام الوقف على الدولة والمجتمع:

يمكن تقسيم المستفيدين منه إلى ثلاث فئات:

- **الفئة الأولى:** هي السلطة الحاكمة فالمماليك بسبب تحمسهم لإقامة الأوقاف وإنشاء المراكز الدينية والتعليمية استطاعوا أن يتقربوا من الشعب عن طريق تقوية الرابطة الدينية بينهم وبين العامة، كذلك تقوية مصادر دخلهم والتباهي بإنشاء تلك العمائر المتنوعة والمختلفة.
- **الفئة الثانية:** هم العامة فالأوقاف في الأصل صدقة لمساعدة الفقير واليتيم والمحتاج، ومن ثم كان جزء كبير من تلك الأوقاف المملوكية يهدف إلى أعمال البر والخير وإعانة تلك الطبقة الفقيرة ، إضافة إلى توفير الرعاية الصحية للشعب بمختلف طبقاته من خلال إيقاف البيمارستانات كالبيمارستان المنصوري، كما أنشئت

---

(1) المقدمة، ص345.

الجوامع والمساجد لممارسة الشعائر الدينية والاستفادة فكرياً ومعنوياً من الاجتماع بطبقة الفقهاء والمثقفين دينياً، إلى جانب أن هذه الجوامع والمساجد كانت تؤدي وظيفة المدرسة مما يتيح للراغبين في التعليم الحصول عليه من هذه المراكز[1]، كذلك الصوفية استفادوا من هذه الأوقاف من خلال الإنفاق على الخانقاوات الكبيرة ووفروا فيها مختلف متطلبات العيش.

ـ **الفئة الثالثة:** العلماء والمتعلمين فقد وفرت الأوقاف ريعاً وافياً وثابتا للمدارس التي كانت ذات منفعة جليلة لهذه الفئة بالتالي قويت الرابطة بين أصحاب السلطة وهذه الفئة، فكان المماليك يظهرون لهذه الفئة الإجلال والاحترام، ومن ناحية أخرى قدمت هذه المدارس خدمة كبيرة للطلاب من توفير الأساتذة الأكفاء والكتب القيمة والسكن المريح والمرتبات الكافية كل ذلك كان مصدره الأوقاف.

مما تقدم ذكره نرى أن الأوقاف كان لها دوراً كبيراً في دعم الحياة العلمية والثقافية ومما يعبر عن ذلك ما تناولته المصادر عن هذه الحركة العلمية والتطور العمراني فالمقريزي قدم بحثاً مطولاً عن خمس وخمسين مدرسة تقريباً شيدت في العهد المملوكي، وشهد على ذلك ابن بطوطة[2] حين زار مصر حيث قال " ...أما المدارس بمصر فلا يحيط بحصرها لكثرتها "، ويصف القلقشندي[3] نهضة مصر في ذلك العصر بقوله" ...لم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها حتى صارت على ماهي عليه في زماننا من القصور العلية والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة والجوامع البهيجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة مما لم يشع بمثله في قطر من الأقطار"،وغير ذلك الكثير ممن أشادوا بذلك العصر وهذا مرده لازدهار الأوقاف ودعمها للحياة الثقافية والعلمية.

---

(1) الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ص158.

(2) المصدر السابق، ص203.

(3)المصدر السابق، ج3، ص418-419.

المبحث الثالث: الحركات الصوفية وأثرها على الحياة الثقافية والعلمية.

التعريف بالتصوف :

– **لغــــة** : ورد فـي الصـحاح أن الصـوف للشـاة ، ويقـال كـبش صـاف أي كثيـر الصـوف[1]، وصـاف السـهم عـن الهـدف حـال وعـدل، والمضـارع منـه يصـوف ويصيف[2].

– **اصــطلاحاً** : جاء بمعنـى الزهد والتصـوف أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شـيء[3]، وبمعنـى الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك فـي الصـفاء[4]، وغير ذلك من المعاني الأخرى.

أصل كلمة تصوف واشتقاقها :

إن أصـل كلمـة تصـوف أختلـف الكثيـرون فـي أصـلها واشـتقاقها، حتـى أن الصوفية أنفسهم لم يتفقوا على أصلها، لذلك نسبت إلى عدة أصول :
فالكلابـاذي[5] يـرى "أن أصـل الصـوفية هـو الصـفاء، وإنهـم سـموا صـوفية لصـفاء أسرارهم، وشرح صدورهم، وضياء قلوبهم ".

---

(1) الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م، ج4، ص1388.

(2) الفيروز أبادي: مجد الدين أبي طاهر محمد يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ/ 2005م، ج11، ص102-103.

(3) القشيري: أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن الشافعي، الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف رزيق–علي بلطجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2003م، ص552.

(4) المهدلي: السيد عقيل بن علي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الحديث،(د.م)،(د.ت)، ص67.

(5) أبو بكر محمد بن اسحق البخاري الكلاباذي ، كتاب التعريف لمذهب أهل التصوف، صححه: آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م، ص5.

بينما يرى القشيري[1] أن هذه النسبة غير صحيحة لغة؛ فلو نسبت لأحد لقيل له صفائي، مما يجذر الإشارة إليه أن الصوفية نسبوا ذلك لأنفسهم وتزكية لهم، وهذا لا يجوز؛ لأن صفاء القلوب لا يعلمه إلا الله عز وجل لقوله: ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾[2]، في ذلك يقول مبارك[3]، أن نسبة التصوف إلى الصفاء ليس إلا حذلقة من بعض الصوفية.

إلا أن اشتقاقها من كلمة صوف رجعها عدد من العلماء منهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الصوف لباس الأنبياء، وخاصة سيدنا محمد وعيسى عليهما السلام، وهو لباس الصحابة رضي الله عنهم، فلبس الصوف هو الأقرب للتواضع[4].

يرى ابن خلدون[5] " أن التصوف خلال القرون الثلاثة الأولى كان عاماً، ولم يأخذ اسماً خاصاً، لكن مع انتشار الأفكار المتعلقة بالدنيا وارتباط الناس بالحياة، فإن الذين تفرغوا للعبادة ميزوا أنفسهم تحت شعار المتصوفين".

مما يجدر الإشارة إليه أن لفظ التصوف لم يرد في القرآن الكريم وعلى الرغم من ورود كلمة الرهبنة في سورة الحديد، بقوله تعالى: ﴿ وَرَهبَانِيةً إبْتَدَعُوْهَا مَا كَتَبْنَهَا عَلَيْهِمْ ﴾[6]، ولكنها لم تزكيهم أو تمجدهم، لذلك نلاحظ أنه لا يوجد حديث فيه لفظ التصوف؛ وذلك لأنه لم يكن معروفاً في الجزيرة العربية وقت ظهور الإسلام[7].

---

(1) المصدر السابق، ص127.

(2) سورة النجم، أية 32.

(3) مبارك: زكي، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، المكتبة العصرية، لبنان، (د.ت)، ج2، ص54.

(4) الشويكي: محمود يوسف، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد العاشر، العدد الثاني،2002م، ص10.

(5) المقدمة، ص863-865.

(6) سورة الحديد، أية 27.

(7) منصور: أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2000م.

انتشار التصوف في مصر قبيل العصر المملوكي:

أول من غرس بذور التصوف في مصر هو (ذو النون المصري) المتوفي سنة (245هـ/859 م)، ويعد أول من تكلم من الصوفية عموماً في علوم المقامات والأحوال، وشاركه في غرسها في القرن 3هـ صوفيان آخران لهما مكانتهما وهما أبو بكر الدقاق المصري، وأبو الحسن بن بنان الحمال، ومن أبرز رجالها أبو علي الروزبادي، وأبو الخير الأقطع الثيناني وأبو القاسم الصامت[1].

إلا أن هذا النوع من التصوف ظل تصوفاً فردياً حتى بداية الدولة الأيوبية في مصر، قام به صلاح الدين الأيوبي إذ رأى أنه من خلاله سيحارب المذهب الفاطمي الشيعي بسلاحه نفسه، ألا وهو التصوف، وقد سجل المقريزي[2] تاريخ نشأته بعام(569هـ / 1173م)، وهو تاريخ إنشاء أول الخانقاوات في عهد صلاح الدين الأيوبي، إلا أنه على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه في نشر التصوف، لكنه ظل هادئاً قليل الأثر ولم يشتد تياره في الحياة الدينية والاجتماعية إلا في عصر المماليك، فقد تحول التصوف إلى مجرد ترديد لعقائد السابقين، ووضع الشروح عليها وتطبيق تعاليمهم[3].

---

(1) النجار: عامر، الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د.ت)، ص62.

(2) الخطط، ج2، ص415.

(3) بحر: مجدي عبد الرشيد، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1999م، ص289.

أسباب انتشاره وتطوره في العصر المملوكي :

هناك عدة أسباب أسهمت في انتشار التصوف في مصر عصر المماليك، من ذلك الظروف السياسية التي عاشها المصريون من هزيمة التتار في موقعة عين جالوت(658 هـ/1260م)، إضافة إلى التخلص من خطر الصليبيين، كما أصبحت مصر مركزاً للخلافة العباسة، هذه الأحداث الهامة توضح لنا أن القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، كان له أهمية تاريخية خاصة، إضافة إلى ذلك حكم المماليك لمصر والخلافات المستمرة بين سلاطينهم للسيطرة على مقاليد الحكم، فالمماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم، كما أن هذه الحروب كلفت أهل مصر الكثير من التضحيات، وزادت من أعبائهم وسوء أحوالهم واضطراب معيشتهم؛ نتيجة للنزاعات المستمرة بين الأفراد، بالتالي كانت الأحوال السياسية المضطربة لها انعكاساتها على الرعية، وبالنظر للأحوال الاجتماعية والاقتصادية نجد أن المجتمع المصري في هذا العصر كان أغلبه من الفقراء، فالمقريزي[1] يقسم لنا الطبقات الاجتماعية في العصر المملوكي كالأتي :

(أهل الدولة ثم التجار وهم من ذو الرفاهية/ الباعة وهم متوسطوا الحال من التجار وأصحاب المعاش/ أهل الفلاحة وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف/ الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، أصحاب المهن، ذو الخصاصة والمسكنة، الذين يتكففون الناس).

أدى سوء الأحوال الاجتماعية في البلاد وسوء الأوضاع الاقتصادية إلى انتشار الفقر والبطالة والمجاعات وأصاب الأراضي الزراعية جدب نتيجة لهبوط منسوب النيل الذي استمر على ذلك ثلاث سنوات متتالية فعدمت الأقوات في

---

(1) السلوك، ج1، ص440.

الديار المصرية، واستولى ذوي السلطة على ما تنتجه أرض الفلاحين، وكثرة الضرائب على الأفراد والأملاك[1]، وغلت الأسعار وعُدِمَ الخبز حيث يذكر ابن بطوطة[2] " .. أن القمح بلغ الأردب منه مئة وثمانين درهم، والشعير والفول ثمانين درهم ... ووقع مع الغلاء والقحط وباء عظيم وموت كثير جداً ".

نتيجة لكل ذلك مات ألاف المصريين جوعاً وألماً ومرضاً، فنتج عن ذلك، تدهور وانحطاط في الأخلاق وانتشرت البدع والانحرافات خلاله، وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين التصدي لهذه الانحرافات، من ذلك "...أمر السلطان الظاهر بيبرس بإبطال تسعير الغلة وكتب إلى الأهراء* السلطانية ببيع خمسمائة أُردب كل يوم بما يتيسر، وتوزيعها على الضعفاء والأرامل، وأمر بإحصاء من بالقاهرة ومصر وحواضرهما من الفقراء وخص كل جماعة بأمير من الأمراء وأمر بإطعام الفقراء لمدة ثلاثة أشهر"[3].

كما أمر بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر[4]، ومن الطبيعي أن الفقر يلعب دوراً هاماً في انتشار الانحرافات وسوء الأحوال الاجتماعية والخرافات والخزعبلات التي تجد مناخاً مناسباً تنمو فيه بين عقول الفقراء.

لكن الجدير بالذكر أنه على الرغم من الأحوال السيئة على مختلف مناحي الحياة في مصر، إلا أن الحياة الثقافية بمختلف مجالاتها يمكن وصفها بأنها كانت

---

(1) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص70-71.

(2) المصدر السابق، ص363-364.

* الأهراء السلطانية هي الأماكن التي تخزن بها الغلال الخاصة بالسلطان أنظر ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص122-123.

(3) المنصوري، المصدر السابق، ص26-27.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ص278.

في ازدهار مستمر مقارنة مع غيرها، فأدى هذا الازدهار لتكون مصر ملتقى للعلماء ورجال الفكر السياسي.

بالعودة لكل ما ذكر يمكن القول أن هذه الظروف التي عاشها المصريون، كانت عاملاً مهماً في توجه أصحاب الطرق الصوفية الذين وجدوا مناخاً مناسباً لأدعيتهم وأذكارهم المليئة بالعبارات التي تصور أحوالاً سيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن ما يبث الطمأنينة في نفوس أصابها الهلع والجزع، فكل ذلك كان عاملاً أساسياً لوفود الكثير من مشايخ الصوفية مثل أبو الحسن الشاذلي المتوفي (656هـ/ 1258م)، وأبو العباس المرسي، وأبو الصباغ القوصي، وغيرهم الكثير ممن كان لهم دور كبير في نشر الصوفية في مصر انتشاراً عجيباً، فقد وجدوا المصريين في ضيق بسبب سطوة المماليك وضغطهم على عامة الشعب، فضلاً عن كثرة الفتن الداخلية واختلال الأمن، مما دفع الكثيرين إلى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية[1].

انقسم الصوفية إلى فرق عدة، لكل فرقة شيخها منها الشاذلية نسبة إلى أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي، والأحمدية نسبة لأحمد البدوي، فقد انتشرت طريقته في جميع أرجاء مصر، ولها فروع متعددة يمتاز أصحابها بشاراتهم وهي العمامة الحمراء[2]، والرفاعية نسبة إلى أحمد بن أبي الحسن الرفاعي وشعارهم العمائم السوداء[3]، انتشرت أفكار هذه الفرق وكراماتهم وكثر أتباعهم في طول البلاد وعرضها يُنَفذُون تعاليمهم ويقرءون أورادهم وأذكارهم وأصبحوا يُعرفون بأتباع الطرق

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص180.

(2) الشويكي، المرجع السابق، ص23/ عاشور، المجتمع المصري، ص181.

(3)الشويكي، المرجع السابق، ص23.

التي وصل عددها في عصر المماليك إلى حوالي ست وثلاثين طريقة[1].

كان يتم الاعتقاد بالشيخ حياً أو ميتاً، وعند موت الشيخ يخلفه خليفة في رئاسة طائفته، والجدير بالذكر هنا أنه مع قوة سلاطين المماليك إلا أن أغلبهم كان يؤمن بالتصوف ويخضع للشيخ الصوفي ويلتمس منه البركات ومثال ذلك أن الظاهر بيبرس سمح بوجود نفوذ للشيخ الخضر لأنه يعتقد في ولايته وفي معرفته للغيب[2]، نجد كذلك الظاهر برقوق يخضع لأحد المجاذيب حتى أن أحدهم كان يبصق في وجهه[3]، وعندما أفتتح مدرسته الجامعة، أعطاه مجدوب (طوبه) وأمره أن يضعها في المدرسة فوضعها برقوق في قنديل وعلقه في المحراب، وظلت باقية فيه إذ يقول ابن إياس[4] في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي "... فهي باقية في القنديل حتى الآن" .

بلغ اهتمام السلاطين بالمتصوفة أنه عند موت شيخ طائفة يخلفه خليفة في رئاسة طائفته فتصدر تولية هذا الخليفة من السلطان الذي يخلع عليه وينزل من القلعة في حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته[5]، كما خصص لهم السلاطين بيوتاً وهي ما يعرف بالخوانق والربط والزوايا، فقد وضحناها سابقاً .

الحقيقة أن الحركة الصوفية كان لها أثرها على الحياة الفكرية والعقلية والثقافية للمجتمع المصري في هذا العصر، فنجد التصوف ألقى بِظِلاله على كافة مناحي الحياة ،فقد نظر الناس لكل من اتصف بالزهد والتعبد والصلاح على أنه من

---

(1) بحر، المرجع السابق، ص289.

(2) النويري، المصدر السابق، ج28، ص119.

(3) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص57/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص10.

(4) المصدر السابق، ج1، ص373.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص339.

أولياء الله، للحد الذي لو تَعَرض فيه أحد لهؤلاء الصوفية قام العامة عليه وأردوه قتيلاً[1].

وكان يتم تعظيم هؤلاء المشايخ فالناس ينظرون لهم بأنهم يملكون كرامات ومعجزات لا تقل عمن سبقهم من مؤسسي هذه الطرق فرويّت القصص حول كراماتهم ومعجزاتهم خاصة أن المدلسين من الصوفية عملوا على نشر هذه الكرامات بين الناس فهرع إليهم المريدون والمعتقدون من كل مكان لزيارتهم يلتمسون بركاتهم[2]، وعند وفاة هؤلاء الأولياء والمشايخ كان الأتباع والمريدون يرفضون إبطال كراماتهم، بل وصل الحد ببعضهم بإنكار أنهم ماتوا بالفعل، لذلك نجد قبورهم وزواياهم التي دفنوا فيها تتحول إلى أضرحة تحاط بهالة من القداسة وتقام فوقها القباب، وقد كثرت تلك الأضرحة للحد الذي أصبح لها ناظر عام يوليه السلطان للإشراف عليها وتعيين سدنتها وخدامها[3].

أصبحت هذه القبور والأضرحة مكاناً تُتلى عنده الدعوات التي تطلب شفاعة صاحب المقام لقبولها، بل بلغ الأمر ببعض السذج أن يدعوا هؤلاء الأولياء يقضوا لهم حاجاتهم من شفاء مريض أو نحو ذلك[4]، أصبح بذلك التصوف إحدى المظاهر الثقافية في المجتمع المملوكي إذ بالغ الناس في تبجيلهم فأقاموا لهم الموالد السنوية لتكريمهم وإحياء ذكراهم في المكان الذي دفنوا فيه بصرف النظر عن معرفتهم لتاريخ مولدهم على وجه التحديد[5].

---

(1) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص302.

(2) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص44/ بحر، المرجع السابق، ص290.

(3) ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص38/ النويري، المصدر السابق، ج30، ص145.

(4) المقريزي، الخطط، ص219.

(5) بحر، المرجع السابق، ص291.

من أغرب طقوس الصوفية حفلات الذكر التي يطلقون عليها (الوقت) أو (الميعاد) أو(السماع)، والتي كانت تقام على وجه الخصوص في الزوايا، وكانت تعمل بالدفوف والمزمار وغيرها من آلات الطرب، وما يصاحبها من الرقص والغناء والمرح، وما يصحب ذلك من مفاسد، ولعل ما كان يحدث في حلقات الذكر من خروج عن الشرع هو الذي جعل السلطان الظاهر جقمق يأمر في سنة (851هـ/1447م)، بمنع عمل هذه الموالد خاصة بعد قيام رجل ممن يقيمون الموالد بإدعاء النبوة[1].

إن بعض الصوفيين تطرفوا في أرائهم وأفعالهم حتى ظهرت طائفة أطلق عليها المجاذيب أو الدراويش[2]، واشتهر هؤلاء بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين، فيصف لنا أبا المحاسن[3]، احد المجاذيب فيقول "... أجمع الناس على اعتقاده وهو لا يفيق من سكرته وكان الناس يترددون عليه فوجاً فوجاً، من بين عالم وقاض ورئيس، ولا يلتفت إليهم فلما زاد تردد الناس إليه صار يرجمهم بالحجارة فلم يردهم ذلك عنه رغبة منهم في التماس بركته ففر منهم وساح في الجبال".

مما تقدم نلاحظ أن الحياة الفكرية والثقافية تأثرت إلى حد ما بالتصوف الذي فرض كعلم بين مناهج ودروس في المراكز التي خصصت له، وبرز فيه العديد من العلماء، وألفت العديد من الكتب في هذا المجال والتي تعد من أفضل ما خلفته الحركة الصوفية منها كتاب شرح العمدة لتقي الدين بن دقيق العيد[4]، وكتاب تأييد

---

(1) العسقلاني، إنباء الغمر، ج9، ص226-228.

(2) السخاوي الشافعي، التبر المسبوك، ص220/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص315.

(3) المصدر نفسه، ج11، ص118.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص143.

الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للجلال السيوطي[1]، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لتقي الدين بن تيمية الحراني[2].

لقد تعاظمت سيطرة التصوف حتى ساد العصر المملوكي وأثر تأثيراً بالغاً على الحياة السياسية والحضارية والدينية في ذلك العصر حيث أصبح أسلوباً ومنهجاً يدين به الكثير من الناس على مستوى الأفراد والجماعات .

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص160.

(2) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص74-75.

الفصل الثالث :

دور المراكز التعليمية في الحياة العلمية:

المبحث الأول: المدارس و مكاتب السبيل.

المبحث الثاني: البيمارستانات

المبحث الثالث : الطباق.

المبحث الرابع : المكتبات.

المبحث الأول: المــدارس ومكاتب السبيل:

(أ) المدارس:

لم يقتصر اهتمام المماليك بالتعليم على ما قدمته دور العبادة من توفير مراكز لقراءة القرآن الكريم، أو مجالس الفقهاء والقضاة أو قاعات للدرس وتعليم الأطفال اليتامى، بل امتد ذلك الأثر ليشمل إقامة مراكز تعليمية يكون الهدف الأساسي من وجودها ممارسة ونشر التعليم، وقد اشترك السلاطين والأمراء والمقتدرين من العلماء والتجار في إقامة صرح التعليم هذا فتعددت المدارس وزادت العناية بالمراكز التعليمية.

مما يجدر ذكره أن المدارس في مصر كان لها دور كبير في محو أثار التشيع، فاهتمام الدولة الأيوبية منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي بهذا الأمر ساعد في التخلص من التشيع، ذلك أنه بنى للطائفتين الشافعية والحنفية مدرستين لهذا الغرض.

ثم جاء المماليك فساروا على نهج الأيوبيين في هذا الأمر، ومن تم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، وما أن ترسخت أركان الدولة المملوكية حتى كان هناك عدد كبير منها حتى غدت مصر مركزاً حضارياً للعلم ونشر التعليم، ومن خلال هذا البحث سنتناول هذه المدارس بالتفصيل سواء التي أنشئت قبل العهد المملوكي واستمرت تؤدي مهمتها في عهدهم، أم التي أنشئت خلال عهد المماليك وهي كالأتي:

المدرسة القمحية*:

أنشئت بجوار الجامع العتيق بمصر، كان موضعها يعرف بدار الغزل وهي قيسارية يباع فيها الغزل، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، بعد هدمه لهذه القيسارية وجعلها مدرسة للفقهاء المالكية، بدأ في بنائها سنة (566هـ/1170م)، وأوقف عليها أوقافاً جليلة منها قيسارية الوراقين، وضيعة بالفيوم تعرف بالخبوشية، كما رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة(1).

وتعد هذه المدرسة من أجل مدارس الفقهاء المالكية، استمرت هذه المدرسة في تقديم رسالتها حتى سنة (825هـ/ 1421م) حين أخرج السلطان الأشرف برسباي بعض أوقافها التي جعلها عليها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأنعم بها الملك الأشرف برسباي على مملوكين من مماليكه ليكونا إقطاعا لهما، ويقول المقريزي(2) في ذلك "... أنه أحاط بها الخراب، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت. "

المدرسة الصلاحية:

بنيت بجوار قبة الإمام الشافعي، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي عام (572هـ/ 1176م)، يصفها السيوطي(3) بأنها "...أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق"، جعل التدريس والنظر فيها للشيخ نجم الدين الخبوشاني، وجعل له في كل شهر أربعين ديناراً صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً، وجعل له من الخبز في كل

---

* سميت بالقمحية لأن السلطان صلاح الدين كان قد أوقف عليها ضيعة بالفيوم كانوا يحصلون منها على القمح الذي كان يتم توزيعه على كل من في هذه المدرسة، فصارت لا تعرف إلا بالمدرسة القمحية، المقريزي، الخطط، ج2، ص364.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص364.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص364.

(3) حسن المحاضرة، ج2، ص257.

يوم ستين رطلاً* ، ولي تدريسها جماعة من الأكابر والأعيان وبلغ عدد المعيدين بها أحياناً عشرة، تولى نظرها عدد من الشيوخ المشهورين منهم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، ووليها قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، ظلت هذه المدرسة في العصر المملوكي مدة طويلة(1).

المدرسة السيوفية:

انشئت بالقاهرة بجوار سوق السيوفيين فعرفت بالسيوفية، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي وجعلها وقفاً للحنفية، وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد ابن الجبتي و ولاه نظر وقفها، ورتب له في كل شهر إحدى عشر ديناراً وباقي ريع الوقف يصرفه على طلبة الحنفية المقررين عنده، ويذكر المقريزي(2) " أن كتاب وقفها كان بتاريخ (572هـ/1176م)" وأوقف عليها اثنتين وثلاثين حانوتاً بخط سويقة"، وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر وهي باقية بأيديهم(3).

المدرسة الفاضلية:

موقعها بدرب ملوخيا من القاهرة، أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني**بجوار داره سنة (580هـ/ 1184م)، رتب فيها دروساً للقراءات السبع،

---

* الرطل يساوي مائة وأربعة وأربعون درهماً مصرياً، انظر القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص367.

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص257-258.

(2) الخطط، ج2، ص367.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص367/ سليم ، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص38.

** هو عبد الرحيم ابن القاضي الأشرفي اللخمي العسقلاني البيساني، ولد سنة (529هـ/1134م)، خدم في ديوان الإنشا سنة (566هـ/1170م)، كما عينه صلاح الين الأيوبي وزيراً له ومشيره بحيث لا يصدر أمراً إلا بعد مناقشته معه، إستمر في منصبه في عهد أولاد صلاح الدين حتى عهد الملك العادل أبو بكر بن أيوب حيث توفي سنة (596هـ/1199م)، المقريزي، الخطط، ج2، ص366.

وفقه الشافعية والمالكية، كما جعل فيها قاعة للإقراء درس فيها الإمام أبو محمد الشاطبي وتلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي وغيرهم، وقفت هذه المدرسة على طائفتي الشافعية والمالكية، وأوقف بها خزانة كتب تحمل جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم إذ يذكر أنه كان فيها حوالي مائة ألف مجلد، لكنها ضاعت كلها في عهد الملك العادل كتبغا المنصوري*، ظلت هذه المدرسة مفتوحة الأبواب في عصر المماليك حتى خرب ما حولها فتلاشت هي أيضاً[1].

مدرسة العادل أو ابن شاس:

بنيت بخط الساحل بجوار الربع العادلي من مدينة القاهرة، أنشأها الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي، وهي من مدارس المالكية، وممن درّس فيها قاضي القضاة تقي الدين بن شاس فعرفت باسمه وظلت عامرة حتى عهد المقريزي[2].

المدرسة الكاملية:

تقع بخط بين القصرين من القاهرة أنشأها السلطان الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أيوب سنة (622هـ/1225م) وهي ثاني دار عملت للحديث**،

---

* في سنة (694هـ/ 1294م) أيام الملك العادل كتبغا المنصوري وقع الغلاء بمصر مما جعل طلبة هذه المدرسة يبيعون مجلداتها وكتبها حتى بلغ ثمن كل مجلد مقدار رغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من كتب، المقريزي، الخطط، ج2، ص366.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص366.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص365/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص38.

** أول من بنى دار للحديث في البلاد الإسلامية هو الملك نور الدين زنكي وكانت بدمشق، المصدر نفسه، ج2، ص375/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص262.

فالسيوطي يذكر[1]"... أنها أول دار عملت بمصر للحديث ولا يوجد دار غيرها"، أوقفها الملك الكامل على المشتغلين بالحديث النبوي ثم من بعدهم الفقهاء الشافعية وقد أوقف عليها أوقافاً عدة، وظلت عامرة برجالها وبطائفة من المدرسين المشتغلين بالحديث حتى عام (806هـ/ 1403م)، منذ ذلك العام ولى أمرها من لم يحسن القيام به فأخذت في الزوال[2].

المدرسة الصالحية:

تقع بخط بين القصرين بالقاهرة*، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (639هـ/1241م)، تتكون من أربع مدارس معاً[3]، واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة، كمل بنائها سنة (641هـ/ 1243م) وهو أول من عمل بمصر مدرسة على هذا النمط، وأوقف عليها أوقافاً عدة.

في سنة (648هـ/1250م) في عصر المماليك أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الأمير علاء الدين البندقداري في نيابة السلطنة بمصر فواظب الجلوس بهذه المدرسة[4]، كما اهتم بشأنها الملك السعيد ناصر الدين محمد بركه خان ابن الظاهر بيبرس، وأضاف إليها أوقافاً جديدة بنواحي عدة منها أماكن بالقاهرة والمحلة بالغربية والجيزة[5]، ورتب بها أربعة من المدرسين لكل مدرس معيدان وعدة

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص375.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص262.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص375.

* كان موضعها في عهد الدولة الفاطمية براحاً واسعاً يقف فيه الآلاف من العساكر ما بين فارس وراجل، ثم أصبح في عهد الدولة الأيوبية سوقاً فيه كافة أصناف الطعام ويلتقي فيه السكان بكافة طبقاتهم العامة والأعيان واستمر هكذا حتى عهد المماليك فأصبح ملهى من ملاهي القاهرة يكثر فيه الزحام، المصدر نفسه، ج2، ص28.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص374/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص263.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص374/ النويري، المصدر السابق، ج32، ص263.

طلبة، وعين بها خدم دائمين ومؤذنين وذلك في سنة (677هـ/1278م)[1]، و " أنه في سنة (730هـ/ 1329م) زارها الأمير جمال الدين أقش الأشرفي المنصوري وهو أجل أمراء الدولة وأقربهم للسلطان الناصر محمد فأقام بها صلاة الجمعة ورتب بها أوقافاً ومرتبات إذ جعل للخطيب خمسون درهماً، ولستة مؤذنين لكل منهم عشرة دراهم ولقارئ المصحف عشرة دراهم وكذلك الأمر لباقي الخدم من فراشين وغيرهم في المدرسة"[2]، يذكر المقريزي[3] " أن أوقافها جارية حتى عهده".

المدرسة القطبية:

موقعها في أول حارة زويلة برحبة كوكاي، أنشأتها السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون*، كانت هذه المرأة مولعة بحب الحديث وروايته، وكانت على خلق ودين فصيحة لها أدب وصدقات كثيرة، أوصت ببناء هذه المدرسة وأوقفت عليها أوقافاً، وجعلتها مدرسة للشافعية والحنفية وجعلت فيها فقهاء وقراء ويذكر المقريزي[4] " أنها ظلت عامرة طول عصر المماليك تقريباً، وكان وقفها سنة (605هـ/ 1208م)، لعل المقريزي كان يقصد سنة (650هـ/1252م) ذلك لأن صاحبة هذه المدرسة ولدت سنة (603هـ/1206م).

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص374.

(2)النويري، المصدر السابق، ج32، ص229.

(3) الخطط، ج2، ص374.

* هي ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب وشقيقه الملك الأفضل قطب الدين أحمد وإليه نسبت، ولدت سنة (605هـ/1206م) وتوفيت سنة (693هـ1293م)، المصدر نفسه، ج2، ص368.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص368/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص46.

المدرسة الصحابية البهائية:

كانت بزقاق القناديل* من مدينة مصر قرب الجامع العتيق، أنشأها علي بن محمد بن سليم بن حنا وزير الظاهر بيبرس سنة (654هـ/1256م) وكان في ذلك الوقت زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر، أوقفت على هذه المدرسة جملة من الأوقاف وخصصت لها كتب ثمينة، وأول من درّس بها هو الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير بهاء الدين وعدد أخر من أبنائه، ثم ولى أبنائه نظرها حتى سنة (813هـ/1410م)، في هذه السنة توفي أخر أولاده وهو شمس الدين محمد فاستولى بعض نواب القضاة على ما بقي من أوقافها ولم ترعى مصالحها فعطلت الدراسة بها وبعثرت خزانة كتبها وأخذ أمرها بالزوال، بعد أن كانت من أجل مدارس مصر وأعظمها[1]، حتى قيل" أن الناس من طلبة العلم كانوا يتنافسون في النزول إليها، ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ثم تلاشى أمرها وزالت هذه المدرسة تماماً"[2].

المدرسة الظاهرية:

أنشئت بخط القصرين كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم، أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقداري، ابتدأ في عمارتها سنة (660هـ/1261م) حسب ما ورد لدى المقريزي[3]، ذكر السيوطي[4] أنه ابتدأ في بنائها سنة

---

* سمي زقاق القناديل لأنه كان سكن الأعيان والأشراف، وكانت أبواب الدور فيه يعلق على كل باب منها قنديل، ويقال أنه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر، المصدر نفسه، ج2، ص370.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، صم370-371/ باشا، المرجع السابق، ج6، ص9/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص43.

(2) المقريزي،الخطط، ج2، ص371.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص374/ السلوك، ج1، ص504.

(4) حسن المحاضرة، ج2، ص264.

(661هـ/1262م)، ولكن يتفق الجميع أن بنائها اكتمل سنة (662هـ/1263م)، ويسميها السيوطي المدرسة الظاهرية القديمة تميزاً لها عن المدرسة الظاهرية التي أنشأها السلطان الظاهر برقوق عام (786هـ/1384م).

لقد عني السلطان الظاهر بيبرس بهذه المدرسة أكبر عناية وأوقف عليها أوقافاً عدة، والحق بها خزانة كتب جليلة تحوي أمهات الكتب في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم الأيتام والفقراء القرآن الكريم، وأجرى عليهم الطعام والشراب ورتب بها دروساً في المذاهب الأربعة والقراءات، وعندما أتم تشييدها أفتتحها باحتفال كبير مدت فيه الأسمطة، وجلس كل أهل درس في الإيوان الخاص بهم، وأفيضت عليهم الخلع، وكان يوماً مشهوداً تناظر فيه العلماء والشعراء[1].

يصفها المقريزي[2] "...بأنها من أجل مدارس القاهرة إلا أنها تقادم عهدها فرثت"، و بها إلى الآن بقية صالحة، ونظرها تارة بيد الحنفية وتارة بيد الشافعية، وقد هدم أكثرها واعتدى الناس على أرضها وأدخلوها في أملاكهم، كما دخل جزء منها في شارع بيت القاضي، ولم يبق منها اليوم إلا الإيوان الشرقي ويعرف الآن باسم جامع الظاهر[3].

المدرسة المجدية الخليلية:

بنيت بموضع يعرف بدرب البلاد (مصر العتيقة) عمرها الشيخ الإمام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز الخليلي سنة (663هـ/1264م)، قرر بها مدرساً

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص504.

(2) الخطط، ج2، ص379.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص379/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص264/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص108/ باشا، المرجع السابق،ج6، ص9/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص41.

للشافعية ومعيدين وعشرين طالباً، ومؤذنا وإماماً وقيماً لكنسها وفرشها وعدة موظفين لخدمتها وأوقف عليها جملة من الأوقاف، وقد تولى التدريس بها زمناً ابن مؤسسها وهو الصاحب الوزير فخر الدين عمر، توفي مؤسسها سنة (680هـ/1281م) [1].

المدرسة الفارقانية:

كانت تقع في القاهرة بجوار سويقة حارة الوزيرية، أنشأها أق سنقر الفارقاني* السلحدار**، فتحت سنة (676هـ/ 1277م) وخصص فيها درساً للشافعية وأخر للحنفية[2].

المدرسة الصحابية:

كانت تقع بالقاهرة بسويقة الصاحب، أنشأها الصاحب صفي الدين عبد الله ابن على بن شكر وجعلها وقفاً على المالكية، وبها درس نحو، وخزانة كتب، ظلت بعد وفاته سنة (622هـ/1225م) بيد أولاده حتى سنة (758هـ/1356م)، جدد عمارتها القاضي علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف المعروف بابن الزبير ناظر الدولة** في أيام الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون إذ أستجد فيها منبراً وصار يصلي فيها الجمعة[3].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص371/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص41.

* كان مملوكاً للأمير نجم الدين ثم انتقل إلى السلطان الظاهر بيبرس، فترقى عنده حتى صار أحد الأمراء الأكابر ولاه نيابة السلطنة في عهده واستقر في عهد السلطان السعيد بركه قتل على يد الخاصكية سنة (676هـ/ 1277م) ولم يعرف مكان قبره، المقريزي، الخطط، ج2، ص369.

** السلحدار: لقب للذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمره السلاح خاناه وما يتبعه، دهمان، المرجع السابق، ص91.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص374/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص41.

*** ناظر الدولة: هو المسئول عن كل ما يقوم به الوزير ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه ويوقع تبعاً له، وهي وظيفة جليلة رفيعة القدر، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص29.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص381.

المدرسة المهذبية:

أنشئت خارج باب زويلة بخط حارة حلب، أنشأها الطبيب مهذب الدين أبو سعيد بن أبي الوحش المعروف بأبي حليقة* رئيس الأطباء بمصر سنة(684هـ/1285م) واستقر مدرس للطب بالمارستان المنصوري[1].

المدرسة المنصورية:

تم بناؤها بخط بين القصرين فيذُكر" أن السلطان المنصور قلاوون اشترى الدار القطبية**وما يجاورها من خالص ماله السلطان وعوض سكانها بالقصر المعروف بقصر الزمرد"[2]، أنشأها السلطان الملك المنصور على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، أنشأ بجوارها مارستاناً وقبة، أتم بنائها سنة (683هـ/ 1284م)، يذكر النويري[3] "...أنه إذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة وسمع أنها عمرت في هذه المدة القريبة ربما أنكر ذلك ".

رتب بها دروساً في المذاهب الأربعة ودرساً في الطب، ورتب في قبته المجاورة لها درساً للحديث والتفسير والقرآن الكريم وميعاداً للوعظ، وعني باختيار

---

* عرف بأبي حليقة لوضعه حلقة في أدنه وكان سبب اشتهاره بأبي حليقة أن الملك الكامل محمد بن العادل طلب من خادمه أن يستدعيه وكان هو مع جماعة من الأطباء على الباب فقال الخادم من منهم فقال السلطان أبو حليقة فنادى عليه الخادم بذلك فاشتهر به، المقريزي، الخطط، ج2، ص369.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص369.

(2)النويري، المصدر السابق، ج32، ص70.

** الدار القطبية: نسبة إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر أيوب فقد ظلت في ورثته حتى أخذها السلطان المنصور قلاوون، وكانت في الأصل قاعة ست الملك ابنة الملك العزيز بالله الفاطمي، العيني: بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب القومية، القاهرة، ط2، 2007م، ج3، ص114.

(3) المصدر السابق، ج32، ص70.

مدرسيها عناية تامة وزودت بخزانة كتب عظيمة[1]، وجعل عليها أوقافاً جليلة من قياسر وحوانيت وحمامات وفنادق وأحكار وغيرها الكثير، كما جعل لها ثلاثة معيدين جعل لكل منهم خمسة وسبعون درهماً، وجعل بها خمسين طالباً، جعل لهم المرتبات الشهرية، كذلك بقية الموظفين بها[2].

كما كانت العملية التعليمية داخل المدرسة منظمة، كذلك أماكن سكن الطلبة والمدرسين والفقهاء، حيث كان المدرسون الأربعة يسكنون في قاعة المدرسة، والطبقات الثلاث والفقهاء يتم سكناهم في البيوت العلوية بالمدرسة وعدتها سبعة وعشرون بيتاً[3]، فهذه المدرسة كانت بمثابة الجامعات في الوقت الحالي.

القبة المنصورية:

موقعها اتجاه المدرسة المنصورية، أنشأها السلطان المنصور قلاوون وجعلها لنفسه وأبدع في بنائها وزخرفتها، وقد أعدت لتكون مقبرةً له وفعلاً دفن بها هو وبعض أولاده، ابتدأ في عمارتها مع المدرسة والمارستان أي في نفس السنة[4]، رتب فيها دروساً للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرساً في الحديث وأخر في التفسير والوعظ[5]، وفيها قراءً يتناوبون القراءة طوال الليل والنهار، وفيها إمام راتب يصلي بالقراء والخدم وغيرهم من العاملين بها الصلوات الخمس، كما جعل بها مدرساً للحديث والتفسير ومعيداً وطلبته[6].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص380/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص264/ ماهر، المرجع السابق، ج3، ص69.

(2) النويري، المصدر السابق، ج32، ص70-80-84.

(3) الحداد: محمد حمزة إسماعيل، السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1998م، ص51.

(4) المقريزي، الخطط،ج2، ص380.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص380.

(6) النويري، المصدر السابق، ج32، ص83-84.

كذلك بها خزانة كتب عظيمة الشأن يصفها النويري[1] بأنه "... رُتب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً والخزانة كتبها من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعر شيء كثير"، كما يقول المقريزي[2] "...بأنها جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وقد دهب معظم هذه الكتب وتفرق بين أيدي الناس"، وقد جعل المرتبات لجميع موظفيها جارية وعني بتزويدها بما تحتاج إليه من أدوات وأثاث وما إلى ذلك[3].

تعد هذه القبة بمثابة المدرسة لذلك تم ذكرها خلال هذا البحث مع المدارس لما تتمتع به من ميزات تشبه إلى حد كبير المدارس في ذلك العصر.

المدرسة الحسامية:

كانت تقع بخط المسطاح بالقاهرة بحارة الوزيرية، بناها الأمير حسام الدين طرنطاي* نائب السلطنة في عهد السلطان المنصور قلاوون[4]، أما عن تاريخ إنشائها فلم يذكر في المصادر ولكن إحدى المراجع[5] تذكر أنه نقش على قبر طرنطاي أنه توفي سنة (689هـ/1290م)، وبما أن الأمير حسام الدين قد قتل بعد

---

(1) المصدر السابق، ج32، ص44.

(2) الخطط، ج2، ص380.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1،

* طرنطاي: رباه السلطان المنصور قلاوون صغيراً ورقاه في خدمته حتى تقلد قلاوون السلطنة فجعله نائب السلطنة بمصر سنة (678هـ/1279م) ظل في مركزه ، لكن بعد وفاة السلطان المنصور تركه الأشرف صلاح الدين بن خليل بن قلاوون في منصبه أياماً، ثم قام بقتله لنقمته عليه في عهد والده لقربه من والده فكان ذلك سنة (689هـ/1290م)، المقريزي، الخطط، ج2، ص386.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص386.

(5) ماهر، المرجع السابق، ج3، ص80-81.

وفاة السلطان المنصور قلاوون بثمانية أيام فهذا يعني أنه بنى هذه المدرسة في عهد السلطان المنصور قلاوون أي قبل وفاته مباشرةً في سنة (689هـ/1290م)، وقد خصصت هذه المدرسة لفقهاء الشافعية.

المدرسة المنكوتمرية:

بنيت بحارة بهاء الدين بالقاهرة، بناها الأمير منكوتمر الحسامي نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين المنصوري، أنهى بنائها سنة (698هـ/1298م)، ورتب فيها درساً للمالكية وأخر للحنفية، كما جعل فيها خزانة كتب وجعل عليها وقفاً وهي ضيعة ببلاد الشام، والمقريزي يقول[1] "..أنها اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها وأمرها متلاشٍ وهي من المدارس الحسنة".

المدرسة القراسنقرية:

هي تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء بين رحبة العيد وباب النصر، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين المنصوري قبل النائب منكوتمر، بناها سنة (700هـ/ 1300م) وبنى بجوارها مكتباً لتعليم الأيتام وجعل بها درساً للفقهاء ووقف عليها داره التي بحارة بهاء الدين، كان نظرها بيد ذرية الواقف حتى سنة (815هـ/ 1412م) ثم انقرضوا، وهي من المدارس المشهورة وكان ينزل بها من قدم من الشام، وقد بطل ذلك سنة (703هـ/1388م)[2].

---

(1) الخطط، ج2، ص387.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص388/ باشا، المرجع السابق، ج6، ص13.

المدرسة الناصرية*:

تقع بخط بين القصرين شرق القبة المنصورية، بناها السلطان الملك العادل كتبغا المنصوري ابتدأ في بنائها ثم خلع قبل تمامها، فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته في ولايته الثانية بإكمال بنائها وكان ذلك سنة (703هـ/1303م) وقد عني بزخرفتها وتزويدها بالرخام البديع وصنع لها باب من الرخام الأبيض البديع دقيق الصنع، أصل هذا الباب من إحدى الكنائس بعكا، نُقِل إلى مصر بعد أن هدم الأشرف خليل بن قلاوون أسوارها، كما أوقف عليها الناصر محمد أوقافاً عدة من دور وحوانيت، ونظم بها حركة التدريس فقرر درساً يلقى لكل من المذاهب الأربعة، وأجرى على مدرسيها وطلبتها الأرزاق الوفيرة، ورتب بها إماماً يؤم الناس في الصلوات الخمس وزودها بخزانة كتب جليلة[1].

يقول المقريزي[2]"... أدركتُ هذه المدرسة وهي محترمة للغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية** فلا يمكن لغريب أن يصعد إليها، وكان يفرق بها على كل الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف السكر في كل شهر ولحوم الأضاحي في كل سنة، وقد بطل ذلك وذهب ما كان لها من الناموس وهي اليوم عامرة من أجل المدارس".

---

*هي غير المدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبة الشافعي وغير المدرسة الناصرية التي بجوار الجامع العتيق.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص382/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص265.

(2) الخطط، ج2، ص382.

** الطواشية: جمع طواشي وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة السلطان وحريمه والأمراء، كما تطلق هذه الكلمة على المسئولين عن تربية المماليك وتعليمهم القتال ويحمل الاثنان نفس الاسم مع العلم أن فرق الطواشية المقاتلة والمربية كانتا موجودتين حتى في العهد الأيوبي لذلك لا يمكن التفريق بين المعنيين إلا =

المدرسة الطيبرسية:

موقعها بجوار الجامع الأزهر من الناحية الغربية، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس، الذي كان نقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين المنصوري، توفي سنة (719هـ/1319م)، أتم بنائها سنة (709هـ/1309م) وكانت من أحسن المباني وأجملها قرر بها درساً للشافعية وأوقف عليها أوقافاً عدة[1].

فالمقريزي يقول[2] "... أن أوقافها تداولتها أيدي نظار السوء فخرب أكثرها وبقيت هذه المدرسة عمرها الله بذكره"، كما جعل الأمير علاء الدين بها مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً وقرن الإمامة لمعيد الشافعية وعمر بجانبها مكتباً للسبيل وشرط لكل مدرس ستين درهماً ولمعيد الشافعية والمالكية أربعين درهماً في الشهر[3].

المدرسة الجاولية:

أنشئت بجوار قلعة الكبش، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة (723هـ/1323م)، أوقف عليها عدة أوقاف وعمل بها درساً للصوفية، توفي هذا الأمير سنة (745هـ/1344م) ودفن بمدرسته هذه[4].

المدرسة المهمندارية:

تم بناؤها خارج باب زويلة بين جامع الصالح وقلعة الجبل يعرف خطها الآن

= في سياق الكلام، انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص12/ الجزار: هاني فخري عطية، النظام العسكري في دولة المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م، ص27.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص383/ ماهر، المرجع السابق، ج3، ص123.

(2) الخطط، ج2، ص383.

(3) ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص96.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص383/ السخاوي الحنفي، المصدر السابق، ص89.

بالمارداني، بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزي المهمندار* في سنة (725هـ/1324م)، وزودها بخزانة كتب وجعلها وقفاً على الفقهاء الحنفية وقد جعلها مدرسة وخانقاه[1].

المدرسة الأقبغاوية:

موقعها بجوار الجامع الأزهر على يسار الداخل جهة الباب البحري، أنشأها الأمير عبد الواحد إستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة (740هـ/1324م) وجعل بجوارها قبة ومنارة، تولى بناءها المعلم ابن السيوفي رئيس المهندسين في عهد الناصر محمد، ويذكر أن منشئها كان جائراً ظالماً في بنائها لاغتصابه لأرضها من مالكيها، كذلك تشغيل العمال فيها كل يوم ويوماً في الأسبوع دون أجر لذلك يقول المقريزي[2] " أن هذه المدرسة مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد ولا أنس في بيوت العبادات".

عندما اكتمل بنائها جمع بها سائر الفقهاء، وجميع القضاة وقرر فيها درساً للشافعية وأخر للحنفية، كما جعل بها عدد من الصوفية وقرر بها طائفة من القراء يقرؤون القرآن الكريم بشباكها وجعل لها إماماً راتباً واشترط عليه في كتاب وقفه ألا يلي أحد من ذريته وقفها من بعده، وأوقف عليها عدة أوقاف وهذه المدرسة ظلت عامرة حتى عهد المقريزي[3].

---

* المهمندار: وظيفته استقبال الرسل الواردين و أمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص22/ كذلك هي لفظ فارسي وهو من يستقبل الرسل الوافدين ويسهر على خدمتهم وراحتهم والكلمة الفارسية أصلها (مِهْمِنْ) بمعنى الضيف أو المسافر و (دار) مخففة من (دارنده) بمعنى صاحب، انظر دهمان، المرجع السابق، ص147.

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص399.

(2) الخطط، ج2، ص384.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص384.

المدرسة الخروبية الأولى:

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر تجاه المقياس بخط كرسي الجرس أنشأها كبير الخراربية بدر الدين محمد بن محمد بن علي الخروبي بعد سنة (750هـ/1349م) وجعل بها مدرس للفقه ومعيداً له وشرط ألا يلي وظائفها أحد من الأعاجم بل العرب فقط، توفي سنة (760هـ/ 1360م) [1].

المدرسة الخروبية الثانية:

تقع في مدينة مصر (مصر القديمة) على شاطئ النيل، أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين بن علي الخروبي المتوفي سنة (785هـ/ 1383م)، أوقف عليها أوقافاً ورتب بها مدرساً للحديث[2]*.

المدرسة الصرغتمشية :

أنشئت ارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبي العباس ابن طولون بينه وبين قلعة الجبل أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري رأس نوبة النوب** ابتدأ في عمارتها سنة (756هـ/ 1355م)، وانتهت سنة (757هـ/ 1356)، وكانت من أبدع المباني وأجملها، افتتحت هذه المدرسة سنة (757هـ/ 1356م) بحضور مؤسسها

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص368.

(2) الخطط، ج2، ص369.

* تجدر الإشارة أنه كان هناك ثلاث مدارس تعرف بالخروبية الأولى أنشأها بدر الدين الخروبي المتوفي سنة (760هـ/ 1360م)، والثانية أنشأها تاج الدين الخروبي المتوفي سنة (785هـ/1383م)، والثالثة أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين الخروبي المتوفي سنة (776هـ/ 1374م) قبل تمامها ويذكر علي باشا مبارك أن هذه المدرسة أكبر من سابقاتها ويعتقد أن هذه المدرسة هي الضريح المعروف اليوم بضريح شاهين المغربي، انظر باشا، المرجع السابق، ج6، ص7.

** رأس نوبة النوب: هي وظيفة ذات قدر عالي وأهمية بالنسبة للوظائف العسكرية إذ يتم اختيار صاحبها من قبل السلطان ومن خاصكيته، انظر القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص24.

والأمير سيف الدين شيخو وكبار الدولة وقضاة ومشايخ العلم، وقد أقيمت في هذه الحفلة مائدة حافلة وأكل المدعون ما شاءوا والباقي أبيح للعامة، كما رتب فيها درساً للحنفية ودرس أخر للحديث وأجرى لهم جميعاً المعاليم من وقف رتبه لهم[1].

مدرسة السلطان الناصر حسن*:

أقيمت تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل، ابتدأ في عمارتها سنة (758هـ/ 1356م) استمر العمل فيها ثلاث سنوات[2]، وهي تعد من أجمل المدارس ذلك "... بأنها من أعجب البنيان فهي عملت في أحسن قالب وأضخم شكل فلا يعرف في بلاد المسلمين مثلها"[3]، كما يذكر ابن شاهين الظاهري[4] "...أن الملك الناصر حسن أمر بعمارة مدرسة لا يكون قد عمر أعلى منها على وجه الأرض.. وطلب في عمارتها جميع المهندسين من أقطار الأرض، وسألهم أي الأماكن أعلى في الدنيا في العمائر فقالوا له إيوان كسرى أنوشروان فأمر أن يقاس ويحرر وتعمر المدرسة أعلى منه بعشرة أدرع"، جعل بها أربع مدارس بدور قاعة الجامع، كما جعل عليها أوقافاً جليلة وعظيمة لا حصر لها[5].

ظلت مدرسة السلطان حسن فترة طويلة من الزمن مغلقة لا تؤدى فيها وظيفة التدريس ولا شعيرة الصلاة وذلك لأن المماليك قد اتخذوا منها حصناً يدافعون به عن

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص404/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص268/ السخاوي الحنفي، المصدر السابق، ص89.

* هذه المدرسة وردت في بعض المصادر مثل المقريزي على أنها جامعاً بينما يذكر ابن شاهين والسيوطي وابن تغري بردي أنها مدرسة والمرجح أنها كذلك.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص306/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص269.

(3)المقريزي، الخطط، ج2، ص316.

(4) المصدر السابق، ص31.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص316.

أنفسهم ضد أعدائهم بالقلعة، فقد حدث سنة (791هـ/1389م) في عهد السلطان برقوق أن نصب المماليك المدافع أعلى المدرسة ورموا بها على سلاسل القلعة فأمر السلطان برقوق سنة (793هـ/1391م) بهدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة، لما تولى السلطان المؤيد شيخ صرّح سنة (825هـ/1422م) بالأذان فيها وأعيد بناء سلمها وركب بها باباً عوضاً عن بابها الذي أخذه لجامعه الذي أنشأه بباب زويلة، ولكن في سنة (842هـ/1438م) أمر السلطان جقمق بهدم السلالم الموصلة إلى المئذنة[1].

في عهد السلطان أبي النصر أينال أزيلت قبتها لتصدع حدث بها سنة (858هـ/ 1454م)، في سنة (903هـ/ 1498م) قام الأمير طومان باي الداودار بتجديد جدران المدرسة وأصلح ما تلف منها[2]، وعندما تولى السلطان العادل طومان باي أمر بترميم المدرسة[3].

هذه أهم مراحل المدرسة أما عن نظام التدريس فقد جعل السلطان حسن قراءً يحضرون أربعة أيام في الأسبوع منها يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، كما جعل بها مادحاً ودرساً للحديث، والقراءات السبع وجعل بها حفاظاً لتحفيظ الناس القرآن الكريم في الإيوان القبلي، كما جعل بها إماماً ومؤذنين، وجعل بها عشرين فراشاً كل عشرة يخدمون يوماً وستة بوابين، كذلك بها مكتبين لتعليم الأيتام وجعل بها مؤدبين وعريفين ومائة يتيم يتعلمون الخط والقرآن الكريم، وقرر للأيتام ثلاثة آلاف درهم نقرة لنفقتهم وكسوتهم، وإذا أتم اليتيم حفظ القرآن يعطى خمسين درهماً

---

(1) الخطط، ج2، ص317/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص21.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص341.

(3) ماهر، المرجع السابق، ج2، ص286-287.

أنفسهم ضد أعدائهم بالقلعة، فقد حدث سنة (791هـ/1389م) في عهد السلطان برقوق أن نصب المماليك المدافع أعلى المدرسة ورموا بها على سلاسل القلعة فأمر السلطان برقوق سنة (793هـ/1391م) بهدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة، لما تولى السلطان المؤيد شيخ صرّح سنة (825هـ/1422م) بالأذان فيها وأعيد بناء سلمها وركب بها باباً عوضاً عن بابها الذي أخذه لجامعه الذي أنشأه بباب زويلة، ولكن في سنة (842هـ/1438م) أمر السلطان جقمق بهدم السلالم الموصلة إلى المئذنة[1].

في عهد السلطان أبي النصر أينال أزيلت قبتها لتصدع حدث بها سنة (858هـ/ 1454م)، في سنة (903هـ/ 1498م) قام الأمير طومان باي الداودار بتجديد جدران المدرسة وأصلح ما تلف منها[2]، وعندما تولى السلطان العادل طومان باي أمر بترميم المدرسة[3].

هذه أهم مراحل المدرسة أما عن نظام التدريس فقد جعل السلطان حسن قراءً يحضرون أربعة أيام في الأسبوع منها يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، كما جعل بها مادحاً ودرساً للحديث، والقراءات السبع وجعل بها حفاظاً لتحفيظ الناس القرآن الكريم في الإيوان القبلي، كما جعل بها إماماً ومؤذنين، وجعل بها عشرين فراشاً كل عشرة يخدمون يوماً وستة بوابين، كذلك بها مكتبين لتعليم الأيتام وجعل بها مؤدبين وعريفين ومائة يتيم يتعلمون الخط والقرآن الكريم، وقرر للأيتام ثلاثة آلاف درهم نقرة لنفقتهم وكسوتهم، وإذا أتم اليتيم حفظ القرآن يعطى خمسين درهماً

---

(1) الخطط، ج2، ص317/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص21.

(2) ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص341.

(3) ماهر، المرجع السابق، ج2، ص286-287.

ويعطى مؤدبه خمسين درهماً أيضا، كما جعل بها أطباء مسلمين للاهتمام بالناحية الصحية لأهل المدرسة أحدهما طبائعي والأخر كحال كما عين بها جراحاً، وقرر أن يصرف في كل سنة قيمة ألف قميص وألف طاقية وألف مداس، تفرق على الطلبة وأرباب الوظائف والفقراء، كما قرر لهم الطعام المطبوخ من لحم وأرز وعدس كل ليلة جمعة والعسل والحبوب غير ذلك بحيث يصرف نصفه على من بالمدرسة ونصفه الأخر يفرق على الفقراء والمساكين[1].

كما حدد في وقفيته كل ما يخص الطلبة والمدرسين والخدم حيث جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدين ورتب لكل شيخ ثلاثمائة درهم نقرة في الشهر ولكل معيد مائة درهم نقرة، كما خصص للطلبة مرتبات شهرية، وكان هناك تمييز لطالب في كل فرقة وذلك بإعطائه فوق راتبه الشهري عشرون درهماً نقرة لكونه نقيباً عليهم كما عني السلطان بتخصيص المدرسين فرتب مدرساً لكتاب الله وتفسيره ومعه ثلاثين طالباً يصرف لكل منهم عشرة دراهم نقرة، ورتب مدرساً للحديث النبوي وجعل له ثلاثمائة درهم ورتب لها قارئاً يكون اهلاً لقراء الحديث الشريف غير ذلك الكثير[2].

مما سبق ذكره نلاحظ أن هذه المدرسة كانت بمثابة الجامعة في الوقت الحاضر من حيث حجمها واتساعها وعدد العاملين بها والدارسين فيها وتنوع المناهج المقررة إضافة لوجود مكتبين لتعليم الأيتام كل ذلك فيه دلالة على التقدم العمراني والثقافي والعلمي الذي شهده العصر المملوكي.

---

(1) باشا، المرجع السابق، ج4، ص84.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص84/ ماهر، المرجع السابق، ص287.

المدرسة الحجازية:

موقعها برحبة باب العيد بالقاهرة بجوار قصر الحجازية، كان موضعها باب من أبواب القصر يعرف بباب الزمرد، أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهي زوجة الأمير بكتمر الحجازي، تم بنائها سنة (761هـ/1359م)، رتبت بهذه المدرسة درساً للشافعية وأخر للمالكية وإماماً، كما زودتها بخزانة كتب وأنشأت بجوارها قبة من داخلها رتبت فيها عدد من القراء يتلون القرآن الكريم[1].

كذلك ألحقت بها مكتباً يتعلم فيه الأيتام القرآن الكريم وجعلت لهم مؤدب يقوم بذلك وأجرت عليهم في كل يوم الخبز ومبلغ من المال وكسوة في الشتاء والصيف، وأوقفت على كل ذلك أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، وكان بهذه المدرسة طواشية لتنظيمها، كذلك كان لا يلي نظرها إلا الأمراء الأكابر في أول الأمر ولكن بعد ذلك صار يليها الخدام وغيرهم[2].

في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق عمر بجانب هذه المدرسة الأمير جمال الدين الأستادار داره ثم مدرسته فصار يحبس في المدرسة الحجازية من يعاقبه حتى امتلأت بالمسجونين، واقتدى بجمال الدين كل من سكن بعده من الأستادارية في داره وجعلوا هذه المدرسة سجناً فزالت أبهتها، ومع ذلك فهي من أبهج مدارس مصر[3].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص382-383.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص383.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص47.

المدرسة البشيرية:

كانت خارج القاهرة بحكر الخازن المطل على بركة الفيل، أنشأها الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري سنة (761هـ/ 1359م) وجعل بها خزانة كتب[1].

مدرسة الجاي:

تقع هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاي سنة (768هـ/1366م)، جعل بها درساً للشافعية ودرساً للحنفية، كما زودها بخزانة كتب وأقام بها منبر يخطب عليه يوم الجمعة ويقول المقريزي[2] "... أنها كانت من المدارس الجليلة".

مدرسة أم السلطان:

بنيت خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، أنشأتها السيدة بركة أم السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة (771هـ/1369م)، جعلت بها درساً للشافعية ودرساً للحنفية وهي من المدارس الجليلة[3].

المدرسة البوبكرية:

هذه المدرسة بجوار درب العباسي بالقاهرة، أنشأها الأمير سيف الدين اسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكري الناصري، في سنة (772هـ/ 1370م) بنى بجانبها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتب للأيتام وجعلها وقفاً على الحنفية[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص399.

(2) الخطط، ج2، ص399/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص48.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص400.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص390.

المدرسة البقرية:

أنشئت في الزقاق المواجه لباب الجامع الحاكمي المجاور لمنبره أنشأها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقري المتوفي عام (772هـ/1370م)، كان ابن البقري ناظراً للذخيرة والأوقاف وغيرهما في عهد السلطان الناصر حسن، جعل بها درساً للشافعية وميعاداً للوعظ ووظف بها عدداً من كبار الفقهاء في سنة(824هـ/ 1421م) أستجد فيها منبر وأقيمت بها الجمعة[1].

المدرسة المسلمية:

أقيمت بمدينة مصر بخط السورين أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم توفي سنة (776هـ/1374م) قبل إكمالها فوصى بتكملتها وأفرد لها مالاً وأوقافاً وهي دوراً وأرضاً بناحية قليوب، وشرط أن يكون فيها مدرس مالكي وأخر شافعي ومؤدب أطفال وغير ذلك، أكمل بنائها مولاه ووصيه الكبير كافور الخصي ظلت عامرة حتى عهد المقريزي[2].

المدرسة الملكية:

هذه المدرسة بخط المشهد الحسيني من القاهرة أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل الملك الجوكندار* تجاه داره عمل فيها درساً للفقهاء الشافعية وخزانة كتب معتبرة وجعل لها عدة أوقاف وهي كانت من المدارس المشهورة[3].

المدرسة السابقية:

كانت داخل قصر الخلفاء الفاطميين قريباً من خط بين القصرين بالقاهرة،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص391.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص401.

* الجوكندار: هو حامل الجوكان للملك ليلعب بالكرة، انظر دهمان، المرجع السابق، ص58.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص392.

أنشأها مقدم المماليك السلطانية الأشرفية الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي المتوفي سنة (776هـ/1374م) رتب بها درساً للفقهاء الشافعية وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين(1).

مدرسة ابن عرّام:

موقعها بجوار جامع الأمير حسن بحكر جوهر النوبي خارج القاهرة أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام، وكان من فضلاء الناس ومهتماً بالتاريخ وشارك في علوم عدة توفي سنة (786هـ/1384م) (2).

المدرسة الظاهرية الجديدة أو (البرقوقية):

هذه المدرسة بخط بين القصرين في شارع النحاسين بين مدرستي الناصرية و الكاملية أنشأها السلطان الظاهر برقوق، ابتدأ في عمارتها سنة (783هـ/1381م) أفتتحها السلطان برقوق باحتفال عظيم شهده الأمراء والقضاة والقراء ومد لهم مائدة حافلة، وخلع على المهندسين وجميع العمال الذين اشتركوا في بنائها مع قدر من المال، وقد أسند مشيختها إلى العلامة علاء الدين السيرمي مدرس الحنفية بها وشيخ الصوفية، وقد بالغ السلطان في تعظيمه حتى فرش سجادته بيده وجعل الشيخ وحيد الدين الرومي مدرساً للشافعية، وشمس الدين ابن مكين مدرس للمالكية وصلاح ابن الأعمى مدرس الحنابلة، وأحمد زاده العجمي مدرس للحديث وفخر الدين الضرير مدرساً للقراءات، وجعل فيها الشيخ سراج الدين البلقيني مدرس التفسير وشيخ الميعاد(3).

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص 394.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص394/ باشا، المرجع السابق، ج6، ص2.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص271/ باشا، المرجع السابق، ج6، ص4/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص57.

المدرسة الأيتمشية:

كانت بجوار جامع الأمير حسن بحكر جوهر النوبي خارج القاهرة، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسي الظاهري سنة (785هـ/1383م)، رتب فيها درساً للحنفية، وبنى فندقاً يعلوه ربع من ورائها، ويصفها المقريزي[1]" بأنها مدرسة ظريفة".

مدرسة أينال:

تقع خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية بخط القماحين، أوصى بعمارتها الأمير الأتابكي سيف الدين أينال اليوسفي أحد المماليك اليلبغاوية، ابتدأت عمارتها سنة (794هـ/1391م)، واكتمل بنائها سنة (795هـ/1392م)، "...ولم يعمل فيها إلا قراء القرآن الكريم، كانوا يتناوبون على قبره، ذلك أنه لما مات دفن خارج باب النصر ثم نقل إلى مدرسته بعد أن كملت عمارتها ودفن فيها"[2].

المدرسة الزمامية:

موقعها بخط رأس البندقانيين من القاهرة، وهى على مقربة من المدرسة الصاحبية حتى أن المقريزي[3]" يصف المسافة بأنها دون مدى الصوت، إذ يسمع كل من صلى بالموضعين تكبيرة الأخر"، بناها الأمير الطواشي زين الدين مقبل الرومي الزمام في عهد الظاهر برقوق، فكان ذلك سنة (797هـ/1394م)، وجعل فيها درساً للصوفية ومنبراً يخطب عليه كل جمعة.

---

(1) الخطط، ج2، ص400.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص401.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص494.

مدرسة الأمير جمال الدين الإستادار:

موقعها برحبة باب العيد، أنشأها الأمير جمال الدين محمود الأستادار، الذي أعدمه السلطان عام (812هـ/1409م)، بدأ في بنائها سنة (810هـ/1407م) يذكر المقريزي[1] "..أنه كان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بقية من شبابيك وأبواب مصفحة ومصاحف وكتب في الحديث والفقه وغير ذلك من أنواع العلوم فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجي بن الأشرف ونقلها إلى داره".

ويصف المقريزي[1] المصاحف "... بأن طول كل مصحف أربعة أشبار إلى خمسة في عرض يقرب من ذلك ولها جلود في غاية الحسن، ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال".

اكتمل بناؤها سنة (811هـ/1406م) واحتفل الأمير جمال الدين بافتتاحها ومد سماطاً جليلاً للمحتفلين وكان يوماً مشهوداً، وقرر فيها درساً للحنفية وأخر للمالكية ودرساً للحنابلة والحديث النبوي والتفسير وأنشأ قسماً لتحفيظ القرآن وتأديب الصغار، كما جعل عند كل من المدرسين السته طائفة من الطلبة وأجرى لكل واحد منهم ثلاثة أرطال من الخبز كل يوم، وثلاثين درهماً فلوساً في كل شهر وجعل لكل مدرس ثلاثمائة درهم في كل شهر ورتب بها إماماً وقيماً ومؤذنين وفراشين ومباشرين وأكثر من الأوقاف عليها وجعل فائض وقفها لعائلته مصروفاً فكانت من أحسن المدارس[3].

لكن لما بطش الملك الناصر فرج بن برقوق بمؤسسها جمال الدين سنة(818هـ/1409م) هم بهدم هذه المدرسة و الاستئثار بأوقافها فأقعده عن ذلك

---

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص403.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص403.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص403-404.

كاتب سره* فتح الدين فتح الله وكره إليه هذا العمل، ثم تحايل وعاونه في تحايله بعض الفقهاء والقضاة حتى غير معالم هذه المدرسة وأزال منها كل ما يدل على منشئها وكتب مكانه اسمه ووضع علاماته الخاصة حتى اسم المدرسة غيره وأطلق عليها اسم الناصرية، ولكن بعد زوال حكم برقوق استطاع ورثة جمال الدين بمساعدة الملك المؤيد شيخ وبعض القضاة رد بعض ما سلبه منهم السلطان فرج[1].

مدرسة فرج بن برقوق:

أنشئت المدرسة خارج مدينة القاهرة إلى الشمال من قلعة الجبل فيما بين سور المدينة الشرقي وجبل المقطم[2]، أنشأها السلطان فرج بن برقوق وكان " ... الناس يضنون أن منشئها هو الظاهر برقوق قبل موته لذلك كانوا يسمونها الظاهرية ولكن الذي عمرها هو السلطان الناصر فرج بعد موت أبيه"[3].

أنشأها السلطان الناصر فرج بناءً على وصية والده الذي ترك مبلغاً كبيراً من المال مقداره ثمانون ألف دينار لبنائها ويبني بما تبقى عقاراً يكون وقفاً عليها[4]، بدأ بإنشائها بعد وفاة الظاهر برقوق مباشرة في أواخر عام (801هـ/1398م) وتاريخ انتهائها كان في أوائل عام (813هـ/1410م)[5].

---

* وظيفته قراءة الكتب الواردة على السلطان وأخذ خط السلطان عليها وتفسيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القضايا بدار العدل والتوقيع عليها، كما أنه يوقع بقلم الوزارة ويراجع السلطان فيما يحتاج للمراجعة في الأمور الأخرى، ينظر القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص30.

(1)المقريزي، الخطط، ج2، ص404.

(2)المقريزي، السلوك، ج5، ص447.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص64.

(4) المصدر نفسه، ج13، ص63.

(5) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص273/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13،ص64.

تم افتتاحها مطلع العام (813هـ/1410م) إذ تذكر المصادر أن السلطان توجه إليها وجلس هو والحضور من الأمراء والمشايخ والقضاة، قرر في تلك الأثناء نظام المدرسة وشروط وقفها فقرر لها فقيهاً يتولى مشيختها إلا أنه لم يشترط أن يكون منتمياً لمذهب معين، فقد تولاها فقيه حنفي المذهب، ثم تولاها شيخ من المذهب المالكي[1]، ورتب بها أربعين طالباً من المتصوفة وأجرى عليهم في كل يوم الخبز واللحم، ورتب بها سبعة دروس لأهل العلم أربعة يلقون بها الفقه على المذاهب الأربعة، بالإضافة إلى التفسير والحديث ودرس للقراءات وأوقف عليها أوقافاً جليلة[2].

مدرسة قايتباي:

أقيمت هذه المدرسة بالصحراء خارج القاهرة حيث القرافة الكبرى أنشأها السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي عند توليه السلطنة يذكر ابن إياس[3] "...أن الشروع في بنائها كان سنة (874هـ/ 1469م)"، اكتمل بناؤها سنة (877هـ/1472م) وأنشأ بجوارها سبيلاً ومكتباً وحوضاً وساقية"[4].

يصف ابن إياس[5] يوم افتتاحها "...بأنه كان حافلاً وحضره الأمراء والقضاة الأربعة وأرباب الدولة قاطبة..."، وقد أقيمت شعائر هذه المدرسة لما لها من أوقاف، إذ جعل للإمام في الشهر خمسمائة درهم وفي اليوم ثلاثة أرغفة وللخطيب كذلك، ولتسعة مؤذنين في الشهر ألف وتسعمائة درهم، كما جعل بها مشايخ للصوفية، وقراء لقراءة القرآن الكريم، وجعل بها مكتباً لتعليم الأيتام كتاب الله، وجعل لكل يتيم مائة

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص64.

(2) المصدر نفسه، ج13، ص64/ المقريزي، السلوك، ج5، ص447.

(3) المصدر السابق، ج3، ص100.

(4) باشا، المرجع السابق، ج5، ص71-72/ عبد العاطي، المرجع السابق، ص192-203.

(5) المصدر السابق، ج3، ص100.

درهم شهرياً ورغيفين يومياً، ولمؤدبهم أربعمائة وثلاثة أرغفة، وللعريف مائة درهم، وللجميع كسوة سنوية قيمتها خمسة عشر ألف درهم.

كما قرر أبو عبد الله القلجاني المغربي شيخاً للمدرسة وجعل بها خزانة كتب، وكان عدد الطلبة بها حوالي ثلاثين طالباً أو أربعين، وعدد الأيتام الذين يتعلمون في الكتّاب كانوا قرابة عشرين يتيماً من أطفال المسلمين[1]، لقد كانت هذه المنشأة تقوم بوظيفة المسجد الجامع بالإضافة إلى وظيفة الخانقاه إذ اشترطت حجة وقفها أن يكون من المتصوفة[2].

من خلال ما تقدم يتضح أن العصر المملوكي كان يعد العصر الذهبي في انتشار التعليم نتيجة لهذا الإقبال الكبير الذي اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء والعلماء على حد سواء في انتشار المدارس، حتى كثرت وتعددت بشكل كبير لفت أنظار مؤرخي العصر المملوكي، فسجلت أقلامهم هذه الميزة الفريدة التي امتاز بها ذلك العصر ومما لا شك فيه أن الهدف الأساسي من وراء سياسة الإكثار من المدارس هو خدمة الدين الإسلامي وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية، إضافة إلى ذلك أمعن مؤسسو هذه المدارس في الصرف على بنائها وتوفير الأساتذة الأكفاء وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية وعلى الرغم من تباينها عن مدارس الدولة الأيوبية في الفخامة العمرانية والتقدم العلمي، [إلا أن كل هذه المدارس تتفق في المظاهر المشتركة والأهداف الواحدة]، وكان المدرسون في هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة من قبل السلطان، ورصدت الأوقاف لها وساعدت على ازدهارها واستمرار تأدية رسالتها على أكمل وجه.

---

(1) ابن إياس، المصدر السابق، ج3، ص100.

(2) عبد العاطي، المرجع السابق، ص192-203.

في الحقيقة لقد اهتم المماليك بالمدارس من كافة النواحي فاهتموا بالدروس والمدرسين والطلبة والإجازات وغيرها من أنظمة التعليم المتبعة، لذلك اهتموا بتوفير بيوت لسكن الطلبة فالمقريزي[1] عند حديثه عن المدرسة الصحابية البهائية يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة بهدف الفوز بالسكن في أحد بيوتها التي أعدتها لإقامة الطلبة بل ويقبل الطالب مشاركة أخرين في نفس البيت ولعل في هذا كناية لما وفرته هذه البيوت الداخلية من راحة ورفاهية للطلاب كي يتمكنوا من مواصلة دراستهم براحة نفسية.

بالتالي نرى أنه وجدت في هذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين ليعيشوا بها وتكون المقر الدائم لإقامتهم حتى ينهون دراستهم إلى جانب ما كان يصرف لهم من مرتبات يتعيشون منها، وقد عمرت هذه المدارس بالمدرسين والمعيدين والطلبة والمباشرين والفراشين إلى جانب وجود الإمام والمؤذن لإقامة الصلوات الخمس وكان لكل هؤلاء رواتب ثابتة[2].

فهذه المدارس إضافة لدورها التعليمي كانت تقام فيها الشعائر الدينية والصلوات الخمس أي أماكن للعبادة والإرشاد التهذيبي، ومن هذه المدارس على سبيل المثال المدرسة الصالحية كما تقدم ذكره، كذلك الحال في المدرسة الناصرية التي أسسها الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث أوصى بضرورة وجود الأئمة والمؤذنين والقراء لإقامة الصلوات الخمس وأجرى لهم المرتبات[3].

كل هذا الاهتمام من السلاطين وغيرهم من منشئي هذه المدارس جعل الحصول على منصب في أحد هذه المدارس هدفاً للكثيرين من القضاة ورجال

---

(1) الخطط، ج2، ص374-394.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص400-402-404.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص374-394.

الدولة فيشتد التنافس بينهم للحصول على هذه المناصب المدرسية سواء التدريس أم النظر أو الإشراف فإن وفق أحدهم في الحصول على إحدى الوظائف اجتهد في جعلها وراثية لأبنائه من بعده ثم أحفاده وذريتهم[1]، وهذا كان من بين العوامل التي تسببت في أن يؤول هذا المنصب لمن لا خير فيهم في مجال العلم والتعليم من ذرية المدرس أو الواقف وحرمان الفضلاء من الفقهاء من الارتقاء لهذا المنصب وعدم استفادة الطلبة من علومهم، ذلك أنه حين ينص في وصية الوقف على وراثة الأبناء لآبائهم في وظيفة التدريس يكون من الصعب بعد وفاة الواقف حل هذا الشرط ونتيجة لذلك يصبح من المستحيل على العلماء الوصول إلى مثل هذه الوظائف[2].

إلا أن ذلك لم يقف حجر عثرة أمام تقدم التعليم خاصة أن السلاطين كانوا يهتمون بمتابعة أمور المدرسين والتحقيق معهم إذا لزم الأمر ومحاسبتهم، بالتالي كانت تلك الطبقة الحاكمة حريصة على العلم وطلبه ونشره سنداً قوياً كفل لتلك الحركة العلمية الاستمرار والتقدم.

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص374.

(2) الحجي، صور من الحضارة، ص159.

(ب): مكاتب السبيل:

الكتاب: هو موضع تعليم الصبيان[1]، والجمع كتاتيب ومكاتب وقد اشتق اسمه من التكتيب وتعليم الكتابة[2].

إن مراكز أو مكاتب السبيل تعد من المراكز العلمية المصغرة إلا أنها أسهمت في التربية الأولى لهؤلاء الأولاد خاصة أنها حظيت بعناية سلاطين المماليك عناية فائقة، وذلك لاهتمامهم بالأيتام والفقراء، فحرصوا على إنشاء المكاتب اللازمة لتعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحساب[3]، وقد عمل سلاطين المماليك على إنشاء ديوان لهذه المهمة سمي (ديوان الأيتام)، وعرف القائم عليه باسم (ناظر ديوان الأيتام)[4]، كما عرف أحياناً (بمخزن الأيتام)، وأحياناً (مودع الأحكام)[5]، وهو معد لحفظ أموال الأيتام، وقد أنشأ سلاطين المماليك الكثير من مكاتب السبيل للأيتام والفقراء، واهتموا بحبس الأوقاف عليها للعناية بأمرهم وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم.

جرت العادة عند أصحاب المدارس المملوكية على تأسيس المكاتب ملحقة بالمدارس؛ ولعل السبب في ذلك هو الرغبة في استمرار بقائها فلو أنشئت مستقلة

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص699.

(2) الرباصي: مفتاح يونس، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول، الدار الوطنية للكتاب، بنغازي، ط1، ص2014م، ص65.

(3) الخولي، المرجع السابق، ص136.

(4) ابن الجزري: شمس الدين ابن أبي عبد الله محمد، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف " بتاريخ ابن الجزري"، تحقيق: عمر عبد السلام، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص136.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص92.

لربما اندثرت في حين أن وجودها بجانب المدرسة ييسر الإشراف عليها والعناية بها سواء في توفير المدرس المناسب، أم الصرف المنتظم، أو الترميمات العمرانية المستمرة، ونتيجة لحرص سلاطين المماليك على تعليم اليتامى وتأديبهم، أقاموا المكاتب للوفاء بهذا الغرض وأنفقوا على اليتامى بهذه المكاتب، وقد قصد بها السلاطين التقرب إلى الله وكسب الثواب[1].

تجدر الإشارة هنا أن تعليم اليتامى ارتبط بالمساجد في مصر على الرغم من أنه كان مكروهاً عند الإمام مالك، كما أن الرسولﷺ أمر بتنزيه المساجد، فلا يجوز تعليم الأطفال في المساجد لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسة[2]، ويبدو أن ذلك كان هو الأساس في إنشاء الكتاب أو المكاتب، التي نهضت بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم[3]، بالتالي سارع الخيرون في إنشاء المكاتب والعناية بها، فقد أنشأت مكاتب سبيل عديدة خلال الفترة المملوكية نتيجة نشاط الحركة التعليمية، من ذلك أنشاء السلطان الظاهر بيبرس بجانب مدرسته مكتب سبيل للأيتام وقرر لمن فيه الخبز في كل يوم والكسوة في فَصلَيّ الشتاء والصيف[4].

أيضاً مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون بجوار مدرسته المنصورية وأوقف عليه أوقافاً جليلة[5]، "..ورتب فيه فقيهين يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية

(1) عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص152.

(2) شلبي: أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973م، ص31.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص167.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص379.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص380.

في كل يوم، وهيئ لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف"[1].

كما أنشأ الأمير علاء الدين مغلطاي في عام (730هـ/ 1329م) مكتب للأيتام فيه عشرون نفراً من الأيتام رتب لكل منهم في كل يوم ثُمن درهم أي حوالي ثلاثة دراهم ونصف في الشهر، كما جعل لهم كسوة في فصل الشتاء والصيف لجميعهم ستمائة درهم، وثمن أدوية ومداد في كل شهر درهماً ونصف[2].

كذلك مكتب الأمير أرغون العلائي ناظر البيمارستان المنصوري الذي أنشأه سنة(747هـ/1346م) [3]، ومكاتب السبيل عند مدرسة المحلى والمدرسة القراسنقرية، والمدرسة البوبكرية و السابقية ومدرسة الأمير جمال الدين الأستادار[4]، كما أنشأ السلطان قانصوه الغوري مكتباً للأيتام عند مدرسته، وقد زار المكتب سنة (918هـ/ 1512م) وأمر بكسوة للأولاد المقيمين به[5].

لقد احتوى عدد كبير من الجوامع على مكاتب السبيل لتدريس أيتام المسلمين مثل الجامع الحاكم[6]، وجامع ابن طولون[7] وغيرها الكثير.

وكان ينص في وثيقة الوقف حرفياً على وظيفة مكتب السبيل ووسائل الصرف عليه، ضماناً لحسن سير العمل وديمومة العطاء ففي المدرسة الظاهرية

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج32، ص70.

(2) المصدر نفسه، ج32، ص70.

(3) المقريزي السلوك، ج5، ص448.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص369-388-390-394-402.

(5) ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص285-286.

(6) النويري، المصدر السابق، ج32-33، ص52/ المقريزي، الخطط، ج2، ص278.

(7) المقريزي، الخطط، ج2، ص268/ السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص250.

القديمة كان تأسيس مكتب السبيل بجانبها لتعليم أيتام المسلمين وأجرى لهم الجرايات والكسوة[1]، كما وجدت بالمدرسة الصرغتمشية مكتب سبيل حيث رتب فيه الناظر".. الأيتام الفقراء الدين لم يبلغوا الحلم أربعين نفساً، ويرتب لهم مؤدباً من أهل الخير والصلاح على أن المؤدب يجلس هو والأيتام بدهليز المدرسة في كل يوم خلا الثلاثاء والجمعة وأيام العطلات"[2].

جرت العادة في المدارس المملوكية علي بناء مكتب الأيتام فوق السبيل ولكنه الوضع أختلف في المدرسة الصرغتمشية حيث بني مكتب السبيل في الدهليز بعيداً عن الإيوانات الأربعة[3].

وقد خصص لكل كتّاب مدرس عرف(بالمؤدب)* لتعليم الأيتام وكان يتم اختياره بكل عناية ودقة، وأحياناً يكون من مشاهير الفقهاء والقراء المحدثين، وفي بعض الأحيان كان يطلق عليه اسم الفقيه[4].

مما تقدم ذكره نلاحظ مدى الاهتمام الواسع بإنشاء هذه المكاتب ودعمها بالأوقاف، الأمر الذي مكن الطبقات الفقيرة من تعليم أبنائها، وبالتالي أسهم ذلك في النهوض بالتعليم في مراحله الأولى وكان له دور أيضاً في نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتحفيظ كتاب الله والترغيب فيه.

---

(1)المقريزي، الخطط، ج2، ص379.

(2)الحجي، صور من الحضارة، ص189.

(3) الحجي، صور من الحضارة، ص189-190.

*جاء في أغلب المصادر التي تكلمت عن المدارس والكتاتيب في العصر المملوكي أن المؤدب هو من يتولى التعليم في الكُتاب، على الرغم أن المتعارف عليه في العصور السابقة للعصر المملوكي أن وظيفة المؤدب كانت مقتصرة على تدريس أبناء الخاصة كالخلفاء والأمراء والوزراء، وكان هناك معلم للكتاتيب أو المساجد، لذلك تم ذكره هنا على أنه هو المسئول عن الكُتاب.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص401.

المبحث الثاني: البيمارستانات

- البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان[1].

- البيمارستانات: هي أماكن تعالج فيها جميع الأمراض والعلل كما يعرف بالتركية (خسته خانه) أي محل المرضى، ويطلق على المحل المعد لإقامة المجانين أيضاً بيمارستان[2].

إن العصر المملوكي شهد تقدماً ملحوظاً في المراكز التعليمية ومن بينها المراكز الطبية ولعل أبرزها هما (البيمارستان الطولوني) و(البيمارستان المنصوري)، فهذا الأخير كان الأكثر شهرة في ذلك العصر لما قدمه من خدمات كما سيأتي ذكره، إضافة للمارستان المؤيدي.

البيمارستان الطولوني:-

عرف بالبيمارستان الأعلى[3] أنشأه أحمد بن طولون في سنة(259هـ/872م) موقعه في أرض العسكر وهي الكيمان والصحراء التي بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، جعل عليه أوقافاً عدة، ولم يكن قبل ذلك في مصر مارستان، فهو"...أول من اتخذ البيمارستان بمصر ... بناه بالفسطاط وهو موجود إلى الآن"[4]، وقد شرط

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص716، حاشية6.

(2) دهمان، المرجع السابق، ص41.

(3) ابن دقماق، المصدر السابق، ج1، ص99.

(4) القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص337.

ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وكان يشارفه بنفسه ويركب إليه يوماً في كل أسبوع، وقد عمل فيه حمامين أحدهما للرجال والأخر للنساء، واشترط إذا جيء بالمريض تنزع ثيابه ونفقته وتوضع عند أمين المارستان ثم يلبس ثياب ويفرش له ويعالج حتى يشفى ثم يصرف، كما جعل به خزانة كتب ضمت ما يزيد على مائة ألف مجلد لم تكن في علوم الطب فقط بل في سائر العلوم والمعارف[1]، هذا فيه دلالة على تدريس الطب في البيمارستان.

كما جعل في مؤخرة جامعه خزانة شراب فيها جميع أنواع الأدوية وجعل عليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث قد يحدث للحاضرين للصلاة[2]، وهذا يدل على مدى الاهتمام بالطب منذ وقت مبكر في مصر، ومن الأطباء الذين عملوا به في العهد المملوكي شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري مدرس الأطباء بجامع ابن طولون كان فاضلاً له نظم، مات سنة(772هـ/1370م)[3] واستمر هذا البيمارستان في تأدية وظيفته حتى عصر المماليك الجراكسة[4].

- **البيمارستان المنصوري**:

موقعه بخط بين القصرين من القاهرة هو موقع الدار القطبية التي كانت صاحبتها مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل، وفوض الطواشي حسام الدين بلال المغيثي للتفاوض مع صاحبتها مؤنسة خاتون فوافقت بشرط أن تعوض عنها بدار

---

(1) بك: أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1981م، ص27.

(2) المرجع نفسه، ص72.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص315.

(4) النشار، المرجع السابق، ص102.

تستقر فيها مع أطفالها، فعوضت عن ذلك بقصر الزمرد برحبة باب العيد وكان ذلك سنة(682هـ/1283م) [1].

أ) أسباب بنائه:

تورد لنا المصادر سببين لبناء هذا المارستان وهما:

- الأول أن سبب إنشاء البيمارستان المنصوري هو "...أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة(675هـ/1276م) أصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهير فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ونذر إن أتاه الله الملك أن يبني مارستاناً فعندما تولى السلطنة وفّى بنذره"[2].

- أما السبب الثاني وراء بناء هذا البيمارستان ".. أنه أمر بشيء كان فيه اختيار فخالفه جماعة من العوام ورجموا المماليك التابعين له، فغضب عليهم السلطان وأمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام فقتل منهم الكثير حتى طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم فأمر بكف القتل عنهم، فلما جرى ذلك ندم السلطان على ما وقع منه، فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل شيئاً من أنواع البر والخير لعل أن يكفر عنه ما جرى منه، فشرع في بناء هذا البيمارستان ووضع فيه الخير العظيم"[3].

---

(1)المقريزي، الخطط، ج2، ص406-407.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص406.

(3) ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص354.

ب) إنشاؤه:

ابتدأ في إنشائه سنة(683هـ/1284م) نقلت له الأعمدة والرخام والأعتاب من قلعة الروضة، وقد اكتملت عمارته في أحدى عشر شهراً وعندما أنجز البناء حضر المنصور لافتتاح المارستان في حفل كبير شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأئمة والحكماء، وقدمت فيه مختلف أنواع الأطعمة والأشربة، وأعلن السلطان قائلاً:" قد وَقَفْتُ هذا على مثلي فمن دوني"[1]، فهو أعلن أمام الملأ أن هذا البيمارستان لجميع المسلمين من مختلف الطبقات العليا والدنيا على حد سواء إذ يتساوى في الانتفاع به الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى، ورتب فيه الحكماء والمساعدين والصيادلة والأدوات والأدوية ما يكفي لعلاج الأمراض الحسية والعصبية والعقلية، كما جعل لمن يتعافى من المرضى كسوة ومن مات جُهِزَ وكُفِّنَ ودُفِنَ[2].

كما أوردت بعض المراجع[3] وثيقة وقف للسلطان المنصور يؤكد فيها بأن هذا البيمارستان لجميع مرضى المسلمين رجالاً ونساءً من الأغنياء والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، ولكن هذه الوثيقة تحذر من أن يعالج في البيمارستان يهودياً أو نصرانياً*، أو يتولى وظيفة فيه نصرانياً أو يهودياً فهو للمسلمين فقط.

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص346.

(2) النويري، المصدر السابق، ج32، ص70/ المقريزي، الخطط، ج2، ص406/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص346.

(3) بك، المرجع السابق، 132.

* يمكن القول أن مصر لم تكن تعرف مثل هذه القيود على أهل الذمة في عصر المماليك قبل سنة (702هـ/1302م) فقد تمتع أبناء الأقليات الدينية بمظاهر الحرية السياسية والاجتماعية وتقلدوا المناصب المهمة في الدولة، ولكن في هذه السنة قام بعض الرهبان بحرق أجزاء كبيرة من أحياء مدينة القاهرة مما أثار

لقد أوقف السلطان المنصور قلاوون من أملاكه القياسر والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق وغير ذلك، وكان مردود ذلك مبلغ كبير يقدر بألف ألف درهم في كل سنة وجعل أكثر ذلك على البيمارستان وحده[1]، ولعل السبب وراء ذلك يعود لإدراك القائمين على البيمارستان لأهمية الخدمات الصحية والوقائية والاجتماعية المختلفة التي سيكون البيمارستان مركزاً لها، إلى جانب شمولية هذه الخدمات وعموميتها لجميع الناس، الأمر الذي يستلزم بذلاً منتظماً ومستمراً وأموالاً كثيرة.

كما يصف ابن الفرات[2] هذه الأوقاف " بأنها باقية مستمرة يزيد وقفها وينمو بحسب نية واقفها ومباشرة نظارها، وينقص في بعض الأحيان ويفسد بسوء تدبير مباشريها".

ج) تنظيماته وتجهيزاته الداخلية:-

لقد انفرد البيمارستان المنصوري بأواوينه الأربعة وبكل إيوان شاذروان* وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء من الشاذروانات وجعل أواوينه الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة للنساء ومكاناً للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال وقسم للنساء، ومكاناً للطبخ والأدوية وغير ذلك[3].

= الغضب والرعب والسخط في نفوس الناس فمارسوا ضغطهم على الحكومة التي استجابت لهم وفرضت القيود على أهل الذمة للحد الذي منعوا فيه من تولي الوظائف داخل الدولة، للمزيد أنظر سرور: محمد جمال الدين، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص277-278-279.

(1) ابن الفرات، المصدر السابق، ج8، ص9/ المقريزي، الخطط، ج2، ص406.

(2) المصدر السابق، ج8، ص11.

* الشاذروان: آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل وهي ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها، فيرتفع مستوى المياه في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة، وهي أساس يوثق حول القناطر ونحوها، دهمان، المرجع السابق، ص95.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص406-407/ النويري، المصدر السابق، ج32، ص71.

وجعل بها خزانة شراب كان "اسمها في ذلك الوقت هي الشرابخاناه (الصيدلية)"[1]، وجهز البيمارستان بالأسرة والفرش والطراريح والأنطاع والمخدات واللحف والشراشف ولكل مريض فراش كامل[2]، ويقع على عاتق ناظر الوقف بالبيمارستان تزويد البيمارستان بانتظام بما يحتاج إليه مما يخص المرضى، كما يجب أن يهيئ لكل مريض ما يلائمه من أسرة وفرش حسب حالته الصحية[3]، كما يزود المرضى بالأواني الفخارية لطعامهم وأقداح زجاجية لشرابهم وأباريق فخار مع سُرج وقناديل وزيت للوقود من أجل الإضاءة، وجعل به الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام[4].

د) التنظيم الطبي بالبيمارستان:-

المسئول عن التنظيمات الطبية داخل المارستان هو المحتسب*حيث كان يأخذ على الأطباء عهد أبقراط** بأن لا يعطوا أحداً دواءً مضراً ولا يركّبوا له سماً ولا يصفوا سماً عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، وأن

---

(1) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص10.

(2) النويري، المصدر السابق، ج32، ص72.

(3) بك، المرجع السابق، ص86-87.

(4) النويري، المصدر السابق، ج32، ص72.

*المحتسب: واجبه مراقبة الأسواق ومختلف أنواع الأقوات والمشروبات، والتدقيق في أسعار البضائع لحماية المشتري، ومراقبة النقود للحيلولة دون الغش، وكانت وظيفة الحسبة وظيفة جليلة، رفيعة الشأن، أنظر السبكي، المصدر السابق، ص65-66/ القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص37.

** أبقراط: هو السابع من الأطباء الكبار فهو ابن ايراقليدس وكان عالماً في صناعة الطب، وضع أبقراط عهداً استحلف فيه المتعلم لها على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، أنظر ابن أبي اصيبعة، ص44-45.

يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم إلى المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار[1]، هذا القسَم يجعل هؤلاء الأطباء مسئولين من الناحية القانونية عند مخالفة أي من شروطه.

كما كان المحتسب لا يعطي الأطباء إذناً بالعمل إلا بعد إجراء الامتحان الخاص بكل فئة سواء بالكحالين أم المجبرين والجرائحيون وكذلك الأدوية المراد استعمالها، ومما لاشك فيه أن هذه الإجراءات التي يقوم بها المحتسب نحو مختلف فئات الأطباء تدل على حرص الدولة على مراقبة حسن العمل والتدقيق مع كل من يعمل بهذه المهن، فيكون الطبيب مالكاً لإذن رسمي يتيح له ممارسة المهنة بحرية وفق الشروط المتفق عليها، وإذا ما انحرف عنها أو تجاوزها فإن ذلك يضعه في موقف المساءلة القانونية وبالتالي سيقتصر العمل في هذا الحقل الوقائي والطبي على أصحاب الكفاءة والعلم دون الدجالين ومحترفي الشعوذة[2].

أيضاً رتب في البيمارستان أطباء عيون وباطنية وجراحة وعظام، كما كان في كل قسم رئيساً خاصاً بهم من الأطباء مسئولاً عن طائفة الأطباء في مجاله وإعطائهم الإذن في ممارسة العلاج[3]، كذلك جعلت به عناية ليلية مجهزة وهو ما عرف بالخفارة لمواجهة الحالات الطارئة، وجعل به معمل لصناعة الأدوية المركبة وتحضير العقاقير ومخازن لحفظ المواد الخام[4].

---

(1) الحجي، صور من الحضارة، ص221.

(2) المرجع نفسه، ص222.

(3) ابن الفرات، المصدر السابق، ج8، ص9/ المقريزي، الخطط، ج2، 406/ القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص467.

(4) بك، المرجع السابق، ص119.

هـ) دراسة الطب في البيمارستان:-

لقد كانت البيمارستان المنصوري مدرسة أو جامعة للطب إذ كان طلبة العلم في البيمارستان يتلقون علومهم على أساتذتهم حيث كانت تعد لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فقد خصص في البيمارستان مكان لتدريس الطب حيث يقوم رئيس الأطباء بتدريس طلاب الطب، وقد حرص الواقف المنصور قلاوون على توضيح أهمية تدريس الطب بالبيمارستان إذ اشترط (الانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به) [1]، ويورد القلقشندي[2] نسخة من تقليد الحكيم مهدب الدين وظيفة التدريس في البيمارستان المنصوري تتضمن الأتي:

"...أنه في سبيل استمرارية البيمارستان في العطاء وتقديم أفضل طرق العلاج، ألحقت به مدرسة لتعليم الطب لفائدة الطبيب وطالب علم الطب وعيّن الحكيم مهدب الدين على رأس هذه المدرسة، وقد اختير لعلمه الواسع وخبرته المعروفة من أجل أن يؤدى مسئولية تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري على أكمل وجه ليتحقق بذلك ما كان يطمح إليه المنصور قلاوون".

من خلال هذه الوثيقة يتضح لنا أنه تم تعيين الحكيم مهدب الدين أبو حليقة في وظيفة رئاسة الطب في البيمارستان المنصوري سنة(684هـ/1285م) كما شمل هذا التقليد بتولي المنصب أيضاً علم الدين إبراهيم وموفق الدين أحمد بتعينهما مستشارين في أمور تدريس الطب بالبيمارستان[3].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص406.

(2) المصدر السابق، ج11، ص253-256.

(3) بك، المرجع السابق، ص143.

إن البيمارستان كان مدرسة متكاملة فهذا المركز الطبي اعتنى بتوظيف مدرسي الطب الأكفاء للنهوض بهذه الوظيفة على أكمل وجه، ولكي تعم الفائدة لابد من نقل هذا العلم والجديد فيه إلى طلاب هذه المدرسة لأنهم عدة الغد في القيام بوظائف البيمارستان.

من أشهر الأطباء الذين مارسوا الطب في البيمارستان المنصوري أحمد بن يوسف الصفدي الذي كان طبيب الناصر محمد توفى سنة(737هـ/1338م)، كذلك محمد بن إبراهيم السنجاري الذي تقدم في معرفة الطب وكان ماهراً في تركيب الدواء المناسب لكل حالة فيبرأ المريض، وعندما رتب في البيمارستان ألزم الناظر ألا يشتري شيئاً إلا بعد عرضه عليه وأخذ موافقته، وله عدة كتب من أهمها (اللبيب عند عينة الطبيب) توفى سنة(749هـ/1348م) [1].

و) المراحل التي مر بها البيمارستان المنصوري خلال العصر المملوكي:-

في عام (707هـ/1307م) استقر شهاب الدين أحمد بن علي بن عبادة في نظر البيمارستان المنصوري ولعل السبب في اختياره لهذا المنصب هو نزاهته وأخلاقه العالية وما تمتع به من خبرة في الشؤون المالية[2].

تعرض ربع من أوقاف البيمارستان المنصوري بخط الشوابين بالقاهرة لحريق كبير عام(721هـ/1321م) فقام الأمراء بإطفائه وهذا يدل على مدى حرصهم على هذه الأوقاف والأموال[3].

---

(1) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص366-367/ الحجي، المرجع السابق، ص228.

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص223.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص63-64.

كذلك سنة(726هـ/1326م) تولى الناصر محمد البيمارستان بالعمارة والإصلاح إذ فوض الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي ناظراً للبيمارستان فأخلى البيمارستان من المرضى وقام بترميمه وإصلاحه، كما أنشأ قاعة بالبيمارستان وعمل خيمة يزيد طولها على مائة ذراع وركبها حتى تضلل على أهلها من الحر، ونقل الحوض من جانب باب البيمارستان لكثرة ما تأذي الناس برائحته النتنة ولم يستخدم من مال الوقف شيئاً[1].

وتولى النظر سنجر الجاولي سنة(741هـ/1341م) وكان يتردد فيما يصرف منه للصدقات فأنكر السلطان الناصر عليه ذلك ولم يقبل له عذراً وقال له: "المارستان كله صدقة"[2].

كما تولى نظره الأمير أرغون العلائي سنة(747هـ/1346م) فأنشأ بجواره سبيل ماء، ومكتب سبيل لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم وأوقف عليه وقفاً بناحية الضواحي[3].

وفي سنة(755هـ/1354م) الأمير صرغتمش كان قد ولى نظر البيمارستان للقاضي ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن خطيب، فعمرت الأوقاف و أنصلح حال المرضى[4].

الجدير بالذكر أنه توالى على وظيفة نظر البيمارستان المنصوري من سنة(763هـ/1361م)حتى(800هـ/1397م) تسعة أو أكثر من كبار الأمراء

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص407.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص407.
(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص126.
(4) بك، المرجع السابق، ص143/ الحجي، صور من الحضارة، ص243.

المماليك وهذا العدد كبير بالقياس على نصف القرن السابق، ولعل مرد ذلك هو عدم استقرار الأوضاع السياسية خلال هذه الحقبة ففي الوقت الذي كان يتولى فيه النظر من له القدرة والعلم، تدخلت عوامل كثيرة في عملية تولي هذه الوظيفة مثل العلاقات الشخصية والمصالح المشتركة وأصبحت وظيفة نظر البيمارستان منصباً عسكرياً وسياسياً أكثر منه اجتماعياً فتبوأه أصحاب النفوذ وغاب عنه أصحاب الكفاءة والمقدرة، مما أدى إلى سرقة وضياع أوقافه في بعض الأحيان، إلا أن ذلك لم يقلل من أهمية وقيمة هذا الصرح المعماري الذي وصفه مؤرخو ورحالة ذلك العصر بأحسن الأوصاف منهم:

الرحالة المعاصر ابن بطوطة[1] الذي يقول "... وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر..."، ويصفه القلقشندي[2] بأنه ".. الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، العظيم بنائه وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه، وتنوع الأطباء فيه.."، كما يقول فيه "..ليس له نظير في الدنيا في بره ومعروفه"[3].

مما تقدم يمكن القول أن البيمارستان المنصوري يعد المركز الطبي الفريد الذي يماثل في تخطيطه وتجهيزاته المستشفيات الموجودة في العصر الحديث مع مراعاة تطور الوسائل بين عصرٍ وعصر.

---

(1) المصدر السابق، ص45.

(2) المصدر السابق، ج3، ص366.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص38.

البيمارستان المؤيدي:-

يقع فوق الصوة تجاه قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان، أنشأه الملك المؤيد شيخ، ابتدأ في عمارته سنة(821هـ/1418م) وأنهى عمارته سنة(823هـ/1420م) نزل فيه المرضى في السنة نفسها وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة، وعندما توفى المؤيد سنة(824هـ/1421م) سكنه طائفة من العجم وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان، ثم عمل فيه منبر ورتب له خطيب وإمام ومؤذن وبواب وقوّمه، استمر جامعاً تصرف معاليم موظفيه من وقف الجامع المؤيدي[1].

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص402.

المبحث الثالث: الـطبـاق:

جمع طبقة وهي ثكنات جيوش المماليك بالقلعة وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد[1]، وسميت بذلك لمطابقة بعضاً على بعضها أي فوق بعض[2].

- هي مؤسسة تعليمية خاصة بتعليم المماليك السلطانية، يذكر المقريزي[3] أن أول من أنشأ الطباق هو الملك الناصر محمد بن قلاوون بساحة الإيوان بالقلعة سنة(729هـ-1324م)، وذلك بعد أن أمر بهدم السجن المعروف بسجن الجب الذي أنشأه أبوه المنصور قلاوون ليسجن فيه الأمراء.

لكن إحدى المصادر تذكر أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين على رحبة الجامع، وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة وأنشأ جواره طبقة للمماليك[4].

بالتالي من المرجح أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنشأ طباقه بالقرب من البرج المنصوري، وأن الظاهر بيبرس بنى جزءاً منه قبل ذلك، ولكن التغير الذي حصل وجعل الطباق يكون في موقعه الذي عرف به فيما بعد أنه سنة(715هـ/1315م) شب حريق في أطباق المماليك التي أنشأها السلطان الناصر محمد بالقرب من البرج المنصوري[5]، بعد هذا الحريق قام السلطان الناصر محمد

---

(1) دهمان، المرجع السابق، ص105.

(2) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م، ج10، ص21.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص213.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص168-169.

(5) المقريزي، السلوك، ج2، ص157.

ببناء الطباق الجديدة بحيث تكون في مكان واحد وجمع فيها كل فئات المماليك السلطانية جميعها[1].

بلغ عدد هذه الأطباق " اثنا عشر طبقة كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن حتى أنه يمكن السكن في كل طبقة لألف مملوك"[2].

ومن المرجح أن هذه الأطباق لم توجد كلها في وقت واحد وإنما طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل، وربما تغير اسم بعضها إلى اسم أخر ذلك أن اسم أغلبها مرتبط بتبعية مماليكها لأمير أو سلطان ما وهي :-

(طبقة الرفرف، طبقة الطازية، طبقة الزمام، طبقة الأشرفية، الحوش، الغور، المقدم، الصندلية، الخازندار، الميدان، المستجدة، القاعة، قراجا، الأربعين، طبقة الطواشي، مرجان الخازندار، طبقة فيروز الخازندار، طبقة الخروب، طبقة البرانية) [3].

من هذه الأسماء تبين أن عدداً كبيراً حمل اسم طواشية أو وظائف تولاها أشخاص معينون على شؤون هذه الأطباق، منها مثلاً طبقة الصندلية نسبت إلى الأمير الطواشي صندل المنجكي المتوفي سنة(801هـ/1398م) وهو خازندار السلطان برقوق[4].

---

(1) العريني، المرجع السابق، ص86.

(2) ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص27.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص292/ العريني، المرجع السابق، ص88.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص140.

حياة المماليك وتعليمهم داخل الطباق:

ذُكر "...أنه في أول عهد سلاطين المماليك كان التجار لا يجلبون إلا المماليك الصغار ويتم عرضهم على السلطان الذي يرسل كل منهم إلى طبقة جنسه ويسلمه للطواشية، وهذا ما كان يعرف برسم الكتابة"[1]، فأول ما يبدأ به هو تعليمهم ما يحتاجون إليه من القران الكريم إذ كان لكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمهم القران الكريم والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار، وإذ شبّ الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ودرسّه فيه، فإذا وصل إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع القتال من رمي السهام والرماح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، ولا يجرؤ أمير أو جندي على الحديث معهم أو الاقتراب منهم، بعد تمرينهم يعتق المملوك وينقل إلى الخدمة ماراً بأطوار فيها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء، فلا يصل إلى هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، وقد يجنح بعد المماليك إلى الدراسات الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية فصار منهم الفقيه والأديب والشاعر[2].

بلغ اهتمام السلاطين بالطباق بأن كان السلطان بنفسه يختار المماليك المقيمين بالطباق وكان يأمر بفحصهم من قبل الأطباء، فالسلاطين المماليك كانوا يهتمون بالطباق للغاية حتى أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص213-214.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص44/ فخري، المرجع السابق، ص57.

بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف و الإستادار ونهرهما[1].

كما كانت المماليك تقيم في هذه الطباق ولا تبرحها حتى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حيث سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوماً بالأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام[2].

الجدير بالذكر أن الطباق سكنته فئة أخرى متمثلة في العجزة والمسنين والمعاقين من الجيش المملوكي، والمعاقين هم الذين أصيبوا في الحروب المملوكية ضد المغول والصليبيين، أما المسنين فهم الذين فنيت أعمارهم وهم في خدمة النظام العسكري فقد حظوا بشرف الإقامة بالطباق وقرر لهم ثلاثة الآلاف درهم في السنة[3].

هذه المعاملة تعطي الثقة والقوة للجند الشباب لإدراكهم أنه إذا أصيب أحدهم أو كبر في السن فسيكون في مأمن من العيش وهذا يجعله أكثر إخلاصاً للدولة المملوكية.

في عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالسكن في القاهرة والزواج فنزلوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا، ذلك الأمر غير حالهم وجعلهم يخلدون للبطالة ونسوا حياة الطباق وصرامتها، ثم تلاشت أحوالهم وانقطعت الرواتب الجارية عليهم من اللحوم والخبز وغيرها، ذلك لتفضيل المماليك للراتب النقدي أيام السلطان فرج بن برقوق، حتى عجزوا عن شراء ما يلزمهم[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص213.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص44.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص213-214.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص53/ المقريزي، الخطط، ج2، ص215.

عندما بدأت الدولة في أواخر عهد المماليك الجراكسة في جلب المماليك الكبار الذين يعرفوا بـ(الجلبان) فهبط مستوى تعليم المماليك سواء علوم الدين أو الفنون الحربية، فرأى السلطان فرج بن برقوق أن يترك المماليك الكبار وشأنهم فتغيرت الأحوال وصار المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم فكان ذلك من عوامل خراب البلاد وزوال دولتهم[1].

مما تقدم نلاحظ أن الطباق كانت مراكز علمية متكاملة قدمت للمماليك كل ما يحتاجونه من علوم دينية وفقهية وأدبية وفنون قتالية، وأسهمت في تربيتهم لحماية الدولة والدفاع عنها وذلك من خلال ربط الدولة المملوكية بين التربية والدين لما لذلك من أثر في تقوية النفوس، إذاً الطباق من المراكز العلمية الخاصة ذات القيمة العالية.

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص215.

المبحث الرابع: المكتبات:

أنواعها :

أ) المكتبات الخاصة :

لقد شهد عصر المماليك في مصر أنواعاً عديدة من المكتبات أكثرها هي المكتبات الخاصة، ذلك أن سلاطين المماليك كانوا يقدرون أهمية الكتب، فاحتفظوا في قلعة الجبل مقر السلطان المملوكي بخزانة كتب جليلة القدر، حوت مجموعة كبيرة من الكتب في العلوم والمعارف المختلفة، وكانت تتألف من ثمانية وستين ألف مجلد، ولكن في عام (691هـ/1291م)، وقع حريق عظيم بقلعة الجبل فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيئاً كثيراً كان من ذخائر الملوك فأنتهبها الغلمان وبيعت أوراقاً ممزقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة وأخذوها بأبخس الأثمان[1].

كما كان هناك مكتبات أخرى خاصة إذ يمكن القول أن سلاطين المماليك كانوا حريصين على العلم، فتقريباً كان كل سلطان يجلس على عرش البلاد يجعل قصره ملتقى للعلم والعلماء، إذ يذكر أن الناصر حسن ابن قلاوون اشتغل بالعلم كثيراً ونسخ العديد من الكتب بخطه منها (دلائل النبوة للبيهقي)[2]، كما كان السلطان المؤيد شيخ يعقد المجالس العلمية كل يوم أحد وأربعاء حيث يجتمع عنده العلماء[3]، وهذا يدل على امتلاك هؤلاء السلاطين للمكتبات الخاصة.

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص212.

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص40/ النشار، المرجع السابق، ص74.

(3) النشار، المرجع السابق، ص74.

كذلك السلطان الغوري كان لديه مكتبه غنية بالكتب في مختلف أنواع المعارف والعلوم وكان من ضمن موجوداتها كتاب تاريخ التتار الذي أهداه إليه الشاه إسماعيل الصفوي، كما احتفظ العديد من الأمراء بخزانات كتب داخل قصورهم نذكر منهم تغري بردي برمش سيف الدين الجلالي الناصري، والأمير يشبك الداودار، والأمير أحمد بن أينال العلائي داودار برسباي[1].

أيضاً كان للعلماء والفقهاء والقضاة بل وعامة الشعب أحياناً مكتباتهم الخاص، من ذلك الشيخ الصالح المحدث أبو الفتح محمد الكوفي ت (667هـ/1267م) كانت له خزانة كتب خاصة أوقفها على طلبة العلم[2]، كذلك كان لبعض القضاة خزائن كتب منهم إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة ت(790هـ/1388م) اقتنى من الكتب النفيسة بخطوط مصنفيها وغيرهم، ما لم يتهيأ لغيره[3]، كما أوقف الطبيب المشهور ابن النفيس ت(687هـ/1288م) كتبه علي البيمارستان المنصوري[4]

الجدير بالذكر أن الأمير محمود الإستادار اشترى مكتبة القاضي إبراهيم بن جماعة من ورثته بعد موته، ووقفها وشرط ألا يخرج منها شيء من مدرسته[5]، ومكتبة أحمد بن أسد بن عبد الواحد الأسيوطي كان عالماً فاضلاً برع في فنون كثيرة منها علم الشرط، وقد اعتنى بكثير من كتبه فحشاها وقيد شكلها(أي جعل لها حواشي وتعليقات) وكان يقتني نفائس الكتب[6].

---

(1) النشار، المرجع السابق، ص75.
(2) العيني، المصدر السابق، ج2، ص55.
(3) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص40.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص374.
(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص395-397.
(6) النشار، المرجع السابق، ص78.

الحقيقة أن بعض هذه المكتبات بلغت من الضخامة وكثرة المحتويات، أن مكتبة أحدهم وهو الشيخ الإمام ناصر الدين شافع الكناني العسقلاني ت(733هـ/1332م) كانت تحوي ثماني عشرة خزنة[1]، والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء مشهورين بحبهم للكتب وجعل مكاتبهم للناس وطلاب العلم، مثلما فعل العلامة المحدث ابن حجر العسقلاني فقد كان يبيح لطلابه وللعلماء الانتفاع بمكتبته الخاصة[2].

من جانب أخر نجد منهم من كان يجمع الكتب لمجرد التباهي بها وليس لغرض العلم والمعرفة مثل إبراهيم بن أحمد بن الفرس ت (888هـ/1483م)، إذ يذكر أنه كان عنده من الكتب وتصانيفها ما لم ينتفع به وعطل غيره عن الانتفاع به، لعدم سماحه بإعارتها حتى نُقل عنه أنه كان يقول "...إذا عانيت الموت ألقيتها في البحر "[3].

مما تقدم نلاحظ أن المكتبات بمختلف أنواعها انتشرت انتشاراً واسعاً في العصر المملوكي، وأنها لم تعد مظهراً من مظاهر العلم فحسب وإنما أصبحت أحياناً مظهراً من مظاهراً الثراء، يحرص عليه الأغنياء حرصاً لا يقل عن حرص العلماء والفقهاء والقضاة.

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص289.

(2) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج1، ص36 .

(3) المصدر نفسه، ج1، ص12-13.

ب) المكتبات العامة:

1) مكتبات المساجد والجوامع :

تعد المساجد مراكز للعلم حيث كانت تعقد فيها مجالس العلم والحلقات الدراسية لهذا كانت تحوي على مكتبات، ولعل العامل الآخر لوجود المكتبات بها هو لقدسيتها ما يجعلها بمنأ عن التخريب أو يلحقها النهب والسلب وخاصة في أوقات الفتن والحروب، ومن ثم كانت من أنسب الأماكن لإنشاء المكتبات بها[1].

من هذه المساجد ما عُمر في عصر سابق للعصر المملوكي، ولكنه ظل يؤدي وظيفته إلى ما بعد ذلك، ومنها ما أنشئ خلال العصر المملوكي، ومن هذه المكتبات خزانة الكتب بجامعة ابن طولون فالحاكم بأمر الله "...أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً [2] " ويذكر السيوطي" أنها ضمت كتب في الفلسفة والحكمة والنجوم والطب والفلك والتاريخ"[3].

كذلك مكتبة الجامع الأزهر التي أنشئت سنة (381هـ/ 991م) نقل إليها الكثير من المصاحف والكتب، وأضاف إليها الحاكم بأمر الله الكثير من المجلدات التي كانت بدار العلم[4]، كما أوقف عليها الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المغربي عام (878هـ/ 1473م) من الكتب على أبناء جلدته من طلبة العلم والفقراء في الجامع الأزهر برواق المغاربة بالذات دون غيره من الأروقة[5]، وهذا يدل على أنه كان بكل رواق من أروقة الأزهر مكتبة خاصة بالمجاورين المقيمين به.

---

(1) النشار، المرجع السابق، ص80.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص267.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص250.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص275.

(5) النشار، المرجع السابق، ص84.

كذلك مكتبة الجامع الحاكم التي شملت مختلف المعارف والفنون فضلاً عن المصاحف وعلوم الدين الإسلامي، استمرت هذه المكتبة حتى حدث زلزال سنة (702هـ /1302م)، فتهدم بعض من أجزاء الجامع ولكن تم تجديده وأضفيت إليه خزانة كتب جديدة، أوقف بها نحو خمسمائة مجلداً في المعارف والعلوم المختلفة منها ربعة شريفة مكتوبة بماء الذهب على ورق بغدادي[1].

إضافة إلى مكتبات المساجد التي أنشئت في العصر المملوكي فهي كثيرة منها:- مكتبة الجامع الظاهري الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس سنة (667هـ/1267م)، كانت به خزانة كتب، وقد أوقف الشيخ يحيى بن عبد الوهاب الدمنهوري الشافعي كتبه على خزانة هذا الجامع[2].

ومكتبة جامع الخضيري الذي أنشأه الأمير عز الدين أيدمر الخضيري سنة(737هـ/1337م) وجعل به خزانة كتب نفيسة[3]، وخزانة كتب الجامع المؤيدي الذي أسسه السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة(818هـ/1419م)، فالمقريزي يقول[4] "... أنه نزل السلطان إلى هذه العمارة ودخل خزانة الكتب التي عملت هناك وقد حمل إليها كتباً كثيرة في أنواع العلوم المختلفة، وقدم له ناصر الدين محمد البارزي خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار فأقر ذلك بخزانة هذا الجامع ".

---

(1) النويري، المصدر السابق، ج32، ص58/ المقريزي، الخطط، ج2، ص278.
(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص302.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص312.
(4) المصدر نفسه، ج2، ص330.

2) المكتبات المدرسية :

لقد أُلحقت بكل مدرسة مكتبة أو خزانة كتب حوت أنواعاً عديدة من المؤلفات، من هذه المدارس المدرسة الفاضلية فقد كان"... بها خزانة كتب عظيمة فيها كتب من سائر العلوم تقدر بنحو مائة ألف مجلد، ولكنها ضاعت كلها في عهد السلطان كتبغا المنصوري"[1]، هذه المدرسة أنشئت في العهد الأيوبي ولكنها استمرت حتى النصف الأول من عصر دولة المماليك البحرية، أما المكتبات المدرسية التي أنشئت في العصر المملوكي فهي كثيرة، نذكر منها مكتبة المدرسة الظاهرية القديمة حيث أوقف عليها الظاهر بيبرس خزانة كتب جليلة حمل إليها أمهات الكتب في سائر العلوم والمذاهب[2].

كذلك مكتبة المدرسة المنصورية التي أنشأها السلطان المنصور قلاوون كانت تحتوي على كتب في مختلف أنواع العلوم والربعات الشريفة إضافة إلى خزانة الكتب في القبة المنصورية، وكذلك البيمارستان المنصوري[3].

كما أنشأ الأمير الصاحب بهاء الدين في مدرسته الصحابية البهائية خزانة كتب جليلة، وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار، خزانة كتب بمدرسته المعروفة بالطيبرسية سنة(709هـ/1309م)[4]، كذلك خزانة الكتب بالمدرسة المحمودية التي "... لا يعرف بديار مصر مثلها إذا كان بها أربعة آلاف مجلد"[5].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص366.

(2) ابن تغري بردي، ج7، ص108.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص264/ النويري، المصدر السابق، ج32، ص70-80/ المقريزي، الخطط، ج2، ص380.

(4)المقريزي، الخطط، ج2، ص370، 383.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص403.

3) مكتبات البيمارستانات :

من أبرز مكتبات البيمارستانات هي مكتبة البيمارستان المنصوري التي كانت تحوي أنواعاً مختلفة من كتب الطب والعلوم الأخرى[1]، كذلك الجامع الطولوني كانت به خزانة كتب ضمت ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم[2].

4) مكتبات الربط والخوانق والمقابر:

من أشهر مكتبات الخوانق التي كانت ملحقة بالخانقاه البكتمرية التي أنشأها الأمير أبو سعيد الساقي سنة (762هـ/1362م)[3]، كذلك خزانة الكتب برباط الآثار، ومن أبرز خزانات الكتب الموجودة بالترب هي في القبة المنصورية ،التي كان بها خزانة كتب جليلة حوت كتب في مختلف العلوم من فقه وتفسير والحديث والطب، وبلغ من اهتمام السلطان المنصور قلاوون بمكتبة قبته، أنه رتب لخازنها في كل شهر أربعين درهماً[4].

وهكذا عرفت مصر إبان العصر المملوكي مختلف أنواع المكتبات التي تدل على أهمية الكتب في ذلك العصر .

أهم التجهيزات الداخلية بالمكتبات :

لقد عمل أصحاب المكتبات في العصر المملوكي على الاهتمام بها وذلك من خلال تجهيزها بما تحتاج له، فبالإضافة إلى خزانة الكتب التي كانت تستخدم في

---

(1) النشار، المرجع السابق، ص101.
(2) بك، المرجع السابق،ص27 .
(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص424.
(4) المصدر نفسه، ج2، ص380 / النويري، المصدر السابق، ج32، ص83-84.

الحفظ فقط، جعلت الإيوانات* في المدارس والقاعات والمساجد وغيرها من المراكز، تستخدم في القراءة والبحث والإطلاع والمراجعة، وقد خصصت بعض المكتبات حجرات لإقامة العاملين بها، من ذلك " ...أن ابن حجر العسقلاني الذي تولى خزانة المدرسة المحمودية كان يقيم بها، وكانت حجرته تقع بالدور الأرضي جنوب غرب الدور "[1].

كما اهتم المماليك كذلك بالأثاث والأدوات الخاصة بحفظ المجموعات وصيانتها، وتسهيل استخدامها وتداولها وذلك حتى تكون المكتبات مهيأة تماماً لاستقبال الرواد والعمل على راحتهم، فضلاً عن راحة العاملين بها، وتشمل هذه التجهيزات البسط والحصر والفرش والستور والصناديق والرفوف المستخدمة في حفظ الكتب وغيرها من المواد وكراسي الكتب، والأدوات الكتابية كالأوراق والأقلام والأحبار والأدوات المستخدمة لإعداد المجموعات وتسجيلها وصيانتها [2].

وتنص العديد من الوثائق على أن إيوانات المساجد والمدارس كانت تفرش أرضيتها بالبسط والحصر والسجاجيد، ورد في أحد المصادر[3] وثيقة للأمير صرغتمش ما نصه " ... ويجعل في بعض ذلك ما يكون بالمدرسة المذكورة حاصلاً من القناديل والزيت والحصر والبسط وذلك ليمنع الداخل إليها من المشي على الرخام بنعله ..."، كما استخدمت الصناديق والرفوف الخشبية في حفظ الكتب وخزنها ونقلها

---

* إيوان: مكان واسع من ثلاثة جدران وسقف لاستقبال الناس، انظر دهمان، المرجع السابق، ص28/ إن أصل الكلمة أرامي وهو مشتق من (أي) ضم و (أوي) بالعربية هو مجلس كبير على هيئة طبقة واسعة لها سقف محمول من الأمام إلى عقد يجلس فيه كبار القوم، المعجم الوسيط، ص33.

(1) السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ج1، ص138.

(2) النشار، المرجع السابق، ص122.

(3) المرجع نفسه، ص123.

من مكان لآخر، وكانت صناديق الكتب هذه من الخشب أو الخشب المصفح بالنحاس والمكفت بالذهب والفضة، وكثيراً ما كان يكتب اسم السلطان أو الأمير وألقابه على جوانب الصندوق الخشبي بالألوان المختلفة وخاصة الذهب [1]، لقد كانت تستخدم في بعض المكتبات رفوف خشبية حائطية كانت تثبت في جدران الحجرة المتخذة خزانة لوضع الكتب عليها بعيداً عن الأرض؛ حتى لا تتلف أو تبلى كما يقول ابن جماعة[2] ولتيسير استرجاع أياً منها في أقل وقت وبأيسر الطرق[3].

لقد استخدمت المكتبات المملوكية على اختلاف أنواعها وأحجامها الأدوات الكتابية في عملية النسخ كالحبر والورق والأقلام والمساطر، وكانت هذه الأدوات معدة لاستخدام النسّاخ الذين يعملون في المكتبة فضلاً عن استخدامها من قبل الرواد والمستفيدين، إضافة إلى أدوات التجليد والصيانة والترميم وذلك لصيانة الكتب وترميمها والمحافظة عليها[4].

أيضاً استخدمت أدوات لأغراض أخرى منها إثبات ملكية المكتبة لكتبها كالأختام والسجلات وغيره، كذلك استخدم ما يعرف بالتبت أو السجل لتسجيل محتويات المكتبة، وقد كان من واجبات خازن الكتب عند تسلمه للعمل في الخزانة أن يقوم باستلام الكتب من سلفه أو من الناظر على الوقف وتسجيلها في تبث إضافة لتسجيله لما يستجد من كتب، ويستخدم هذا التبت عادة في أعمال الجرد[5].

هكذا نرى أن هذه التجهيزات كانت تسهم في تسهيل استخدام المكتبة من قبل العاملين بها وروادها ولكي تحقق أهدافها على الوجه الأكمل.

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص102/ النشار، المرجع السابق، ص124.

(2) ابن جماعة، المصدر السابق، ص170.

(3) النشار، المرجع السابق، ص125.

(4) المرجع نفسه، ص125.

(5) المرجع نفسه، ص126.

المسئولون والموظفون في المكتبات:

1) وظيفة خازن الكتب أو شاهد الخزانة:

يقصد به أمين المكتبة وهو الشخص المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها وتنظيم العمل بها وفقاً للشروط التي يعينها الواقف، ومن مهامه أن يقوم الناظر على الوقف بتسليم الكتب إلى أمين المكتبة ويشهد عليه بتسلمها، ثم يتولى الخازن بعد ذلك إحراز الكتب، ونفضها من الغبار ويتعهد بالمحافظة عليها وصونها من التلف والبلل وتنظيمها داخل الخزائن وتفقدها من حين لآخر وإصلاح ما أصاب التلف منها[1]، "... وترميم شعتها وحبكها عند احتياجها للحبك.. [2]" والحفاظ عليها من السرقة والضياع، كما كان أمين المكتبة يقوم بتنظيم الكتب وترتيبها في الخزانة، وكان عليه أن ييسر للقراء قراءتها والاطلاع عليها، ويمكن طلبة العلم من الانتفاع بها في حدود القواعد المعمول بها في الوقف[3].

كان يجب على من يشغل هذه الوظيفة أن يكون أميناً متديناً واسع الاطلاع عارفاً بشؤون الكتب قادراً على القيام بخدماتها وعارفاً بترتيبها، إذ يذكر في وثيقة فرج ابن برقوق "... ويصرف لرجل يكون ثقة خيّراً أميناً يقضاً قادراً على القيام بخدمة الكتب عارفاً بترتيبها"[4]، والسبب وراء هذه الشروط هو الكتب القيمة الموجودة تحت يده، كذلك حتى يتمكن من تقديم المساعدة لمن يرتادون المكتبة من طلاب علم ومدرسين ومعيدين وطلاب، وممن يرغب في الاطلاع من أهل العلم.

---

(1) النشار، المرجع السابق، ص125.

(2) السُّبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص111.

(3) النشار، المرجع السابق، ص139.

(4) المرجع نفسه، ص139.

مما يدل على أهمية هذه الوظيفة هي أنه أحياناً يتم تعيين صاحبها بناءً على رغبة السلطان ومعرفته الشخصية به من ذلك ما يذكره المقريزي[1] من أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي عين ناصر الدين أبي عبد الله محمد البازي الجهني كاتب الأسرار الشريفة في وظيفة خازن الكتب ثم من بعده لمن يصلح من أولاده وذريته.

2) **وظيفة المناول**:

هو صاحب وظيفة وسط بين الخازن والفراش ولا يمكن الاستغناء عنه فهو مساعد الخازن ويقوم بإرشاد القراء إلى مواضع الكتب وإحضارها من الخزانة إلى من يرغب منهم في القراءة أو النسخ وغير ذلك، ثم يقوم بإرجاعها إلى الخزانة أو الرفوف لوضعها في أماكنها بعد فراغهم منها، ويقوم المناول بهذا العمل تحت إشراف الخازن ولكن معرفته بالكتب عادة لا تتعدى معرفة أسمائها وأماكن حفظها[2].

3) **الوراقون**:

تضم هذه الفئة النساخ والخطاطين والمجلدين وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة حرفة لهم، وهذه الفئة هي التي قامت بنسخ التراث العربي العلمي والأدبي وصيانته وقد وجد في كثير من المكتبات المملوكية ناسخ أو أكثر لنسخ ما يطلب منه مقابل أجر يدفع له من ريع الوقف، كما كان النساخ يزودون المكتبة بما لا يوجد فيها من الكتب عن طريق نسخها خاصةً إذا كانت من أمهات الكتب في علم من العلوم أو كان الإقبال عليها كبيراً لأهميتها[3]، فقد كان ".. على الناسخ مراعاة الدقة والتأني أثناء الكتابة والتزامه الأمانة فلا يحذف شيئاً أو يختصر لرغبته في سرعة

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص329.

(2) النشار، المرجع السابق، ص145.

(3) المرجع نفسه، ص148.

الإنجاز..." [1]، ولعل من أشهر النساخين في العصر المملوكي هو الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن يوسف المعروف بابن الصائغ توفى سنة(845هـ/1441م)هو شيخ الكتّاب والنسّاخ في وقته وقد نسخ عدداً غير قليل من المصاحف والكتب والقصائد بخطه[2]، ومن المرجح وجود مجلد في بعض المكتبات ذلك أنه بعد أن يكمل الناسخ المخطوط يدفعه للمجلد لتجميع أوراقه وتجليده، وقد بلغ فن التجليد في مصر أرقى مراتب التقدم والازدهار[3].

الدور التعليمي والتربوي للمكتبات في العصر المملوكي:

لقد أدرك سلاطين المماليك وأمرائهم الدور المهم للمكتبة فلم تكن مكتباتهم مجرد مجموعات كثيرة أو قليلة من الكتب وجدت لمجرد الزينة أو التباهي والتفاخر إنما وجدت لغاية أسمى من ذلك فقد كانت مكاناً لتثقيف مختلف الطبقات ومكاناً للدرس والبحث والتأليف.

تكمن أهمية المكتبات في ذلك العصر أن جميع الكتب كانت مخطوطة تعتمد في كتابتها على النسخ، فلم يكن باستطاعة الكثير من الطلاب اقتناؤها نظراً لارتفاع ثمنها أو ندرتها، فوجود هذه الكتب في المكتبات يتيح للطلاب الإطلاع عليها والبحث فيها ومقابلة ما يدرسون على أراء الفقهاء والعلماء، إضافة إلى القراءة في العلوم المختلفة، ومن ناحية أخرى أتاحت المكتبة لهم فرصة الاطلاع مسبقاً على الدروس التي سيقوم بشرحها لهم أو إملائها عليهم مما يعينهم على سرعة الفهم والتجاوب مع الأساتذة[4].

---

(1) السُبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص131-132.
(2) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج1، ص162.
(3) النشار، المرجع السابق، ص150.
(4) عبد العاطي، المرجع السابق، ص249.

كما أنها أفادت الباحثين في شتى فروع المعرفة البشرية، إذ اعتمد عدد كبير من العلماء على المكتبات في تأليف كتبهم منهم المؤرخ ابن حجر العسقلاني الذي كان خازناً لمكتبة المدرسة المحمودية حيث أفادته كثيراً في تصنيف مؤلفاته[1].

كما كان يلوم عليه محمد بن يوسف ابن حيان الغرناطي القاهري على بذله الدراهم في شراء الكتب ويقول إذا أردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي[2].

بالتالي يمكن القول أن المكتبات تعد وسيلة تربوية حية لخدمة الأفراد وهي جزء لا يمكن الاستغناء عنه في أي مؤسسة تربوية تعليمية فهذه المكتبات تعد مكاناً تثقيفياً لجميع فئات المجتمع.

والجدير بالذكر أن نجاح هذه المكتبات في ذلك العصر مبعثه إيمان رجال ذلك العصر بأهمية المكتبات كأداة تعليمية تربوية فوفروا لها جميع عناصر تقديم الخدمات اعتماداً على الوقف كمورد مالي رئيسي للإنفاق على المكتبات وتجهيزها حتى تؤدى رسالتها على أكمل وجه.

---

(1) السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ج2، ص.782

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص309.

الفصل الرابع:

أنظمة التعليم وجهود العلماء في إثراء الحركة العلمية:

المبحث الأول: النظام التعليمي.

المبحث الثاني: أبرز علماء العصر المملوكي.

المبحث الثالث: حركة التأليف ونتاجها العلمي والأدبي.

المبحث الأول: النظام التعليمي.

أ) القائمون بالعملية التعليمية :

1) المدرسون:

لقد كانت وظيفة التدريس بالمدارس جليلة القدر، لذلك كان يجب أن تتوفر فيمن يقوم بها عدة شروط، وقد وردت هذه الشروط عند بعض العلماء، منهم القلقشندي[1] الذي يذكر أن عدداً من نسخ التدريس التي تم تصديرها لكبار القضاة والفقهاء تبين هذه النسخ التي تفوض علماء بعينهم لوظيفة التدريس لأبرز الشروط التي يجب أن تتوفر في شخص المدرس، كما ذكر ابن جماعة[2] بعض تلك الشروط، منها أنه يجب أن يتحلى بالصفات والأخلاق الحميدة، ويجب أن يكون طلق الوجه نظيف الملبس، متواضعاً في جلسته، أي لا يجلس رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، وإنما يجلس بارزٌ للجميع، ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن، ولا يدرس الطلاب في وقت جوعه أو همه أو غضبه، فربما أجاب بغير الصواب.

وكان الهدف من كل ذلك هو أن يستميل إليه طلبته، وقد كان الاهتمام بهذه الوظيفة للحد الذي يكتب فيه السلطان توقيعاً يصدر من ديوان الإنشاء، يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس سواء إن كانت مادة تفسير أو حديث أو فقه وغير ذلك، إذ يطلب فيه من المدرس أن يكون حريصاً مع طلبته بإفادتهم وحثهم على الانشغال بالعلم[3]، فالمعلم يجب عليه الاجتهاد حتى يستفيد طلبته من علمه،

---

(1) صبح الأعشى، ج11، ص227-229.

(2) المصدر السابق، ص117-118-119.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص246-247/ النويري، المصدر السابق، ج30، ص341.

فيبدل لهم كل ما يملك من علم ومعرفة، كما يشترط في المدرس أن يكون قدوة لطلابه في الحلم والتسامح والبذل وعفة اللسان وصدق النصيحة[1].

كذلك يوجز لنا السبكي[2] واجبات المدرس بقوله: " وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين، وإن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، على أن ينتهوا إلى درجة التحقيق...".

كذلك على المدرس أن يضبط درسه وأن يراعي مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره، لما فيه من مصلحة للطلبة، إذ يقتضي أن يلقي الدرس في مواعيده وإلا لن يصرف له ما يستحق من معلوم التدريس وفقاً لما يقتضيه شرط الواقف[3]، وفي حال تعددت الدروس التي يدرسها يجب عليه تقديم الأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث وهكذا، وإن كان في مدرسة لواقفها شرط في الدروس اتبعه[4].

مما تقدم يمكن القول أن هذه الشروط التي ورد ذكرها توضح أهمية هذه الوظيفة، والحرص على من يتلقون العلم للحد الذي تطلب توفر هذه الشروط في كل من أراد شغلها، إضافة لذلك كان سلاطين المماليك في كثير من الأحيان يقومون بتعين هؤلاء المدرسين بأنفسهم، ومن ذلك عندما أكمل الظاهر بيبرس عمارة مدرسته الظاهرية سنة (660هـ/1261م)، عين بنفسه مدرسيها[5].

---

(1) ابن جماعة، المصدر السابق، ص123-124.

(2) معيد النعم ومبيد النقم، ص105.

(3) ابن جماعة، المصدر السابق، ص132.

(4) المصدر نفسه، ص122.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ص504/ المقريزي، الخطط، ج2، ص374.

وبالمدرسة الناصرية تولى التدريس بها قاض القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ليدرس المالكية، وقاض القضاء شرف الدين عبد الغني الحرابي ليدرس فقه الحنفية، والشيخ صدر الدين محمد بن المدخل المعروف بابن الوكيل الشافعي ليدرس فقه الشافعية(1).

هذا دلالة على أهمية هذه المهنة، وما كان يتمتع به أصحابها من منزلة ومكانة رفيعة، ومن الملاحظ أن بعض المدرسين جمعوا بين وظيفة التدريس في إحدى المدارس وبين وظائف أخرى كالخطابة والإفتاء والقضاء في الوقت نفسه، فالعز بن عبد السلام كان يجمع بين القضاء والخطابة بجامع عمرو بن العاص والتدريس بالمدرسة الصالحية(2).

مما تقدم يمكن ملاحظة الاهتمام بهذه المهنة والعناية بأصحابها، والقدر الذي وصلت إليه، وانعكاس ذلك على طلاب العلم، وعلى تقدم الحركة العلمية وتطورها فهؤلاء هم روادها.

2)**المعيدون**:

ارتبطت وظيفة المعيد بنشأة المدارس فقد روعي فيها تفاوت مستويات الطلبة في الفهم والاستيعاب، لذا كانت المدارس تهتم بتولية هذه الوظيفة لمن هم أكفاء، فتكون مهمتهم الرئيسية إعادة الدرس الذي ألقاه المدرس على الطلبة، " ...فالمعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس لتفهيم بعض الطلبة،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص382./السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص265/ ماهر، المرجع السابق، ج3، ص127.

(2) الداوودي: الحافظ شمس الدين محمد بن علي ، طبقات المفسرين، دار الكتب العربية، بيروت، (د.ت)، ج1، ص318 .

ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة "[1]، والظاهر أن تلك الوظيفة كانت أحياناً تساهم في سد العجز الذي كانت تواجهه بعض المدارس من جراء نقص المدرسين، فالمدرسة الناصرية بقيت ثلاثين عاماً (648-678هـ/1248-1279م) خالية من المدرسين، واكتفى فيها بالمعيدين وكانوا عشرة أنفس[2].

وذلك لا يعني أن المعيد يبقى في تلك الوظيفة طوال حياته، بل كان بعضهم يستقل بعد ذلك بالتدريس، وهذا النص يبين لنا أن أعداد المعيدين كانت محددة في أي مدرسة من المدارس بحسب ما يقتضيه شرط الواقف.

أما فيما يخص تعيين المعيدين فكان يتم من خلال صدور توقيع شريف من الواقف، أو من أحد المشايخ، فعندما استقر شمس الدين محمد بن القاضي علم الدين ابن القماح في الإعادة بمدرسة الشافعي في القرافة، كانت وظيفته تقوم على إعادة ما شرحه المدرس حتى يحسنَ الطلبة فهمه، وكان ذلك في مختلف العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغيرها من العلوم الأخرى[3]، فالمعيد يشرح لمن احتاج الشرح ويصحح ويرغب الطلبة في الاشتغال بالعلم، ولا يمنع فقيهاً أو مستفيداً ما يطلب من زيادة تكرار وتفهيم معنى[4].

وبلغ من أهمية وظيفة المعيد أن القائم عليها أحياناً يعمل مدرساً في مدرسة أخرى، فقد كان الشيخ ظهير الدين جعفر ابن يحي القرشي الشافعي مدرساً في المدرسة القطبية بالقاهرة، ومعيداً بمدرسة الشافعي[5].

---

(1) السُبكي، معيد النعم ومبيد النقم، 108.

(2) الخطط، ج2، ص400.

(3)المقريزي، السلوك، ج1، ص700/ الحجي، صور من الحضارة، ص168.

(4)القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص464./ المقريزي، السلوك، ج1، ص1046.

(5)المقريزي،ج1، ص 721/ الحجي، صور من الحضارة، ص168.

أخيراً يمكن القول أن وظيفة المعيد كان لها أهمية في ذلك العصر، فهي بمثابة تدريب وأعداد للمعيدين ليتصدروا التدريس بخبرة ودراية وتجربة.

3) **المؤدب(الفقيه)***:-

مهمته تعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم، هذه الوظيفة كانت تمارس داخل الكتاتيب، فالمؤدب يجب أن تتوفر فيه عدة شروط منها أن يكون صحيح العقيدة وذلك لمسؤوليته عن تنشئة الصبية الصغار[1]، فالسُّبكي يقول[2]".. أنه يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه، ويجب عليه أن يعلمهم الكتابة والخط قبل القرآن ومن ثم الحديث، ولا يتكلم معهم بعقيدة أهل السنة والجماعة، وله تمكين الصبي المميز من كتابة القرآن في اللوح وحمله وحمل المصحف".

كذلك يجب أن يكون متزوجاً متديناً عاقلاً من حملة كتاب الله عالم بالقراءات السبع ورواياتها وأحكامها، صالح لتعليم القرآن الكريم والحديث والخط والأدب وأن يعلم الأطفال ما يطيقون تعلمه، وأن يعاملهم بالإحسان والتلطف والاستعطاف فيما يرغبهم في القراءة ويطيب لهم الاشتغال بالعلم[3].

4) **العريف**:-

وظيفته معاونة الأطفال المتخلفين عن غيرهم ومراجعة ألواح الأطفال في غيبة المؤدب، ويشترط فيه الشروط الخلقية والدينية المطلوب توفرها في المؤدب[4].

5) **نقيب الطلبة**:

مهمته مراقبة أحوال الطلاب والاهتمام بشؤونهم، وحددت وظيفته في وثيقة

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص167.

(2) معيد النعم ومبيد النقم،ص130.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص167.

(4) المرجع نفسه، ص168.

الوقف بأن "... يرتب الحاضرين ومن يدخل عليهم على قدر منازلهم، ويوقظ النائم، ويشير إلى من ترك ما ينبغي فعله، أو فعل ما ينبغي تركه، ويأمر بسماع الدروس والإنصات لها"[1].

6)كاتب الغيبة:-

هذه الوظيفة تشبه وظيفة الموجه أو مراقب الدوام في عصرنا، إذ تقتصر مهمة صاحبها على تسجيل أسماء الطلاب الغائبين عن دروسهم والسؤال عن أسباب هذا الغياب وسماع أعذارهم في ذلك، وضبط أسماء الحضور والتأكد من سماعهم للدرس وعليه اعتماد الحق والأمانة في عمله[2].

7)الطـــلاب:-

هم الأساس الذي تبنى عليه العملية التعليمية في تلك المدارس لذلك حرص منشئوها على توفير الرعاية لهؤلاء الطلاب في مدارسهم، وقد أمدتنا المصادر التاريخية بمعلومات قيمة عن هؤلاء الطلاب وطرق تدريسهم وسكنهم، إلا أنها في الوقت نفسه لم تعيننا على معرفة عمر الملتحق بالمدارس هل كان محدداً في حجة واقفها، إلا أننا لا نرجح إلا أن يكون المتقدم عاقلاً راشداً في المدارس، ولقد كانت هناك العديد من الشروط التي يجب أن يلتزم بها الطلاب إذ يجب أن تكون لديه رغبة في التحصيل العلمي، وأن يشغل جل وقته بالعلم، وأن يكون حريصاً في اختياره لشيخه لأنه سيكون قدوة له في حسن أخلاقه وأدبه، وألا يخرج عن معلمه في أمر ولا رأي بل يكون معه فيما يعتمده ويبالغ في حرمته، ويناديه بما يليق به من ذلك أن يقول أيها المعلم وأيها الحافظ ونحو ذلك، وأن يجلس بين يدي شيخه جلسة الأدب

(1) ابن جماعة، المصدر السابق، ص41.

(2) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم،ص130.

وأن يحسن خطابه مع شيخه بقدر الإمكان[1].

كما كانت هناك قواعد تنص على ضرورة انتظام الطلاب في حضور الدرس فقد جاء في وثيقة وقف المدرسة الصرغتمشية أنه على الطلبة الانتظام في حضور الدرس مع المدرس طوال الأيام الأربعة المحددة إسبوعياً حيث يستمر الدرس ما بين طلوع الشمس حتى الزوال، ومن ينقطع منهم ثلاثة أيام من كل إسبوع بغير عذر قطع ونزل غيره مكانه[2].

كان طلبة المدارس ينظمون وفقاً لما تقضيه حجة وقف كل مدرسة على حدة وكذلك أعدادهم لم تكن ثابتة في كل المدارس وإنما كانت مرتبطة بشرط الواقف، فأحياناً يتم تحديد عددهم كما هو الحال في مدرسة فرج بن برقوق (813هـ/1410م) "... فقد رتب بها أربعين طالباً من المتصوفة "[3]، بينما مدرسة الأمير جمال الدين الإستادار التي أنشأها (810هـ/1407م) لم تحدد فيها عدد معين من الطلاب وإنما جاء فيها تحديد لعدد المدرسين "...بأنهم ستة وكان لكل منهم طائفة من الطلبة "[4] ولكنه لم يحدد عددهم.

كان بهذه المدارس طلاب منتظمون وهؤلاء أغلبهم من الغرباء والمسافرين القادمين من بلدان أخرى، فقد كان هؤلاء يفضلون الإقامة بالمدارس المملوكية للاستفادة من الخدمات التي كانت تقدم في تلك المدارس ومن أبرزها الاستماع لدروس الفقه عن أكابر المشايخ المتخصصين، وهناك طلاب غير منتظمين وهم الذين كانوا يحضرون مجالس العلماء بالمدارس بصفة غير منتظمة على حسب ما

---

(1) ابن جماعة، المصدر السابق، ص176-177-186-187-190-192.

(2) الحجي، صور من الحضارة، ص168.

(3) ابن تغاري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص64.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص403.

تقتضيه في ذلك ظروفهم، ولذا فإنه لم يكن بالضرورة أن يشملهم شرط الواقف من حقوق وواجبات[1].

ب) الموظفون بالمراكز التعليمية :

1) الناظر*:

تعد وظيفة الناظر من الوظائف الرئيسية في المدارس بالعصر المملوكي، فمهمته الرئيسية هي الإشراف على مصالح الوقف بها، وما يحتويه فهو المسئول عن الأموال المخصصة للمدرسة وتصريفها وإليه ترفع حساباتها لينظر فيها، فقد صدر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بتقليد القاضي جلال الدين القزويني قاضي قضاة الشافعية وظيفة الناظر على المدرسة والقبة والجامع الناصري والتي كان من أهم شروطه فيه "..أن يكون عالماً موثوق الأخلاق،... وهذه الصفات توافرت في القزويني فهو حجة الإسلام والمسلمين قدوة العلماء ..ونحن لهذه المزايا نرد إلى نظره الكريم ما أهمنا من عمارة المسجد والجامع...والنظر إلى التربة والمدرسة الأشرفين وأوقافهما... فإن الأوقاف ودائع"[2].

بالنظر لهذا المرسوم نستطيع استخلاص عدة نقاط مهمة عن وظيفة النظر وهي:

حسن اختيار صاحب هذه الوظيفة وأهم الصفات التي يجب أن تتوفر به من العلم والأخلاق والأمانة وهذه الصفات توافرت في القاضي جلال الدين القزويني، كذلك مدى أهمية هذه الوظيفة في تسيير أحوال المراكز التعليمية واستمرار عملها.

---

(1) الحجي، صور من الحضارة، ص168.

* كلمة ناظر مأخوذة إما من النظر الذي هو رأي العين فهي بمعنى الرعاية والإدارة، أو من النظر بمعنى التفكير فيما فيه المصلحة من ذلك، ويختلف النظر باختلاف ما يضاف إليه كناظر الجيش وناظر المال وناظر الجامع وغير ذلك للمزيد أنظر القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص437.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج11، ص259-260.

ومن مهمات الناظر الإشراف على المؤسسة التعليمية بكل أساسياتها من عمارتها وأوقافها والنشاط القائم بها، والاعتناء بها والمحافظة عليها[1]، وهو المسئول عن اختيار المدرسين الأكفاء من دوي العلم والقدرة والدراية بأمور المدرسة التي سيدرسون بها فعندما عين ناظر الوقف الشيخ أحمد بن محمد العسجدي (ت 758هـ/1356م) مدرساً للحديث بالمدرسة المنصورية اعترض الطلاب على ذلك وقالوا له: " وليت علينا من لا يصلح ونحن لا نريد إلا من ننتفع بعلمه"[2].

إضافة إلى مهمات أخرى يحددها الواقف ويكون الناظر ملزم بتنفيذها والحرص على تنظيمها من هذه المهام ترتيب مواعيد الدراسة، ونظام العطل إذا كان يتم تحديدها بدقة خاصة في المراحل الأولى ولعل مرد ذلك هو صغر سن الطلاب الذين يرتادون هذه المراكز العلمية وأهمها المكاتب، كذلك الإشراف على المرتبات وتنظيمها بما يتلاءم والعاملين بهذه المدارس إذ جعلت لهم مبالغ مالية أجريت لهم شهرياً، بالإضافة للمعونات، وقد اختلفت المرتبات من مدرسة لأخرى وفقاً لما يراه الناظر[3].

مما تقدم ذكره نلاحظ جلياً مدى أهمية هذه الوظيفة والدور الكبير الذي يقوم به صاحبها مما يسترعي الدقة في اختيار من يتولى هذه الوظيفة.

2)الإمام:

هذه الوظيفة لم يقتصر وجودها على الجوامع والمساجد فقط بل وجدت في المدارس بالعصر المملوكي إذ لا تكاد تخلو مدرسة من إمام يقوم بإمامة المقيمين

---

(1) الحداد، المرجع السابق، ص49-50/ أمين، المرجع السابق، ص241-242.

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص287-289.

(3) النويري، المرجع السابق، ج31، ص111/ المقريزي، الخطط، ج2، ص274.

بالمدرسة في الصلاة، ومن هذه المدارس المدرسة الناصرية التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون (703هـ/1303م) فقد رتب بها إماماً يئم الناس في الصلوات الخمس[1]، كذلك المدرسة الطيبرسية سنة (709هـ/1309م) التي أنشأها علاء الدين طيبرس فقد جعل بها إماماً[2].

3)المؤذن:

وظيفته أن يؤذن للناس في أوقات الصلاة ومعرفة أوقاتها وإبلاغ الصوت وأن يؤذن للصبح قبله وعند دخول وقته لذلك جعل للصبح مؤذنان[3]، كانت هذه الوظيفة من الوظائف الموجودة بالمدارس فالمدرسة الصالحية جعل بها الأمير جمال الدين أقش عند زيارته لها سنة (730هـ/1329م) "..جعل بها أوقافاً ومرتبات للعاملين بها ومنهم ستة مؤذنين جعل لكل منهم عشرة دراهم..."[4] ، كذلك المدرسة الأقبغاوية التي أنشأها الأمير عبد الواحد سنة (740هـ/1339م) إذ يذكر المقريزي[5] "..أنه جعل بها إماماً راتباً ومؤذناً".

4) البواب:

مهمته تنظيم الداخلين إلى المدرسة والخارجين منها فيمنع دخول من ليس له ارتباط بها، فهو ".. يجب عليه المبيت بقرب الباب بحيث يسمع من

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص382/ السيوطي، حسن المحاضرة،ج2، ص265.

(2) ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص96.

(3) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص115.

(4) النويري، المصدر السابق، ج33، ص229.

(5) الخطط، ج2، ص384.

يطرقه عليه، والفتح للساكنين في المكان، أو قاصديه، وما يفعله بعض البوابين من غلق الباب في وقت معلوم من الليل إما بعد صلاة العشاء أو في وقت أخر بحيث إذا جاء أحد السكان لا يفتح له فهو غير جائز إلا إذا كان هذا شرط واقف المكان بألا يفتح بابه إلا في وقت معلوم"[3].

من الأمثلة على ذلك بواب خانقاه ركن الدين بيبرس الجاشنكير حيث قيل أنه "..لا يمكّن بوابها غير أهلها من العبور إليها لما له في النفوس من المهابة"[2]، والمدرسة الحجازية كان بها طواشية يقومون بتنظيمها[3].

إضافة لغير ذلك من الموظفين الذين يتم تعيينهم للنظر في مصالح من يرتادون هذه المراكز التعليمية والدينية.

(1) السُبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص115.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص417.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص382-383.

ج) القاعات الدراسية وسكن الطلاب بالمدارس :

1) القاعات الدراسية:

تميزت المدارس في العصر المملوكي بوجود قاعات لإلقاء الدروس بها فقد حرص منشئوها على أن تكون هذه القاعات مناسبة لعدد الطلاب المقررين بأي مدرسة، فالمدرسة المنصورية (703هـ/1303م) ورد في حجة وقفها تبيان للقاعات الدراسية بها حيث حدد الإيوان القبلي (الجنوبي الشرقي) بكماله و أروقته مسجداً لله تعالى على حكم المساجد الإسلامية، وحدد إيوان القبلة (الجنوبي الشرقي) مقراً للدراسة تدرس به ثلاثة مذاهب وليس مذهب واحد[1].

لعل هذا ينفي ما ورد في بعض المؤلفات بشأن ارتباط عدد الإيوانات بعدد المذاهب التي تدرس بالمدرسة حيث جرت العادة أن يكون كل إيوان مخصص لتدريس مذهب معين، ولكن في هذه المدرسة اختلف الأمر فقد خصص إيوان واحد لتدريس ثلاثة مذاهب، فالتخطيط المعماري للمنشأة لا يرتبط بالوظيفة التي تقوم بها، وإنما يقوم أساساً على رغبة الواقف فهو الذي يحدد ويقرر الوظائف التي تقوم بها منشأته.

بالعودة لأروقة المدرسة المنصورية فإن الرواق الأوسط من إيوان القبلة اختص بجلوس طائفة الفقهاء الحنفية، والرواق الأيمن اختص بجلوس فقهاء المالكية، والرواق الأيسر من إيوان القبلة بجلوس الفقهاء الحنابلة، والإيوان البحري خصص لتدريس المذهب الشافعي[2]، وكان المدرسون يوزعون كل وفقاً لمذهبه المختص بتدريسه.

---

(1) الحداد، المرجع السابق، ص50/ ماهر، المرجع السابق، ج3، ص127.

(2) ماهر، المرجع السابق، ج3، ص127-128.

كذلك المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس(660هـ/1261م) كان بها أربعة إيوانات خصص كل إيوان لطائفة معينة فكان الإيوان القبلي للشافعية، والإيوان البحري للحنفية، والشرقي لأهل الحديث، والغربي للقراء بالقراءات السبع[1].

مما تقدم ذكره نجد أن المدارس أنشئت وبها قاعات دراسية لتتلاءم مع الغرض الذي أنشئت من أجله تلك المدارس.

2) مساكن الطلبة والمدرسين:

بلغ الاهتمام بالمدارس في ذلك العصر أن جعلت بها مساكن للقائمين فيها من الطلبة والمعلمين خاصة أن هذه المساكن ملحقة بالمدارس لتساعد الطلبة على التفرغ لدراستهم، وخاصة القادمين من مناطق بعيدة، ولتكون معينة لهم على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل في أوطان الأهل والأقارب[2].

لقد اهتم منشئو تلك المدارس بجعلها مشتملة على مساكن للطلاب لما لها من دور كبير في استقرار أحوال الدراسة وتنظيمها، وكان ذلك من اختصاص الواقف فعلى واقف المدارس والسكن فيها "...أن يكون ورعاً بعيداً عن البدع، وعليه الالتزام بإسكان الطلاب المرتبين ليسكنوا هذه المدرسة أو تلك فلا يسكن غيرهم، فإن فعل كان غاصباً ظالماً بذلك[3]".

لقد تمتعت تلك المساكن الدراسية بخدمات راقية تدل على مدى الاهتمام بها فالمدرسة الصحابية البهائية كانت من أجل مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها، ويتشاحنون للسكنى في بيوتها حتى

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص504/ ماهر، المرجع السابق، ج3، ص27-28.

(2) ابن جماعة، المصدر السابق، ص 193-195.

(3) المصدر نفسه، ص210.

يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة"[1]، والمدرسة الظاهرية القديمة كان للناس في سكناها رغبةً عظيمة ويتنافسون فيها تنافساً يرتفعون فيه إلى الحكام[2].

كما جعلت المساكن الدراسية بالمدرسة الناصرية وقفاً للمدرسين والمعيدين والفقهاء والمتفقهين والمشتغلين بها ولطلاب المذاهب الأربعة، وللمؤدبين والإمام والقومة والبواب[3]، فهذه المدرسة جعلت السكن فيها لكل العاملين بها وهذا يدل على تطور وتقدم العمارة للمدارس في ذلك الوقت.

لم تكن هذه المساكن مقتصرة على الطلبة فقط كما أشرنا سابقاً، لذلك نظمت عملية السكن بها فالمدرسة المنصورية كان بها أماكن لسكن الطلبة والمدرسين وحدد سكن المدرسين بقاعات المدرسة والطبقات الثلاث للطلبة، والفقهاء يتم سكناهم في البيوت العلوية بالمدرسة وعدتها سبعة وعشرون بيتاً[4].

تشير المصادر إلى أن عالم الفقه والنحو علي عبد الله بن أبي الحسن الأردبيلي (ت746هـ/ 1345م) كان يسكن بالمدرسة الحسامية (مدرسة الأمير حسام الدين طرنطاي)[5]، كذلك سكن قاضي القاهرة أحمد بن إبراهيم بن عبد الله الغني الحنفي السروجي (ت 710هـ/1310م) في سكن المدرسة الصالحية، وذكر عنه أنه لما أُخرج من سكنها ازداد ألمه وضعف ومات[6]، وعرف عن الطبيب المشهور ابن النفيس ما يفيد أنه صنف تصانيفه الشهيرة أثناء إقامته بالمدرسة المنصورية[7].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2،ص371.

(2) المصدر نفسه، ج2،ص379.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص1045/ الحداد، المرجع السابق، ص51.

(4) الحداد، المرجع السابق، ص51.

(5) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص144-145.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص97.

(7) الأسنوي: عبد الرحيم، طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ج2، ص284.

كما كلف المدرسون المقيمون في سكن المدارس بمهمات وواجبات يلخصها لنا ابن جماعة[1] وهي: " .. ينبغي على المدرس الساكن بالمدرسة ألا يكثر البروز والخروج من غير حاجة، فإن كثرة ذلك يسقط حرمته من العيون، ويواظب على الصلاة في الجماعة فيها ليقتدي به أهلها ويتعودوا ذلك"، كما بين واجبات من سكن المدارس من غير المدرسين " بأنه يجب على كل من سكن المدرسة مصاحبة الفضلاء منها، وأن يجعل المدرسة منزلاً يقضي به علمه ثم يرتحل منه، وأن يظهر لأهل المدرسة التي يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والحرفة، لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه"[2].

أما فيما يخص السكن المدرسي فقد كان مؤلفاً من عدة طوابق سفلية وعلوية، خصصت الطوابق العلوية لأصحاب المقدرة على صعودها، والطوابق السفلية لغير القادرين على الصعود ولأصحاب الفتيا (الفتوى) ليسهل على الناس قصدهم[3].

بالنسبة للطلاب كان لزاماً عليهم التعرف على شروط المدرسة قبل الإقامة بها ليؤدي حقوقها ذلك أنه لها آداب يجب أن تحترم، منها أنه يجب على ساكني البيوت العليا الترفق بمشيتهم كيلا يؤذوا ساكني الطوابق السفلية، وفي حال التقاء اثنين في أعلى الدرج يبدأ أصغرهما بالنزول، وإن اجتمعا في أسفل الدرج تأخر أصغرهما ليصعد أكبرهما قبله[4].

من تلك الأنظمة أيضاً ألا يتخذ باب المدرسة مجلساً، ولا ينظر في بيت أحد عند مروره من شقوق الباب ونحوه، ولا يرفع صوته جداً في تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلا يشوش على غيره، بل يخفضه ما أمكن ويتحفظ من وقع القبقاب،

---

(1) ابن جماعة، المصدر السابق، ص259-260.

(2) المصدر نفسه، ص265-266.

(3) المصدر نفسه، ص267-268.

(4) المصدر نفسه، ص270-271.

والعنف في إغلاق الباب، وإن كانت المدرسة مكشوفة على السالك من باب أو شباك تحفظ فيها عن التجرد من الثياب[1].

كانت هذه الشروط والآداب من الأساسيات لكل من سكن المدارس الالتزام بها فهذه المدارس كانت مساكنها المقر الدائم للطلبة للإقامة بها حتى ينهوا دراستهم، إلى جانب وجود أشخاص أخرين سبق الإشارة إليهم.

---

(1) ابن جماعة، المصدر السابق، ص272-273.

د)طرق التعليم والمناهج الدراسية:

المقصود بطرق التعليم هو كيفية الدراسة داخل المراكز التعليمية والعلوم التي تدرس وطريقة التدريس واختلفت الأماكن التي يتم التدريس فيها من حيث طرقها وأنظمتها وكذلك العلوم التي تستسقى فيها والمقصود بالأماكن هنا هما (الكتاتيب والمدارس).

1) التعليم بالكتاتيب:

يعد الكتاب المرحلة التعليمية الأولى في حياة المتعلم الذي يوجه في طفولته للكتاب، فقد خصص لكل كتاب مدرس عرف بالمؤدب لتعليم الأطفال الأيتام وغيرهم من الأطفال، وإلى جانب المؤدب كان هناك العريف الذي يقوم بمساعدة المؤدب في تعليم الأطفال، فأول ما يتم تعليمه في الكتاب الحروف ثم القراءة والكتابة ومن بعدها يتم تعليمهم القرآن الكريم[1].

كذلك يجب أن يترفق بالصغار وأن يعلمهم السور القصار من القرآن الكريم بعد تعليمهم الحروف وضبطها بالشكل ثم يعرفهم بعقائد السنن وأصول الحساب ويعلمهم الصلاة لمن بلغ عمره سبع سنوات، ويضربهم عند إساءة الأدب، ولكن لا يضرب بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطاً[2].

يتم تعليم الأطفال القرآن الكريم تلقيناً صيانةً له من التحريف، ويتم تكليف التلاميذ بعرض ما أملاه عليهم حفظاً لا نظراً، وإذا أتم الولد حفظ القرآن كاملاً احتفل به احتفالاً كبيراً يسمى (الإصرافة) فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقفه بالحرير،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص379/ فرغلي، المرجع السابق، ص7.

(2) عاشور، المجتمع المصري، ص169/ الحجي، صور من الحضارة، ص188-189.

ويقوم أهل الصبي صاحب الإصرافة بتزيينه بقلائد الذهب والعنبر ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقاً فيها ثياب من حرير وعمائم، ويسير بين يديه بقية صبيان الكتاب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته وعندئذ يدخل الشيخ ويعطي اللوح لأم صاحب الإصرافة فتعطيه ما تقدر عليه من مال[1].

الظاهر أن الأطفال كانوا يصرفون من المكاتب عند بلوغهم الحلم ويأتي غيرهم للاستفادة في نفس المكان، إلا إذا أظهر أحدهم نبوغاً وميلاً للدرس فإنه يسمح له بالمداومة على الحضور والاشتغال بالعلم[2]، ومن كان يظل بالمكتب حتى البلوغ دون أن يحفظ القرآن فكان يصرف ليحل محله طفل أخر.

2) التعليم بالمدارس:

لقد كانت طرق التعليم ميسرة بالمدارس فإلى جانب وجود سكن للطلاب وخزانات الكتب التي لا تكاد تخلوا مدرسة منها بحيث يستفيد منها الطلاب والعلماء، فقد كان هناك المدرسين الذين يتم اختيارهم بعناية وأغلبهم من مشايخ علماء العصر وأوسعهم علماً وقد كان المدرسون على مراتب يعين كبيرهم صغيرهم ويأخذ بيده ويقوده إلى أن يغدوا من العلماء الكبار[3].

أما عن مواد الدراسة التي كانت تدرس في ذلك العصر فنجد الدروس الدينية في مقدمة الدروس فقراءة القرآن الكريم وتفسيره كانت على رأس الدروس المقررة، ومن تم فقه المذاهب الأربعة وأصولها، وكان الاهتمام واضحاً بدراسة الفقه فجامع عمرو ابن العاص وحده كان به أكثر من ثمان زوايا لدراسة الفقه[4]، كما ضمت

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص169.

(2) الحجي، صور من الحضارة، ص189.

(3) فرغلي، المرجع السابق، ص71.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص355-356.

جوامع أخرى أماكن خاصة لتدريس الفقه مثل جامع أق سنقر[1]، كذلك جامع السلطان الناصر حسن اشتمل على (أربعة مدارس) لدراسة المذاهب الفقهية الأربعة[2].

يلي تدريس الفقه دروس الحديث ثم التفسير ثم الوعظ والكلام والتصوف ثم دروس النحو والصرف والبلاغة، وقد تم الاهتمام بغير هذه الدروس عناية فرعية كدروس الطب التي كانت تدرس بالبيمارستان كما هو الحال في البيمارستان المنصوري كما أشرنا إليه سابقاً، إضافة لعلوم الفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة، ولعل الهندسة كانت أوفر حظاً فقد حظيت بعناية المماليك بها للحاجة إليها في البناء وهذا يظهر جلياً في اهتمامهم بعمارة المراكز المختلفة[3].

لعلنا نلاحظ من خلال سردنا لتاريخ بعض المدارس أن الدروس المقررة بها ليست متشابهة في كل حالة، فقد كان بعضها يقرر فيه درس للشافعية وبعضها للحنفية وهكذا، وبعضها دروس في الحديث فكان لكل مذهب مدرسة أو أكثر، إلا أن بعضها اجتمعت فيه دروس المذاهب الأربعة كما هو الحال في المدرسة المنصورية حيث كانت تدرس بها المذاهب الأربعة[4]، فيما نجد المدرسة البقرية التي أنشأها الرئيس شمس الدين شاكر غزيل جعلت وقفاً على الشافعية[5].

مما تجب الإشارة إليه أنه مما سبق نلاحظ أن دور التعليم لم تكن بها خطة منهجية أو برامج مقررة تحدد للناشئين سبيل الدراسة وتلزمهم باستيعابها، بل ثمة

---

(1)المقريزي، الخطط، ج2، ص309.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص316.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص75-76.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص380/ النويري، المصدر السابق، ج33،ص70/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص264.

(5) المقريزي، الخطط، ج2، ص 391.

كتب في الفقه أو الحديث أو الأصول أو المنطق والنحو والقراءات ونحو ذلك يدرسها الشيوخ في دور التعليم فيختار كل شيخ منها ما يختص به ويدرسه لطلبته.

هـ) الإجازات* العلمية:

الإجازات العلمية كانت تمنح إلى الذين أتقنوا علماً ما، وهذه الإجازة هي الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده وحسن سلوكه وانكبابه على العلم وتفرغه للدراسة والبحث، وتعد تلك الإجازات بمنزلة شهادة شخصية من الأستاذ لتلميذه، والإجازة تكون إما شفهية أو تحريرية[1].

أيضا هي بمثابة الإذن لطالب العلم من شيخه بتدريس ما تلقاه عنه، فهذا الإذن لم يكن يصدر من مدرسة أو مركز تعليمي أخر وإنما كانت تصدر عن الشيخ بصفته الشخصية حين يتأكد من قدرة تلميذه على تدريس ما أخذه عنه[2].

لقد كان يجيز الطالب أكثر من عالم أو شيخ، وربما أجاز له كل شيخ في مادة مختلفة أو في مادة واحدة أو كتاب واحد[3].

لقد انقسمت الإجازات العلمية إلى ثلاثة أنواع وهي:

(إجازة العراضة – إجازة الفتيا أو التدريس– إجازة رواية الحديث)

---

* الإجازة في اللغة هي جعل الشيء جائزاً، ويقال أجاز فلاناً (أي أعطاه الإجازة أي الإذن)، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج5،ص326-327.

(1) الخولي، المرجع السابق، ص242/ سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص32.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج14، ص322/ عاشور، المجتمع المصري، ص146.

(3)الخولي، المرجع السابق، ص24.

1)إجازة العراضة:

هي شهادة يمنحها أحد الشيوخ لأحد طلابه بعد أن يعرض عليه أحد الكتب العلمية ويتأكد من أنه حفظه جيداً[1]، وكانت الطريقة المتبعة في ذلك هي أن يقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفتح منه أبواب ومواضع يستقرئه إياها في أي مكان اتفق له، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم استدل بحفظه لتلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وعندئذ كانت تصدر له الشهادة على ورقة مربعة صغيرة[2].

2) إجازة الفتيا أو التدريس:

هي شهادة يمنحها أحد الشيوخ لواحد من طلابه بعد أن يختبره في مادته العلمية، ويتأكد من أنه فهمها فهماً جيداً يؤهله للتصدي للإفتاء أو التعليم، وهي أعلى الإجازات الدراسية آنذاك، وقد حرص الكثير من الطلاب على الإكثار منها لذلك نجد أن بعضهم يجاز في مادة ويرجأ في أخرى، فهو في مادة أستاذ معلم، وفي أخرى طالب تحت الإجازة، فالطالب نجده يلتزم عدداً كبيراً من شيوخ العلم للاطلاع على ما عندهم من مسائله ومشاكله وقد يسافر أحدهم من بلد لأخر أو من مصر إلى سواه للقاء الشيوخ والتعلم منهم واستمناحهم هذه الإجازات[3].

---

(1) سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص32.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج14، ص327-330.

(3) المصدر نفسه، ج14، ص322/ سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص32/ ماهر، الأزهر أثر وثقافة، دراسات في الإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، مصر، العدد22، 1382هـ/1962م، ص19.

3)إجازة رواية الحديث:

هي إجازة يمنحها أحد شيوخ الحديث وحفاظه لواحد من تلاميذه يجيزه فيها برواية ما أخذه من الأحاديث النبوية شفاهة، ويجيزه بإجازة غيره ممن يأخذون هذه الأحاديث عنه[1].

ولم تكن المدة التي يقضيها طالب العلم في مصاحبة العلماء للأخذ عنهم محددة أيضا، بل يرجع إلى مدى قدره الطالب على استيعاب المادة العلمية التي يأخذها عن شيخه وإتقانه لها، ثم رغبة الطالب نفسه في أن يجيزه شيخه أو مدرسه بعد أن يكون قد تمكن من علمه وتأهل منه، ويعقب منح الإجازة عادة احتفال خاص يجتمع فيه أهل العلم والفضل ويؤدي الشخص صاحب الإجازة ما يطلب منه تسميعه فيما يشبه المناقشة العلنية في الوقت الحاضر[2].

لقد خضعت الإجازات العلمية لتغيرات كثيرة فبعد أن كانت في بدئها موجزة العبارة سهلة الأسلوب مقصورة على ضبط الرواية و إقرار الحقائق صارت تمنح لمن أراد العمل بها في مجالات أوسع كأن يتصدى للتدريس أو الفتيا أو القضاء[3].

هذا نص لإجازة علمية منحت لطالب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي وفيه :

[استخير الله تعالى في الإيراد والإصدار، وأعتصم به من أَفَتَي التقصير والإكثار، وأستغفر الله فيما فرطّ في الجهر والإسرار، والنجوى في فنون من العلوم الشرعية العقلية والنقلية، فألفيته يرجع إلى معقول صحيح ومنقول صريح، واطلاع عن

---

(1) سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص32.

(2) الخولي، المرجع السابق، ص243.

(3) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج10، ص31.

المشكلات واضطلاع بحل المعضلات، لاسيما في فقه المذهب فإنه أصبح فيه كالعلم المذهب، وقام بعلم العربية والتفسير وصار فيها الفاضل النحرير، وقد أجبته إلى ما ألتمسه وإن كان غنياً بما حصل واقتبس فليدرس مذهب الإمام الشافعي لطالبيه، وليجب المستفتى بقلمه وفيه ثقة بفضله الباهر وورعه الوافر، وفطرته الوقادة والمعيته النقادة والله تعالى ينفعنا وإياه بما علمناه ويرفعنا بذلك لديه فما المقصود سواه][1].

هذه الإجازات كانت بمثابة حافزاً للطلاب إذ جعلهم ذلك يعنون عناية تامة بحفظ عدد من الكتب المشهورة عن ظهر قلب، ويبدو أنه كانت هناك عناية كبرى بتقوية ملكة الحفظ، ولعل الرغبة في حفظ أحاديث الرسولﷺ كانت حافزاً لذلك، فالحفظ لم يكن مقصوراً على علم دون أخر بل يتناول كتب الحديث والفقه والنحو والمنطق ونحوها، فهناك كتب جليلة ظفرت بعناية الطلاب والشيوخ دون غيرها، منها ألفية ابن مالك في النحو، والأربعون حديثاً النووية، وكتب الحديث منها الموطأ، وصحيح البخاري وصحيح مسلم وغير ذلك الكثير [2].

كل ذلك أسهم في إثراء الحركة الفكرية والعلمية والحفاظ على إرث عظيم من الكتب والمؤلفات الخاصة بذلك العصر.

---

(1) ماهر، الأزهر أثر وثقافة، ص19-20.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج3، ص77.

المبحث الثاني: أبرز علماء العصر المملوكي:

حظيت مصر في العصر المملوكي بجمهرة من أعظم العلماء الذين كان لهم دور كبير في إثراء الحركة الفكرية، فقد حظي هؤلاء العلماء بنفوذ داخل الدولة لشغلهم عدة وظائف كالقضاء والتعليم وغيرها من الوظائف كما أسلفنا ذكره، وقد برز كثير من العلماء في تلك الحقبة، منهم على سبيل الذكر لا الحصر:

ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام هو الإمام القدوة بن أبي القاسم بن حسن ابن محمد بن مهدب السلمي، شيخ الإسلام، سماه تلميذه تقي الدين بن دقيق العيد بسلطان العلماء، لعلمه الغزير واطلاعه الواسع وإيمانه القوي وحجته البالغة وزهده وحبه للحق، ولد سنة (577هـ/1181م) ببلاد الشام[1]، اهتم منذ صغره بالعلم وتتلمذ على يد فخر الدين بن عساكر، وأخذ الأصول عن السيف الأبدي، وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وحنبل ابن عبد الله الرصافي[2].

عاش ابن عبد السلام زمن الدولة الأيوبية، وطلب العلم ببلاد الشام فبرع في الفقه والأصول والحديث والتفسير، وتولى كثيراً من المناصب الهامة خدمةً للعلم، منها التدريس والخطابة بالجامع الأموي بدمشق، والإمامة به أيضاً[3].

خرج من الشام إلى مصر سنة (639هـ/1241م)، تولى الخطابة بجامع عمرو بن العاص، والقضاء بمصر والوجه القبلي، كما تولى تدريس فقه الشافعية بالمدرسة الصالحية، وهو من ألقى دروساً للتفسير في مصر[4].

من مؤلفاته (تفسير القرآن)، (الفتاوى الموصلية)، (مختصر النهاية) واسمه

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص101 / الكتبي، المصدر السبق،ج1، ص72.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص176-177 / الخولي، المرجع السابق، ص72.

(3) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص102.

(4) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص179.

(الغاية)، أيضاً (شجرة المعارف)، (مختصر صحيح مسلم)، (الإمام في أدلة الأحكام)، وغيرها الكثير، وقد عاش نحو(83) سنةٍ، حيث توفي سنة(660هـ/1261م)[1].

– الشيخ تقي الدين أبو الفتوح محمد بن الشيخ مجد الدين علي بن مطيع القشيري القوصي، المعروف بابن دقيق العيد، وهو أحد رجال العصر البارزين في نواحي متعددة علمية وأدبية، فهو قاضي القضاة، العالم الخطيب الأديب الكاتب الشاعر والمؤلف الفقيه، ولد بجهة ينبع سنة (625هـ/1227م)[2].

نشأ تقي الدين بمدينة قوص ببلاد الصعيد، وكانت هذه المدينة ذات صيتٍ علمي في ذلك الوقت، تفقه على مذهب مالك، وكان مذهب والده، ثم عدل عنه إلى المذهب الشافعي، حتى أصبح فيه حجة تقتدي به، لم يكن عالماً فقط بل كان كثير الاضطلاع والتلاوة والتهجد، تولى منصب قاضي قضاة الشافعية سنة (695هـ/1295م)[3].

من أبرز شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم العز بن عبد السلام، ولعله كان سبباً في توجهه للمذهب الشافعي تبعاً له، كذلك ابن رواح وابن الجميزي وابن عبد الدائم[4]، وصفه السبكي بأنه "ذو خبرة تامة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين"[5].

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص102/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص187.

(2) الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص102.

(3) الأدفوي: أبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، ص573.

(4) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص241/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص197.

(5) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص241.

له عدة مؤلفات منها: (كتاب الإمام في الحديث)، و(الإلمام وإحكام الأحكام)، وغيرها الكثير[1]، وقد توفي ابن دقيق يوم الجمعة 11 صفر من سنة (702هـ/1302م)[2].

– ابن تيمية الحراني أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس بن أبي البركات مجد الدين الحراني الأصل والمولد[3]، ولد في حران قرب دمشق سنة (661هـ/1262م)،وقد عاش نحو 67 سنة، كان من أسرة مليئة بالعلماء، غنية برجالها وفضلائها، حيث كان أبوه شيخ حران وخطيبها، هاجر إلى دمشق سنة (667هـ/1268م)، فراراً من خطر المغول، استقر بدمشق، وسمع الحديث عن أحمد بن عبد الدائم ومجد الدين بن عساكر[4].

برع ابن تيمية في علوم الحديث، وانتهت إليه الرياسة في مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، درس وأفتى وتصدر للإقراء والإفادة عدة سنين، كان إماماً متبحراً في علوم الشريعة والتفسير والأصول والفرائض والحساب والجبر والمقابلة[5].

قدم إلى مصر خلال الربع الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فأصدر الكثير من الفتاوى التي بلغت كما يقال " ثلاثين مجلداً، جمعت ونسخت في مصر"[6]، ومن مؤلفاته: (فتاوى بن تيمية) وهو خمسة مجلدات، و(الإيمان)، وغيرها الكثير، وقد توفي ابن تيمية سنة (728هـ/1327م)[7].

– شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصر بن صالح

---

(1)الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص105 /السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص242.

(2) الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص105 /السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص242.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص271 / الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص 74/ الداوداري، طبقات المفسرين، ج1، ص45.

(4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص358-359.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص359 /العسقلاني، الذرر الكامنة، ج1، ص181.

(6) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص 74-82.

(7) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص359 / الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص 82 / سليم، عصر سلاطين المماليك، ج3، ص 232.

الكتاني البلقيني، مجتهد عصره ولد سنة(724هـ/1323م)، أخذ الفقه عن ابن عدلان والتقي، والسُّبكي، والنحو عن ابن حيان الأندلسي، وبرع في الفقه والحديث والأصول، وانتهت إليه رياسة المذهب والإفتاء ، وبلغ رتبة الاجتهاد، له عدة مؤلفات في الفقه والحديث والتفسير، منها: (حواشي الروضة)، و(شرح البخاري)، و(حواشي الكشاف)، ولي التدريس بالجامع الطولوني، توفي سنة (805هـ/1402م)[1].

– تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن عثمان بن سليم السبكي، ولد بمصر سنة (683هـ/1284م)، كان مجتهداً عاكفاً على طلب العلم، وتثقف على يد عدد من العلماء منهم ابن الرفعة، وأخذ الأصول والمعقولات عن علاء الدين الباجي، والمنطق عن شرف الدين البغدادي، والتفسير عن علم الدين العراقي، كما درس القراءات والفرائض والحديث والنحو والتصوف، حتى أصبح إمام الشافعية في زمانه، كما أنه تصدر الفتيا والتدريس وجنح للتأليف والتصنيف، عاش حياته متنقلاً بين مصر والقاهرة[2]، ومن أبرز مؤلفاته: (الذر النظيم في تفسير القرآن العظيم)، ولكنه لم يكمله، أيضاً (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب)، كذلك كتابه (التحقيق في مسألة التعليق)، وهو رد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وغيرها الكثير، وقد توفي سنة (756هـ/1355م)[3].

– العلامة ابن حجر العسقلاني، إمام الحفاظ في زمانه، قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني، ولد سنة (773هـ/1371م)، كان الفضل ابن حجر قطباً من أقطاب الحديث والعلوم الدينية عاش عند أحد أقاربه، درس الحديث بمكة في سن مبكرة على بعض علمائها،

(1السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص329.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص245.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج3، ص382-383

ثم عاد إلى القاهرة ودرس على يد كبار العلماء منهم شمس الدين القطان، وبرهان الدين الإبناسي وسراج الدين بن الملقب وسراج الدين البلقيني[1].

درس ابن حجر الفقه واللغة وعلوم القرآن، إلا أنه حرص على دراسة الحديث وخصه بجهوده حتى بلغت مصنفاته في الحديث والفقه والتفسير نحو مائة وخمسين مصنفاً، كان من أبرزها " فتح الباري بشرح البخاري "[2].

تولى ابن حجر عدة مناصب منها منصب القضاء سنة (827هـ/1423م)، واستمر في ولايته للقضاء إحدى وعشرين سنة، كان يعزل ويعود وأحياناً يستقيل حتى تركه نهائياً سنة (852هـ/1448م)، تقريباً قبل وفاته بعدة أشهر[3]، كما أنه درس في المدرسة المنصورية والجمالية والصالحية والمؤيدية والصلاحية، وغيرها من المدارس الشهيرة، وولى مشيخة الخانقاه البيبرسية، وولى الإفتاء بدار العدل، والخطابة بالجامع الأزهر، وكان له مؤلفات أبرزها كتابة (إنباء الغمر بأبناء العمر)، و(كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر)، توفي العسقلاني سنة (852هـ/1448م)[4].

- شهاب الدين النويري أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد، ولد سنة (660هـ/1262م)[5]، درس بالأزهر وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب، اشتغل في شبابه مدة بنسخ الكتب الجليلة، يذكر أبن تغري بردي[6] " أنه كان فقيهاً فاضلاً، مؤرخاً بارعاً، ...، كتب صحيح البخاري ثمان مرات، وكان يبيع كل نسخة

(1)ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص17-18 / السخاوي، الجواهر والدرر، ج1، ص 102-103.

(2)السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ج1، ص124-134.

(3) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص23-24 / عنان: محمد عبد الله، مؤرخو مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1999م، ص108.

(4) السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ج2، ص 618.

(5) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص381 / العسقلاني، الذرر الكامنة، ج1، ص197.

(6) المنهل الصافي، ج1، ص381.

من البخاري بخطه بألف درهم، وكان يكتب في كل يوم ثلاث كراريس"، شغل النويري عدة وظائف إدارية ومالية، منها أعمال الحسبة والمقايسات والمحاسبة والنظر في الغلات، والمبيعات وغير ذلك[1].

يذكر العسقلاني[2]" إن الملك الناصر وكله في عدة أمور منها نظر الجيش بطرابلس، وهى وظيفة عسكرية هامة "، ومما لاشك فيه أن شغله لهذه الوظائف المتباينة كان له دور في حياته الأدبية والعلمية معاً، وتوسيع معارفه العامة وثقافته، وذلك يظهر جلياً من خلال موسوعته (نهاية الأرب في فنون الأدب)، والتي تعد من أضخم المؤلفات في ذلك العصر إذ بلغ عدد مجلداتها واحداً وثلاثين مجلداً ضخماً، كل مجلد يقع في جزئيين، توفى النويري سنة (732هـ/1332م)[3].

- ابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي الشافعي، ولد بإربل سنة (608هـ/1211م) وقد نشأ بها، وكانت بداية تعليمه في حلب ثم بدمشق، وفي سنة (636هـ/1238م) ذهب إلى الإسكندرية والقاهرة، وعين نائباً لقاضي القضاة، اشتغل بالتدريس سبعة أعوام في المدرسة الفخرية بالقاهرة، ثم عاد إلى الشام وولى قضائها سنة (680هـ/1681م)، ثم عزل وتوفي بعد ذلك بعام واحد أي سنة (681هـ/1282م)[4]، من مؤلفاته ولعله الكتاب الوحيد له (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، ويعد من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي[5].

---

(1)النويري، المصدر السابق، ج1، ص3.

(2) الذرر الكامنة، ج1، ص197.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 198.

(4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص89 / عبد الله: يسرى عبد الغني، معجم المؤرخين المسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م، ص86 / فرغلي، المرجع السابق، ص128.

(5) عبد الله، المرجع السابق، ص86.

- محي الدين بن عبد الظاهر، كان مولده بالقاهرة سنة (620هـ/1223م)، وهو كاتب وشاعر جمع في ثقافته بين الأدب والعلم، ونبغ في الكتابة ونظم الشعر، كما تزعم حركة الأدب في زمانه، خدم ابن عبد الظاهر في ديوان الإنشاء نحو عشرين سنة حتى كان رئيساً له، كتب للظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون، ووضع لدواوينهم كثيراً من المصطلحات وألقاب التضخيم والأدعية، من أبرز مؤلفاته (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة)، كذلك (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور)، وقد توفي ابن عبد الظاهر سنة (692هـ/1293م)[1].

- القلقشندي، هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، ولد بقلقشنده إحدى قرى قليوب سنة (756هـ/1355م)، درس بالقاهرة والإسكندرية على يد أكابر شيوخ العصر، تخصص في الأدب والفقه الشافعي، وبرع في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، كما تولى بعض الوظائف الإدارية، إلا أن براعته في الكتابة والإنشاء ساهمت في حصوله على وظيفته بديوان الإنشاء بمصر سنة (791هـ/1388م)، وظل فيه عهد السلطان الظاهر برقوق وابنه فرج[2]، حتى صار أبرز كتابه، فقد كان لديوان الإنشاء في ذلك العصر أهميته الخاصة، ومن خلال عمله به وضع مؤلفه الكبير المعروف بـ(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) والذي يعد جامعاً للأدب والتاريخ معاً، توفي القلقشندي سنة (821هـ/1418م)[3].

- المقريزي: أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن عبد الصمد بن تميم أبو العباس الحسيني، ولد بالقاهرة سنة (766هـ/1364م)، نشأ بها ودرس بالأزهر أبرز مشايخه الشمس بن الصايغ الحنفي وزين الدين العراقي[4].

---

(1)عبد الله، المرجع السابق، ص86 / سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص 53-54.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج1، ص9-10 / ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص352.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 351 /عنان، المرجع السابق، ص76-77.

4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص415.

تخصص في دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين ومهر في الأدب وأجاد النثر والنظم، وعين مراراً في وظائف الوعظ وقراءة الحديث بالمساجد الجامعة، وولي الحسبة بالقاهرة، والخطابة بجامع عمرو بن العاص، وبمدرسة السلطان حسن، وغير ذلك من الوظائف[1]، لديه العديد من المؤلفات، أغلبها في التاريخ من أبرزها (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، الذي يعد من أبرز الكتب التي تناولت تاريخ مصر ومجتمعاتها أيام الدول الإسلامية، وغير ذلك من المؤلفات، توفى المقريزي سنة (845هـ/1441م)[2].

- السخاوي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان شمس الدين أبو الخير السخاوي الشافعي ولد سنة (831هـ/1428م)، عاش حياته بين شيوخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون، فحفظ القرآن الكريم في سنٍ مبكرة، ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والأصول والبيان والتفسير والمنطق[3].

يعدد لنا السخاوي أساتذته وما أخذه عن كل منهم، وأبرزهم ابن حجر العسقلاني الذي كان قريباً منه في سكناه، وبدأ اتصاله به وهو صغير في الثامنة من عمره، فتعلم منه ودرس الكثير من كتبه، اشتغل السخاوي بتدريس الحديث في منزله كما درّس في أعظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية، والمدرسة الصرغتمشية والظاهرية وغيرها الكثير، انتهت إليه الرياسة في معظم علوم عصره، وخاصة الحديث، حتى قيل " لم يبلغ أحد مكانته فيه "[4]، وقيل " إنه فاق شيخه ابن حجر "[5].

---

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص415 / ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص490.

(2) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص21 /السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص557.

(3)السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص23/ عنان، المرجع السابق، ص89 / عبد الله، المرجع السابق، ص 171 / سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج، ص 317-318.

(4) السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص13-14-15 /عنان، المرجع السابق، ص131.

(5)الحنبلي: شهاب الدين أبي الفلاح بن أحمد ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار القلم، بيروت، (د.ت)، ج8، ص17.

للسخاوي عدد حافل من المؤلفات، ذكرها في ترجمته لنفسه منها: (المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة)، و(الغاية في شرح الهداية) وغيرها من المؤلفات[1]، توفي السخاوي في 13 من شهر ذي القعدة من سنة (902هـ/1496م)[2].

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ولد بالقاهرة في أواخر سنة (812هـ/1408م)، في عهد الملك الظاهر برقوق، كان أبوه مملوكاً اعتقه الملك الظاهر برقوق وقربه إليه فتولى أعلى المناصب، توفي والده وهو صغير، فرباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين ابن العديم، ثم توفى الأخير سنة (815هـ/1412م)، فتولى تربيته زوجها الثاني قاضي القضاة جلال الدين البلقيني[3].

حفظ أبو المحاسن القرآن في صغر، ودرس الفقه والأصول والنحو والبيان، من أبرز معلميه ابن حجر العسقلاني، لقد برز اهتمامه بالتاريخ وله في ذلك عدة مؤلفات منها: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، (المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي)، وغيرها من المؤلفات التي تناول فيها تاريخ مصر وأبرز أعلامها، توفى ابن تغري بردي سنة (874هـ/1469م)[4].

ـ العلامة الموسوعي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال بن محمد بن خضر بن أيوب بن الشيخ همام الين الخضيري الأسيوطي الشافعي[5].

يعد الأسيوطي من أكابر المحدثين والفقهاء في تاريخ مصر، فهو من أقطاب الموسوعات في العلوم الإسلامية، ولد سنة (849هـ/1445م)، توفى والده وهو

(1) السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص14-15-16.

(2)الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص17.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج1، ص2.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص3/عنان، المرجع السابق، ص127-128/ عبد الله، المرجع السابق، ص 88.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص157.

صغير فأسندت وصايته إلى جماعة من العلماء، فكان لذلك دور في توفقه من صغره في عدة مجالات منها: حفظه للقرآن الكريم وأحكامه، والفقه والأصول، من علمائه الشيخ علم الدين البلقيني، درس على يديه الفقه ودرس الحديث واللغة العربية على يد الشيخ تقي الدين السلبي، والتفسير والأصول والعربية والمعاني والبديع عن العلامة محي الدين الكافيجي، والطب عن محمد بن إبراهيم الدواني[1].

تولى السيوطي عدة وظائف منها الإفتاء وتدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية، ولكن عند بلوغه الأربعين ترك وظائفه ولزم منزله وتفرغ للتأليف، فخلف لنا تراثاً هائلاً من كتب التفسير والحديث والفقه وعلوم اللغة والتاريخ والأدب، إذ يذكر عدد كتبه بأنها بلغت الثلاثمائة كتاب[2]، من هذه المؤلفات (الإتقان في علوم القرآن)، و(الدر المنثور في التفسير المأثور)، و(تاريخ الخلفاء)[3]، توفى سنة (911هـ/1505م) نتيجة ورم أصابه في ذراعه[4].

- الطبيب العلامة ابن النفيس أبو العلاء علاء الدين بن علي بن أبي الحزم، ولد سنة (607هـ/1210م) بقرية قرش، وهي قريبة من دمشق[5]، درس الطب على يد الطبيب مهدب الدين عبد الرحيم، وعمران الإسرائيلي، ودخل مصر حوالي سنة (633هـ/1236م)، التحق بالبيمارستان الصالحي ثم صار رئيساً له، ولمع اسمه في الطب، فانتقل إلى البيمارستان المنصوري سنة (680هـ/1281م)[6].

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، المصدر نفسه، ج1، ص155-156/ عبد الله، المرجع السابق، ص94/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج1، ص355.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص2.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص3.

(4) عنان، المرجع السابق، ص127-128/ عبد الله، المرجع السابق، ص88.

(5) الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص401/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص525.

(6) السمرائي: كمال، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، (د.م)، 1985م، ج2، ص65.

لم يكن ابن النفيس طبيباً فقط وإنما كان فيلسوفاً وعالماً بالتاريخ وفقيهاً بالشريعة الإسلامية، ولكن اسمه لمع في مجال الطب، إذ يعد هو المكتشف الأول للدورة الدموية الصغرى قبل الأوربيان ميشيل سرفت*سنة(917هـ/1511م)، والطبيب هارفي** سنة (1061هـ/1657م) بحوالي ثلاثة قرون[1]، والجدير بالذكر أن ابن النفيس كرر أرائه في الدورة الدموية الصغرى في خمسة مواضع من كتابه مما يدل على أنه فهمها فهماً لا يشوبه شك أو التباس، ومن مؤلفاته كتاب الشامل في الطب، وكتاب (المهدب في الكحل المجرب) و(المختار من الأغذية) و(شرح فصول أبقراط)، وغيرها من الكتب، توفى ابن النفيس في القاهرة سنة (687هـ/1288م)[2].

ـ الطبيب الأكفاني شمس الدين بن محمد بن برهان الدين إبراهيم يعد خاتمة أطباء العيون المشهورين في عصر المماليك البحرية اشتهر بالعلوم الطبيعية والرياضيات، فاق ابن الأكفاني زملاءه في معرفته بأصناف الجواهر والأحجار الكريمة، يعمل طبيباً ومشيراً لناظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة، آلف ابن الأكفاني كتباً شتى منها (إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد)، وكتاب (كشف الدين

---

* ميشيل سرفت: كان عالماً بغير الطب، ولكنه وضع كتاب في الطب أدخل فيه معلومات طبية من مصادر عربية، هذه المعلومات كانت أغلبها من كتاب شرح تشريح القانون، الذي ترجمه الباجو، وبقى الباحثون يعتقدون أن هذه المعلومات المتعلقة بالدورة الدموية من عمل سرفيتوس، حتى سنة (1924م)، حيث عثر طبيب مصري، وهو محي الدين التطاوي على مخطوطة شرح تشريح القانون في برلين لأبن النفيس، ووجد فيها الوصف الكامل للدورة الدموية، للمزيد ينظر: السمرائي، المرجع السابق، ج2، ص68.

** الطبيب هارفي مارس مهنته في بلاط الملك شارل الأول ،بحث في الدورة الدموية بجامعة لندن، ونشر عمله بعنوان في التشريح، عن نبض القلب وحركة الدم في الحيوان، ينظر: المرجع السابق، ج2، ص67.

(1) المرجع نفسه، ج2، ص65.

(2) زكي: عبد الرحمن، من تراث مصر العلمي في العصر المملوكي(بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، ص136.

في أحوال أمراض العين)، توفي الأكفاني أثناء انتشار الطاعون الذي اجتاح القاهرة سنة (749هـ/ 1348م)[1].

- ابن فضل الله العمري شهاب الدين أبو العباس بن فضل أحمد بن يحي ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب ﷺ لذلك لقب بالعمري، ولد سنة (700هـ/1300م) تلقى تعليمه بدمشق ثم وفد إلى القاهرة ودرس بها، مال إلى التخصص في اللغة وعلوم الفقه، تقلد عدة مناصب هامة في البلاط السلطاني أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون من هذه الوظائف رئاسته لديوان الإنشا[2].

اهتم العمري بالبحث والدرس خاصة بالجغرافيا الطبيعية والسياسية ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها، ودرس الفلك، تبوأ العمري إمامة البلاغة والبيان في عصره وترك لنا تراثاً حافلاً يبرز في أهم مؤلفاته وهي موسوعته الكبرى (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) و(نفحة الروض) وغيرها من المؤلفات، توفى العمري سنة (749هـ/1348م)[3].

- جمال الدين الإستادار بن هشام المصري أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد الإمام العلامة النحوي ولد سنة (708هـ/1308م)، كان مولعاً باللغة العربية وعلومها وأدبها من شيوخه تاج الدين التبريزي وتاج الدين الفاكهاني[4]، كان من أعلام اللغة العربية يصفه ابن خلدون[5] قائلاً "... مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحي من سيبويه"، أشتغل بالتأليف في اللغة العربية ونحوها فكان له عدد كبير من مصنفاتها منها (مغنى اللبيب عن كتب

(1) حمارنة: سامي خلف، تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الفكر العربي،القاهرة، 1967م، ص16.

(2) العمري، المصدر السابق، ج1، ص2.

(3) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص8-9.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص257/ الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص191.

(5) المقدمة، ص471.

الأعاريب)، و(التوضيح على ألفية ابن مالك)، و(رفع الخصاصة عن قراءة الخلاصة) في أربع مجلدات وغيرها من المؤلفات[1]، توفى سنة (761هـ/1359م).

ـ بهاء الدين بن عقيل هو قاضي القضاة عبد الله بن عبد الرحمن ابن عقيل العقيلي، ولد سنة (700هـ/1300م)، قدم إلى القاهرة، كان حريصاً على علوم اللغة وبارعاً في النحو، درس الفقه الشافعي وأصوله عن الزين بن الكناني وجلال الدين القزويني، كما درس القراءات وسمع الحديث عن ابن الشحنة، برع في اللغة حتى صار إماماً في علوم اللغة العربية والفقه والأصول والقراءات، تولى القضاء بمصر والجيزة اشتغل بالتدريس بالمدرسة القطبية وجامع القلعة، من ابرز مؤلفاته شرح الألفية وشرح التسهيل وغيرها من المؤلفات، توفى سنة (769هـ/1464م)[2].

---

(1) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2،ج1، ص131.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص257/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2،ج1، ص131.

المبحث الثالث: ازدهار حركة التأليف ونتاجها العلمي والأدبي:

إن حركة التأليف تعد من أبرز نتائج النشاط العلمي في العصر المملوكي، فازدهارها كان حلقة الوصل بين الماضي والحاضر وذلك من خلال المؤلفات، في العلوم المختلفة، من أدب وشعر وعلوم لغة وفقه وتاريخ وحديث فنحن لا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفات علماء مصر خلال العصر المملوكي تبلغ عدة آلاف، وحسبنا دليلاً على ما نقول أن بعضهم عرف عنه وحده ألف مئات من الكتب والرسائل كالسيوطي فقد قيل إن مؤلفاته أربت على ستمائة[1]، كذلك ابن تيمية الحراني قيل إن مؤلفاته قاربت على الخمسمائة[2]، وابن حجر العسقلاني بلغت مؤلفاته حوالي المائة وخمسين مؤلفاً[3]، وغيرهم الكثير.

مما لا شك فيه أن هذه المؤلفات كانت تملأ دور الكتب المصرية في العصر المملوكي الخاصة منها والعامة، إلا أن عدداً كبيراً منها ضاع بعد سيطرة العثمانيين على مصر عام (923هـ/1517م) وإزالتهم لحكم سلاطين المماليك فقد نهبت مدخرات البلاد وفي مقدمتها تلك المؤلفات التي نقلت إلى بلادهم، ولكن ذلك لم يمنع بقاء عدد كبير من المؤلفات أغلبها لازال مخطوطاً حتى اليوم[4].

هذه المؤلفات تنوعت صنوفها واختلفت ضروبها وكان لكل علم نصيب منها ومن خلال هذا البحث نذكر بعضاً منها:

---

(1)السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص157.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص271/ الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص8.

(3)ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص17-18/ السخاوي الشافعي: الضوء اللامع، ج2، ص37.

(4) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص91-92/ فرغلي، المرجع السابق، ص74.

1)العلوم الدينية:

المقصود بالعلوم الدينية هنا: الحديث والتفسير والفقه حيث نلاحظ أنه في ذلك العصر كان النشاط التعليمي عامة مرتبطاً بالنشاط الديني ولا يمكن فصله عنه، فالتعليم كان مرتبطاً إلى حد كبير بالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه وغير ذلك من العلوم الدينية، فقد سبق أن بينا تلك النزعة الدينية والروح الإسلامية التي سرت في أرجاء البلاد المصرية في عصر المماليك بعد الغزو المغولي لبغداد وبلاد الشام والحروب الصليبية وما أصاب العلماء والكتب من جرائهما، فكانت هذه النزعة وتلك الروح بمثابة رد فعل دعمها سلاطين المماليك بظهورهم بمظهر حماة الإسلام فقربوا العلماء ورفعوا منازلهم واهتموا بمجالسهم واستشارتهم في كثير من قضايا البلاد وغير ذلك مما سبق الإشارة إليه، لهذا كله كان طبيعياً أن تنشط روح التأليف في النواحي الدينية فنجد تنوعاً في هذه المؤلفات منها:

تفسير القرآن الكريم:

يأتي في مقدمة العلوم الدينية، حيث حظي هذا العلم في العصر المملوكي باهتمام العلماء، وقد اختلفت مناهجهم وطرائقهم فمنهم من فسر بعضاً منه، ومنهم من فسر القرآن بأكمله، ومنهم من شرح وأسهب ومنهم من أوجز، وبعضهم تحدث عن أسباب النزول وتاريخ القرآن إلى غير ذلك[1].

من تلك المؤلفات كتاب (تفسير القرآن) للعلامة ناصر الدين الجدامي الإسكندراني المعروف بابن المنير المتوفي سنة (683هـ/1284م)[2] و(كتاب أمثال القرآن) للعلامة شمس الدين ابن قيم بن الجوزية[3]، و(تفسير القرآن) لبهاء الدين هبة

---

(1) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص139/ العطاري: جلال يوسف، حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول. دار الفكر، عمان، الأردن ، ط1، 1432هـ/2011م، ص53.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ص727/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص142.

(3) العسقلاني، الذرر الكامنة، ج3، ص400.

الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطي المتوفي عام (697هـ/ 1297م)[1]، و(تفسير القرآن) لعلم الدين صالح البلقيني بن سراج الدين[2]، و(البحر المحيط) لأثير الدين ابن حيان[3]، و(التيسير في علم التفسير) لمحي الدين محمد بن سليمان الكافيجي المتوفي سنة (879هـ/1474م)[4].

الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده:

كان حفظ الأحاديث ودراستها وسرحها من العلوم الأساسية التي يتلقاها كل طالب علم، يمكن القول أن عصر المماليك يعد من العصور التي شهدت تطورا واهتماماً بعلم الحديث وشرحه ونقده، فقد اهتم به علماء ذلك العصر حتى اشترطوا على رواته الحصول على الإجازة بروايته من عالم حافظ مجاز من شيخه، وقد سبقت الإشارة لمثل هذه الإجازات، كل ذلك جعل لعلم الحديث شأناً كبيراً، وكثر حفاظه ووضعت فيه المؤلفات المتنوعة فيه ورجاله وفي مصطلحه ونقده وشرح كتبه واختصارها ومن هذه الكتب:

كتاب (الاقتراح في المصطلح) لتقي الدين بن دقيق العيد القشيري، و(كتاب الإلمام) الذي يعد من أعظم كتب الحديث[5]، و(شرح البخاري) للعلامة سراج الدين البلقيني، و(شرح الترمذي) له كذلك، وكتاب (مرقاة الصعود إلى سنن ابن داود)، و(شرح سنن ابن ماجه)، و(نظم الدرر في علم الأثر) وشرحه المسمى (قطر الدرر)، و(الجامع الكبير) وغيرهما من الكتب للسيوطي[6]، وللعسقلاني كتب في الحديث منها (فتح الباري بشرح البخاري) يقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء، كذلك كتابه (نخبة

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص163/ الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص493.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص150.

(3) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص31.

(4)الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص328/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص218.

(5) الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص102/سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص210.

(6)السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص151-157.

الفكر في مصطلح أهل الأثر) وهو في مصطلح الحديث، كذلك كتابه (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) فقد رتب فيه الأحاديث ترتيباً أبجدياً ومفهرساً[1].

علم الفقه وأصوله:

هو من العلوم التي تدرس غالباً في كل مركز من مراكز العلوم في ذلك العصر، وبعض هذه المراكز تخصصت في تدريس مذهب واحد، وبعضها في المذاهب الأربعة، وقد نتج عن ذلك أن كثر المشتغلون في هذا العلم وكثرت الكتب المؤلفة فيه والتي تنوعت في أربعة مذاهب وهي:

من أبرز كتب الفقه الشافعي كتاب العالم الكبير أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن الرفعة المتوفي سنة (710هـ/1310م) وهو كتاب (الكفاية) في عشرين مجلد، وكتاب (المطلب) في ستين مجلداً[2]، وكتاب (الفتاوى الموصلية) لمؤلفه عز الدين بن عبد السلام وله كتاب (مختصر النهاية) و(القواعد الكبرى والصغرى)[3].

وللشيخ مجد الدين أبو بكر بن إسماعيل المعروف بالزنكلوني المتوفي سنة (740هـ/ 1339م) كتاب (شرح المنهاج) للنووي[4]، و(شرح العنوان) لمؤلفه ابن دقيق العيد القشيري وهو في أصول الفقه[5]، و(كتاب الابتهاج في شرح المنهاج) لمؤلفه تقي الدين السبكي وهو شرح لمنهاج النووي وصل فيه إلى باب الطلاق[6].

في الفقه المالكي حظي كتاب (المدونة) لعبد الرحمن بن القاسم المكي بشرح علماء هذا العصر فقد شرح هذا الكتاب عيسى بن مسعود أبو الروح الواوي وعرف

---

(1) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص37.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج9، ص24/ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص82.

(3)الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص72/ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص101.

(4) الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص17/ العسقلاني، الذرر الكامنة،ج1، ص471.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص142.

(6) السبكي، طبقات الشافعية، ج10، ص139/ الأسنوي، المصدر السابق، ج2، ص75.

(بشرح مختصر ابن الحاجب)[1]، كذلك شرحه خليل ابن إسحاق الجندي وله أيضاً (مناسك الحج)[2].

في الفقه الحنبلي كتاب (الرعاية الكبرى والرعاية الصغرى) في الفقه لنجم الدين بن أبي عبد الله أحمد بن حمدان الحراني المتوفي سنة (695هـ/1295م)[3] و(نظم الحاوي) للملك المؤيد أبو الفداء إسماعيل المتوفي سنة (732هـ/1331م)[4]، وكتاب (الفرقان بين الطلاق والإيمان)، و(خلاف الأئمة في العبادات)، وغيرها من الكتب الفقهية لأبن تيمية[5].

في الفقه الحنفي كتاب (شرح الجامع الكبير) لعلاء الدين علي بن بليان الفارسي المصري المتوفي سنة (731هـ/ 1330م)[6]، و(شرح الهداية) لتاج الدين بن فخر الدين المارديني المشهور بابن التركماني توفى سنة (744هـ/1343م)[7].

كما ألفت كتب في القراءات فقد حظي (كتاب القصيدة) المعروف (بالشاطبية) لصاحبها نظم القاسم بن خلف الرعيني الشاطبي وعنوانها (حرز الأماني ودوحة التهاني في القراءات السبع للسبع المثاني)[8]، وكتاب (المقصد لتلخيص ما في المرشد) لزين الدين زكريا الأنصاري المتوفي (926هـ/1519م)[9].

---

(1) الشوكاني: محمد بن علي، البد الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ج1، ص252.

(2) العسقلاني، الذرر الكامنة، ج3، ص510/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص217.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص215.

(4) الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص428.

(5) الكتبي، المصدر السابق، ص20/ ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ص160-165.

(6) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص74-75.

(7) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص221.

(8) الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص140.

(9) الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص289/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص255.

كتب السيرة النبوية:

هي الكتب التي تحدثنا عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام وما كان له من وقائع وغزوات وتتضمن كثيراً من أقواله وأفعاله ومنها:

كتاب (المواهب اللدنية المحمدية) لمؤلفه شهاب الدين القسطلاني المتوفي سنة (923هـ/1517م) وبه بحوث عدة في نسب النبي محمدﷺ وولادته ورضاعته وغزواته وأسمائه وأولاده وأزواجه ويقع في ثمانية أجزاء[1]، وكتاب (الخبر عن البشر) لتقي الدين المقريزي وهو في ستة أجزاء في نسب النبي عليه والسلام ونسب القبائل المختلفة[2]، ايضاً كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) لتقي الدين بن تيمية الحراني[3]، وكتاب (المنهج السوي والمنهج الروي في الطب النبوي) وكتاب (الخصائص النبوية) للسيوطي[4].

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص102/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص32.

(2) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص23/ عنان، المرجع السابق، ص89.

(3) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص74-82.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص240.

2)اللغة العربية واللسانيات:

يقصد بعلوم اللغة النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض فقد وضعت أهم المؤلفات في هذا العلم إذ اهتم العلماء في العصر المملوكي اهتماماً كبيراً بعلوم اللغة العربية لأنها الأداة لفهم الدين وتوضيح مسائله[1]، غير أن اهتمام أهل العصر بإحياء علوم الدين جعل اللغة وفنونها في المرتبة الثانية بالنسبة إليها ومن أبرز علوم اللغة هو علم النحو حيث كان من علوم الثقافة العامة التي يحتاجها العلماء في كل التخصصات، بالإضافة إلى أنه ضروري لدرس القرآن الكريم وفهمه[2].

ما يجذر الإشارة إليه أن النحاة في هذا العصر لم يكونوا مبدعين أو أصحاب شيء من التجديد، ولكنهم بدلوا قصارى جهدهم في توضيح مسائل النحو والصرف وتوجيه قواعده[3]، ولعل أبرز المؤلفات كانت لجمال الدين هشام المصري المتوفي سنة (761هـ/1359م) ومنها: (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، و(شذور الذهب)، و(الروضة الأدبية)[4].

كما خلف لنا العالم الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن المتوفي سنة (769هـ/1367م) مجموعة من المؤلفات، أهمها كتاب شرحه على ألفية ابن مالك المعروف بـ (شرح ابن عقيل)، وهو شرح متداول إلى يومنا هذا[5]، أيضاً كتاب البهجة المضيئة في شرح الألفية للسيوطي، وله كتب أخرى منها (الأشباه والنظائر) في النحو، و(الفريد) في النحو والصرف والخط، و(الفتح القريب) وهو شرح على مغني ابن هشام، وكتاب (الاقتراح في أصول النحو)[6].

---

(1) فرغلي، المرجع السابق، ص78.

(2) العطاري، المرجع السابق، ص77.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2 ص153.

(4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص131/ العسقلاني. الذرر الكامنة، ج2، ص308.

(5) الخولي، المرجع السابق، ص252.

(6) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص338-339.

علوم البلاغة:

اهتم علماء العصر المملوكي بعلوم البلاغة، وعلى رأسهم جلال الدين القزويني، وكتابه (تلخيص المفتاح) وكتاب (التوضيح)[1]، الذي يعد شرحاً للكتاب الأول، وقد اتخذ الكتابان محوراً للتأليف في علوم البلاغة في العصر المملوكي، وأساساً للحديث فيهما.

من أبرز المؤلفات في هذا المجال كتاب (العروض) لابن مالك النحوي الأندلسي، وله أيضاً (تحفة المودود في المقصور والممدود)، كذلك (الألفاظ المختلفة) وهو في المترادفات، و(الاعتقاد في الفرق بين الصاد والضاد)[2].

وكتاب (لسان العرب) للعلامة الكبير محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن منظور، المتوفي سنة (711هـ/1311م)، ويعد هذا الكتاب من أضخم المعاجم اللغوية وأحفلها مادةً، جمع فيها من أمهات كتب اللغة المعروفة[3].

الأدب:

هناك كتاب (خزانة الأدب وغاية الأرب) لتقي الدين بن حجه الحموي المتوفي سنة (837هـ/1433م)، جاء في الحديث عن البديع والبلاغة[4]، وكتاب (مختصر أساس البلاغة) للزمخشري، كتبه العسقلاني[5].

كذلك كتب القصص التي تعد من أهم الفنون الأدبية في ذلك العصر، ففيها

---

(1) الكتبي، المصدر السابق، ج3، 242/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص192 / الشوكاني، المصدر السابق، ج2، ص183.

(2)العيني، المصدر السابق، ج2، ص365 / المقريزي، السلوك، ج1، ص 613.

(3) العسقلاني، الذرر الكامنة، ج2، ص109 / ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص242.

(4) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2 ، ص158.

(5) السخاوي، الجواهر الذرر، ص659.

متعة وتعليم ودراسة لأحوال الحياة ومتنفساً عن الناس ومترجماً لأحوالهم[1]، فلم يخل ميدان الأدب في العصر المملوكي من أدب القصة ولعل من أبرز قصص ذلك العصر كتاب (طيف الخيال) لمؤلفه ابن دانيال الموصلي المتوفي سنة (710هـ/1310م)[2]، و(كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لمؤلفه شهاب الدين ابن عرب شاه المتوفي سنة(854هـ/1450م) يحتوي هذا الكتاب على عشرة قصص رواها الكاتب على لسان الحيوان وساق فيها العديد من النصائح والأمثال[3].

---

(1) سليم، الأدب العربي وتاريخه، ص33.

(2) المرجع نفسه، ص35.

(3) الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص280/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص168.

العلوم الإنسانية والعقلية:

التاريخ:-

يعد علم التاريخ من أبرز علوم عصر المماليك إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضخماً، فقد اتجه العلماء أولاً إلى المؤلفات التاريخية السابقة فعملوا على اختصارها من ذلك كتاب (طبقات الحفاظ) ملخص في طبقات المذهب[1]، كذلك ابن منظور واختصاره (لتاريخ دمشق لابن عساكر) و(تاريخ بغداد) للخطيب الجوهري[2]، كما اختصر الذهبي هذين الكتابين بالإضافة لاختصاره (لتاريخ نيسابور)[3].

لقد تنوعت مناهجهم واتجاهاتهم في التأليف التاريخي فمنهم من ألف في **التاريخ العام** مثل الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) الذي يزيد عن عشرين مجلداً[4].

وكتاب (التاريخ العام) لمؤلفه أبو شكر بطرس بن الراهب القبطي المتوفي سنة (681هـ/1282م) بدأ فيه بذكر أدم عليه السلام إلى قضاة بني إسرائيل فملوك الروم حتى مجيء المسيح ثم سير البطاركة والخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى أيامه[5]، وكتاب (المجموع المبارك) لجرجيس المكين ابن العميد المتوفي سنة(672هـ/1273م) وهو جزءان في التاريخ العام منذ بدء الخليقة إلى ظهور الإسلام في جزء، ومن ظهور الإسلام حتى سنة(658هـ/1259م) في جزئين[6]، أيضاً كتاب (المختصر في تاريخ البشر) لمؤلفه الملك المؤيد أبو الفداء المتوفي سنة

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص216/ الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص228.

(2) الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص54/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص154.

(3) الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص315.

(4) الشوكاني، المصدر السابق، ج2، ص110.

(5) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص132/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص200.

(6) بروكلمان، المرجع السابق، ج6، ص144-145/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص199.

(732هـ/1331م) وهو من بدء الجاهلية ثم الإسلام حتى سنة(729هـ/1328م) في أربعة أجزاء[1]، وكتاب (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) ألفه ركن الدين بيبرس المنصوري الداودار المتوفي سنة (725هـ/1324م) وهو تاريخ عام للدول الإسلامية منذ بدئها حتى عام (724هـ/1323م) في أحد عشر مجلداً مرتباً وفق السنيين[2].

كتب التراجم والأعلام: هذا النوع من الكتب التاريخية يعد الأكثر عدداً وأوفرها عناية وضبطاً، فقد اعتنى مؤرخو هذا العصر بترجمة أعلام العصر نفسه المعاصرين لهم وغير المعاصرين، التي كتبوا فيها عن رجالات هذا العصر، فنجدهم يتناولون نواحي أخرى كالحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية وما إلى ذلك، ومن هذه المؤلفات :

كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان المتوفي سنة (681هـ/1282م) وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة، بينها عشرات التراجم لأهل القرن السابع[3]، كما وضع ابن شاكر الكتبي المتوفي سنة(764هـ/1362م) ملحق لهذا الكتاب سماه (فوات الوفيات) ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن[4].

كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني الذي ترجم فيه لمشاهير القرن الثامن[5]، كما وضع السخاوي كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ترجم فيه لمشاهير هذا العصر[6]، و(الطالع السعيد جامع

---

(1) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص20/ الشوكاني، ج1، ص151.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص266/ الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص66/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص114.

(3) عبد الله، المرجع السابق، ص86/ فرغلي، المرجع السابق، ص128.

(4) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص178.

(5) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص36-40/ السيوطي، حسن المحاضر، ج1، ص266.

(6) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج1، ص2/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص184.

لأسماء نجباء الصعيد) لمؤلفه كمال الدين جعفر الأدفوي، المتوفي سنة(748هـ/1347م) وهو معجم به أكثر من خمسمائة وتسعون ترجمة لأعلام الصعيد من معاصري المؤلف ومن سبقهم [1].

كتب السير: وهي الكتب التي يستقل كل منها بالترجمة لأحد الأعلام سواء سلطاناً أم غير ذلك من الشخصيات التي عادة تكون معروفة ويكون الحديث فيها دائراً حول هذا الشخص[2].

لقد كثرت المؤلفات في هذا المجال؛ ولعل سبب ذلك هو لتعدد الدول وكثرة السلاطين فيها وانتماء كل سلطان إلى أسرة، وحب السلاطين ورغبتهم في تخليد ذكراهم وتدوين سيرة حياتهم، ومن هذه المؤلفات (عجائب المقدور في أخبار تيمور) لمؤلفه شهاب الدين الرومي المعروف بابن عرب شاه وهو تاريخ لشخصية تيمورلنك، وكتابه (التأليف الظاهر في شيم الملك الظاهر) وهو جزءان في سيرة السلطان جقمق[3]، وكتاب (ترجمة أحمد السيد البدوي) لمؤلفه ابن حجر العسقلاني[4]، وكتاب (الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر) لمؤلفه شمس الدين السخاوي[5].

كتب الخطط والآثار: تتحدث هذه الكتب عن البلدان والمدن والمواضع فوصفت بنائها وتاريخها، فهي تعد جغرافية تاريخية ولعل من أبرز هذه المؤلفات كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لمؤلفه تقي الدين المقريزي وهو في أربعة أجزاء تحدث فيه عن الخطط المصرية فقد وصف فيه مدينة القاهرة وخططها القديمة وتطوراتها الجغرافية وشوارعها بل وأرضها وأسواقها وأحيائها ومساجدها

---

(1) الأدفوي، المصدر السابق، ص10.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص117.

(3) الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص80/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص168.

(4) السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ص659.

(5) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص184.

ومدارسها ورياضها وكل ما احتوت عليه، وكان كتاباً وافياً لهذا البلد[1]، كذلك كتاب (الانتصار بواسطة عقد الأمصار) لمؤلفه ابن دقماق المصري المتوفي سنة (809هـ/1406م) وهو كتاب عظيم الأهمية يقع في عشرة مجلدات، وصف فيه المؤلف الفسطاط وأسواقها وجوامعها ومدارسها وشوارعها، كذلك الإسكندرية وبعض القرى في مصر[2].

كتب عن تاريخ مصر والقاهرة: منها كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك)، لمؤلفه المقريزي وهو في تاريخ مصر من سنة (577هـ/1181م) حتى سنة(844هـ/1440م) مرتباً حسب السنيين[3]، وكتاب (التبر المسبوك في ذيل السلوك) للسخاوي وهو يوميات في تاريخ مصر دون فيه حوادث عصره اليومية واعتبره تكملة لسلوك المقريزي[4]، وكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لابن تغري بردي وهو من المجلدات التي اختصت بتاريخ مصر والقاهرة وأعلامهما وفيضان النيل من الفتح الإسلامي حتى سنة(857هـ/1453م) والأعلام في من ولي مصر في الإسلام لابن حجر العسقلاني[5].

كذلك كتاب (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) لمؤلفه جلال الدين السيوطي[6]، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لمؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري المتوفي نحو(930هـ/1523م) وهو أربعة أجزاء في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى سنة (928هـ/1521م)[7].

---

(1) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج1، ص23/ عنان، المرجع السابق، ص90-91.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص131/ زيدان، المرجع السابق، ج3، ص189.

(3) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص23/ عنان، المرجع السابق،ص89.

(4) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج8، ص14-15.

(5) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج1، ص3/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص109.

(6) السخاوي الشافعي، الجواهر والدرر، ص659.

(7) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1،ص3.

الجغرافيا :

عنى بعض علماء هذا العصر بالقيام بالرحلات في نواحي الأرض المختلفة وتدوين ما شاهدوه، وعنى البعض الآخر بوضع تقاويم تصف الأرض وأقطارها ومنهم من تكلم عن طبقاتها ولعل من أبرز المؤلفات في هذا المجال :

(تقويم البلدان) لمؤلفه أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة هو كتاب في الجغرافية العامة وكلام عن الأطوال والعروض ووصف للأرض والأقاليم وهكذا[1]، كما كتب شرف الدين بن الجيعان سنة (777هـ/1375م) كتاب التحفة الفنية في أسماء البلاد المصرية ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجيه عن أرض مصر[2].

كذلك كتاب (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) لمؤلفه سراج الدين بن الوردي المتوفي سنة (850هـ/1446م) وبه رسم للأرض ووصف لأقاليمها وما فيها من العجائب ووصف لمدنها[3].

لعل أبرز الكتب في هذا المجال كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لمؤلفه شهاب الدين فضل الله العمري فيه وصف للأرض وسكانها وحيوانها وأقطارها ومسالكها وما فيها من انهار وجبال وجزر وبحار وبرك وديار، فهو يعد موسوعة جغرافية هامة في ذلك العصر[4]، وكتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لمؤلفه أبو العباس النويري الذي خصص فيه مجلداً عن الأرض والسماء والكواكب والظواهر الطبيعية والليالي والأيام والشهور والجبال البحار وغير ذلك[5].

---

(1) الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص20.

(2) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص197.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص124.

(4) العمري، المصدر السابق، ج1، ص2/ الكتبي، المصدر السابق،ج1، ص7-8.

(5) النويري، المصدر السابق، ج1، ص3/ عنان، المرجع السابق، ص64.

الطب:

هناك العديد من المؤلفات في الطب الذي كانت صناعته متقدمة في العصر المملوكي ومن أبرز المؤلفات كتاب (المختار من الأغذية) لمؤلفه علاء الدين ابن النفيس المتوفي سنة(696هـ/1296م) تكلم فيه مؤلفه عن الأغذية في الأمراض المختلفة، وله أيضا كتاب (المهذب في الكحل المجرب) وفيه بحث عن أمراض العين وعلاج الرمد[1]، وكتابه (موجز القانون أو الموجز في الطب) وهو اختصار ابن سينا في الطب إلا بعض أجزائه المتعلقة بالتشريح ووظائف الأعضاء فهي من تأليف ابن النفيس[2]، ولعل من أبرز كتبه (شرح تشريح القانون) ففيه وصف في اكتشاف الدورة الدموية واكتشاف أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية الدموية وليس من الدم[3].

كذلك كتاب (كشف الدين في أحوال أمراض العين) لإبن الأكفاني رتبه في ثلاثة مقالات الأولى في أحوال العين وخواصها وحفظ صحتها وأسقامها، والثانية في ذكر أمراض العين وأعصابها وعضلاتها والتشنج في العين، والثالثة في الأدوية المفردة مرتبة على حسب الحروف الأعجمية والعقاقير المركبة[4].

كتاب (الكافي الكبير) لسعيد بن منصور بن سعد الذي اشتهر بابن كمونه الإسرائيلي تكلم فيه عن الرمد وله كتاب أخر في الكيمياء عنوانه (تفتيح الأبحاث عن الملل الثلاث)[5]، وكتاب (العمدة الكحلية في الأمراض البصرية) لمؤلفه صدقة بن

---

(1) السامرائي، المرجع السابق، ج2، ص70.

(2) العيني، المصدر السابق، ج2، ص 374/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص260.

(3) السامرائي، المرجع السابق، ج2، ص71.

(4) حمارنة، المرجع السابق، ص16-17/ الشوكاني، المصدر السابق، ج2، ص79/ زكي، المرجع السابق، ص136-137.

(5) بروكلمان، المرجع السابق، ج1، ص437/ زكي، المرجع السابق، ص136.

إبراهيم المصري الشاذلي، قسم كتابه إلى خمسة أقسام الأول عن تشريح ووظائف العين، وثانيها أشياء عامة طبية، وثالثها الأمراض المرئية في العين وتشخيصها ومعالجتها، و رابعها الأمراض غير المرئية، وخامسها وسائل طبية متعلقة بالطب والرمد ومما لاشك فيه أن مثل هذا الكتاب قد امتاز بشموله وأصالته[1]، كذلك كتاب (العمدة في صناعة الجراحة) للطبيب أمين الدولة يعقوب بن إسحق بن القف توفى حوالي(685هـ/1286م)قسم كتابه إلى جزئين أحدهما نظري والأخر عملي يحتوي كل منهما على عشرة فصول[2].

أيضا كتاب في الأدوية (المختار في ألف عقار) للرشيد بن أبي حليقة[3]، وكتاب (كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة) لمحمد القوصي الطبيب قدمه لقانصوه الغوري وبه تفاصيل مفيدة عن معالجة السموم[4].

---

(1) زكي، المرجع السابق، ص136-137.

(2) المرجع نفسه، ص136.

(3)الكتبي، المصدر السابق، ج4، ص248/ ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص590.

(4) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص250/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2. ص164.

4) مؤلفات في علوم مختلفة:

كتب في علم الحيوان منها: كتاب (حياة الحيوان الكبرى) لمؤلفه كمال الدين بن عيسى الدميري المتوفي سنة (808هـ/1405م)[1]، وكتاب (ديوان الحيوان) للسيوطي وهو مختصر لحياة الحيوان للدميري[2].

كتب في الحروب وفنونها منها (كشف الكروب في معرفة الحروب) لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري وهو في فن الحرب ونظام الجند[3]، وكتاب (الفروسية والمناصب الحربية) لنجم الدين حسن الرماح المصري والذي ذكر فيه قاعدة اكتشاف البارود[4]، وكتاب (تحفة المجاهدين في العمل بالميادين) لمؤلفه الأمير لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي المتوفي سنة (738هـ/1337م) وهو في الحركات العسكرية[5].

كتب في السياسة منها كتاب (أثار الأول في تدبير الدول) لحسن بن عبد الله العباسي رتبه في أربعة أقسام في الضوابط والأصول وقواعد المملكة وفي أحوال الملك والأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته، وفي الحروب وشروطها وما يتعلق بها، ويحوي هذا الكتاب كثيراً من الفوائد السياسية والاجتماعية والإدارية[6].

أيضا كتاب (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك)، وهو في السياسة لمؤلفه غرس الدين بن خليل شاهين الظاهري المتوفي سنة (840هـ/1436م)[7]،

---

(1) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص254/ سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2. ص165.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص3.

(3) زكي، المرجع السابق، ص139.

(4) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص254.

(5) زكي، المرجع السابق، ص140.

(6) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص320/عاشور، مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، ص278.

(7) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص260

وكتاب (بدل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية) في السياسة والإدارة وهو بحث في واجبات السلطان والولاة والرعية لمؤلفه نجم الدين أحمد بن الرفعة المصري المحتسب[1].

الفلك كتاب (زيج ابن الشاطر) لأبن الشاطر المتوفي سنة (777هـ/1375م) وهو في النجوم[2]، وكتاب (خلاصة الأقوال في معرفة الوقت ورؤية الهلال) لشهاب الدين بن طيبوغا القاهري المتوفي سنة (850هـ/1283م)[3].

المنطق كتاب (المطالع في المنطق) لشمس الدين أبو الثناء الأصفهاني[4]، وكتاب (مطالع الأنوار) لسراج الدين ابو الثناء الأرموي المتوفي سنة (682هـ/ 1283م) وهو في الحكمة والمنطق[5].

وغير ذلك من المؤلفات التي تنوعت مجلاتها وكانت نتاجاً لحركة علمية عظيمة شهدها ذلك العصر.

---

(1) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص165.

(2) زيدان، المرجع السابق، ج3، ص251.

(3) العطاري، المرجع السابق، ص101.

(4) المرجع نفسه، ص67/ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص327.

(5) العطاري، المرجع السابق، ص98 / زيدان، المرجع السابق، ج3، ص250.

كتب الموسوعات :

لقد برزت ظاهرة مميزة في ذلك العصر وهي ظاهرت الموسوعات حيث وضعت كتب جامعة واسعة النطاق تقوم على جمع علوم وفنون مختلفة في مؤلف واحد ضخم ، فترى فيها أحياناً التقويم ومرة التاريخ أو الأدب شعراً أو نثراً أو مزايا نوع من النبات أو الحيوان أو سياسة أو طب وهكذا، وتدل هذه الموسوعات على الجهد المبذول من قبل مؤلفيها ومقدار اطلاعهم وصبرهم على تدوين هذه المؤلفات الضخمة من أبرز هذه الموسوعات :

(لسان العرب) هو المعجم اللغوي المشهور لمؤلفه ابن منظور إذ يعد من أضخم المعاجم اللغوية وأحفلها مادة، وفيه غير اللغة ومفرداتها آداب وتاريخ وتفسر وحديث وهو في أكثر من عشرين جزءاً[1].

(نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري المتوفي سنة(732هـ/1332م) وعلى الرغم من أن اسم الموسوعة يعطيها طابعاً أدبياً إلا أن النويري تناول فيها الأدب والتاريخ والجغرافيا والسياسة والبيان والبديع والأمثال، وقد تناول كل ذلك بطريقة أدبية، وتشمل موسوعته واحد وثلاثين مجلداً ضخماً كل مجلد يقع في جزئين، وقد قسَم موسوعته إلى مجموعتين الأولى تشمل أربعة فنون الأول قسم جغرافي، والثاني عنوانه الإنسان، والثالث عنوانه الحيوان، والرابع عن النبات، وقد شملت هذه الفنون الأربعة ثلاثة عشر مجلداً، المجموعة الثانية ضمت نوعاً واحدً وهو التاريخ الذي يشمل واحداً وعشرين مجلداً بأكملها ويمكن القول أن النويري كان أول من وضع موسوعة بهذا الحجم[2].

---

(1) سليم، عصر سلاطين المماليك، م2، ج2، ص171/ زيدان، ج3، ص154.

(2) النويري، المصدر السابق، ج1، ص400/ عنان، المرجع السابق، ص64-65.

(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لمؤلفه أبو المحاسن بن تغري بردي المتوفي سنة(874هـ/1469م) الذي يعد موسوعة كبيرة في تاريخ مصر الإسلامية وتقلبات نيلها منذ الفتح الإسلامي سنة(20هـ/640م) إلى سنة(872هـ/1468م)، وهو يعد أطول تاريخ لمصر الإسلامية، فهي موسوعة حافلة بحوادث التاريخ الإسلامي بوجه عام وتاريخ مصر بوجه خاص، رتبت على السنيين والأشهر والأيام فكتب فيه عن مصر في عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية وبني العباس والدولة الفاطمية وهكذا حتى عصر المؤلف، كما كتب فيه عن النيل وتقلباته، بالتالي تعد هذه الموسوعة من الموسوعات القيمة والجليلة[1].

(الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) لشمس الدين السخاوي، تقع هذه الموسوعة في اثنا عشر جزءاً، وهو ترجمة لأعلام القرن التاسع الهجري وهو القرن الذي عاش فيه المؤلف، ويحتوي هذا الكتاب على حوالي خمسة عشر ألف ترجمة، ومن هنا تتبين ضخامته، وقد اتبع فيه الترتيب الهجائي للأسماء دون الألقاب والكنى والنسب، ولم تقتصر ترجمته لأعلام مصر فقط وإنما ترجم لأعلام البلاد الشامية والحجازية واليمن والعراق والهند والمغرب والأندلس وغيرها[2].

(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) لمؤلفه شهاب الدين القلقشندي المتوفي سنة(821هـ/1418م) يقع هذا الكتاب في نحو عشرين مجلداً وفيه مواضع تاريخية وتراجم ونصوص أدبية ثمينة ودراسة للعادات والتقاليد الديوانية، إضافة إلى كلامه عن صناعة الإنشا وما يتصل بها من أدب وكتابة وقوانين[3].

(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لمؤلفه ابن فضل الله العمري المتوفي

---

(1) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج1، ص2/ عنان، المرجع السابق، ص121-122.

(2) السخاوي الشافعي، الضوء اللامع، ج2، ص104- ج8، ص14-15.

(3) ابن تغري، المنهل الصافي، ج1، ص351/ عنان، المرجع السابق، ص76-77-79-80.

سنة(748هـ/1347م)، يقع في أكثر من عشرين مجلداً إذ يقول فيه العمري "..إنه أثر الحياة وإنه قطع فيه عمر الأيام والليالي"[1]، وقد أخذت موسوعته صبغة الجغرافيا التاريخية، وقد قسم موسوعته إلى قسمين كبيرين الأول في الأرض والثاني في سكان الأرض ويعد الكتاب موسوعة جغرافية ذات قيمة عالية[2].

(1) العمري، المصدر السابق، ج1، ص6.

(2) عنان، المرجع السابق، ص74-75/ الكتبي، ج1، ص7-8.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة أمكن الوصول إلى جملة من النقاط الهامة، تعد هي خلاصة البحث وأهم نتائجه، والتي يمكن إجمالها في التالي:

1. إلى جانب البعد السياسي لإحياء الخلافة العباسية في مصر، وما حققته هذه الخطوة التي أقدم عليها المماليك من نتائج سياسية، كان لها الدور الفاعل والمهم في ازدهار الحركة العلمية والثقافية والفكرية في مصر، من خلال توافد العديد من العلماء الذين فروا من المشرق الإسلامي بعد زحف المغول عليها، نظراً لما شهدته البلاد المصرية آنذاك من استقرار سياسي وانتعاش اقتصادي مقارنة بما شهدته البلاد الإسلامية من تدهور في كل جوانبها.

2. كانت النهضة العلمية والثقافية والتطور الفكري سمة من سمات العصر المملوكي، وهي نتاج لمدى اهتمام السلطة الحاكمة المتمثلة في السلاطين، بحركة التعليم والرعاية والتشجيع لطبقة العلماء، والذي بدورهم منحوا هذه الطبقة مكانة مميزة، سواء في حياتهم الخاصة أم للوظائف التي شغلوها أيضاً لما كانوا يمثلونه من دور كبير في كافة شئون الحياة السياسة منها أو الاقتصادية أو الاجتماعية. فمشاركة السلاطين في مجالس العلماء والتقرب إليهم والعمل على كسبهم من خلال تهيئة المناخ المناسب وتوفير حاجياتهم من سعة عيش إلى جانب منحهم النفوذ والتقدير والعمل على تقليدهم وظائف مختلفة في الدولة، كل هذا أسهم بشكل كبير في إنشاء نهضة علمية كبيرة في مصر.

3. لقد شهدت مصر في عصر المماليك نشاطاً دينياً تعليمياً وثقافياً واسعاً استلزم إقامة العدد الكبير من المساجد والجوامع التي لم يكن اغلبها أماكن عبادة فحسب بل كانت مراكز تعليمية ومجالس لاجتماع مختلف طبقات المجتمع من القضاء والعلماء

والفقهاء، فكان لها دور كبير في بناء صرح الحياة الدينية والتعليمية في مصر وتفرعت خدماتها وتنوعت وظائفها فضمت أعداداً كبيرة من الطلبة والفقهاء.

4. إلى جانب المساجد والجوامع وجدت مراكز دينية أخرى كالخوانق والزوايا والربط التي كان يأوي إليها الغرباء من الصوفية، وبعضهم كان من أهل العلم والفقه بالدين وما يتصل به، بالتالي كان وجودهم فيها مؤذنا بنشر العلم خاصة أن بعضها رتبت فيه دروس المساجد والمدارس، كما أن هذه المراكز والموجودين بها حظيت باهتمام السلاطين وإغداقهم عليها والمساهمة في استمرارها وانعكاس ذلك على الحياة العلمية.

5. إن عصر المماليك كان بحق العصر الذهبي في انتشار التعليم ذلك نتيجة للإقبال الكبير الذي اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء ولمن له القدرة من العلماء والتجار على حد سواء في انتشار المدارس حتى كثرت وتعددت بحيث لا يمكن حصرها، كذلك أمعن منشئوها في الصرف على بنائها وتوفير الأساتذة الأكفاء وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية، كذلك الاهتمام بالطلبة والمدرسين وتوفير المساكن لهم بما يساعدهم للاشتغال بالتعليم والاستقرار.

6. كان هناك أيضا الطباق المؤسسة الخاصة لتعليم وتربية المماليك خاصةً، حيث كان له دور كبير في تعليمهم الدين الإسلامي والعادات الإسلامية واللغة العربية وأصول القتال وفنونه إضافة للعلوم الأخرى وهذا فيه دلالة على تنوع المراكز في ذلك الوقت.

7. وجدت مكاتب السبيل التي كانت ملحقة بالمدارس حيث جرت العادة عند أصحاب المدارس على تأسيس مكاتب ملحقة بها لتعليم أطفال الأيتام والفقراء، فساهم ذلك في النهوض بالتعليم في مراحله الأولى وكان لها أيضاً دور كبير في

نشر التعليم والثقافة الإسلامية الصحيحة وتحفيظ القرآن الكريم والترغيب فيه وتمكين عامة الناس من التعليم.

8. المراكز الطبية كان لها نصيب من هذه النهضة، فقد اهتم المماليك بإنشائها لتوفير الرعاية الصحية للسكان، فهي لم تكن مراكز للعناية الطبية فقط بل كان البيمارستان مدرسة أو جامعة للطب فقد أعدت للطلاب إيوانات خاصة للتعليم ووضع لهم الأطباء الأكفاء لتعليمهم، ولعل من أبرزها البيمارستان المنصوري الذي يمكن القول أنه كان يماثل في تخطيطه وتجهيزاته المستشفيات في العصر الحديث مع مراعاة تطور الوسائل بين العصور.

9. اهتمام المماليك بالمكتبات التي تنوعت وتعددت في العصر المملوكي من مكتبات عامة وخاصة، فقد حظيت المكتبات باهتمام كبير وهذا يظهر جلياً من خلال تجهيزها بكل ما تحتاجه من موظفين يباشرون أعمالها إضافة لأماكن القراءة والبحث والاطلاع كذلك الأثاث والأدوات وغيرها من التجهيزات التي ساهمت في تسهيل استخدام هذه المكتبات من قبل العاملين بها وروادها لكي تحقق أهدافها على الوجه الأكمل، فأصبحت هذه المكتبات مكاناً لتثقيف مختلف طبقات المجتمع وتعليمه ومكاناً للدرس والبحث والتأليف، وتوفير الكتب للطلاب والعلماء، بالتالي أفادت الباحثين في شتى فروع المعرفة البشرية، ونجاح ذلك العصر بأهميتها كأداة تعليمية تربوية.

10. كان للأوقاف دور حقيقي في دعم مراكز الحياة العلمية والثقافية واستمرارها وسيرها في الطريق الصحيح، فهي المورد الأساسي للمراكز الدينية والتعليمية فقد تميزت دولة المماليك بكثرة أوقافها ذلك حرصاً منهم على استمرارها، كما لم يكن أثرها مقتصراً على توفير الأموال لهذه المراكز وإنما تعدى ذلك فقد كانت بمثابة وثيقة تنظم التعليم داخل المراكز التعليمية والدينية من خلال وجود موظفين مسئولين على تنظيمها ومباشرتها.

11. من ابرز مظاهر الحياة الثقافية في العصر المملوكي هو التصوف الذي كان له الأثر الواضح على المجتمع بمختلف فئاته العامة والخاصة من خلال تبجيلهم وتعظيمهم للمتصوفة واهتمام السلاطين بهم للحد الذي كان يتم تنصيب شيخ طائفة تصدر توليته من السلطان الذي يخلع عليه ، كما خصص لهم السلاطين بيوتاً وهي ما يعرف بالخوانق والربط والزوايا، فانتشر التصوف حتى أصبح إحدى المظاهر الثقافية في المجتمع المصري ويظهر ذلك من خلال إقامة الموالد السنوية والاحتفالات الموسمية وإحيائهم لحفلات الذكر وغيرها من المظاهر الأخرى، كما فرض التصوف كعلم بين العلوم ودرس في المراكز التي خصصت له، كما برز فيه عدد كبير من العلماء ووضعت المصنفات الكثيرة في هذا المجال، فكان للتصوف تأثيرا بالغاً على مختلف مناحي الحياة فقد أصبح أسلوبا ومنهجاً يدين به الكثير من الناس على مستوى الأفراد والجماعات.

12. أما فيما يخص النظام التعليمي فإننا نلاحظ أنه لم تكن هناك خطة منهجية أو برامج مقررة تحدد للطلاب سبيل الدراسة أو تلزمهم استيعابه كما هو الحال في النظم الحديثة، بل ثمة كتب في مختلف العلوم يدرّسها العلماء لطلابهم ، وكذلك الحال بالنسبة للطلاب، ومما يميز ذلك العصر وجود الإجازات العلمية وتطورها، كما شهدت مصر تطوراً في حركة التأليف التي كانت من أبرز مظاهر النشاط العلمي في العصر المملوكي فقد شهدت ازدهاراً وتطوراً منقطع النظير من خلال تنوع المؤلفات وتعددها فكان لكل علم منها نصيب وهذه المؤلفات ملئت دور الكتب، فهي تعد حلقة الوصل بين الماضي والحاضر، ولعل ابرز ما تميزت به حركة التأليف هو ظاهرة الموسوعات حيث وضعت كتب جامعة واسعة النطاق تقوم على أساس جمع علوم وفنون مختلفة في مؤلف واحد ضخم.



قائمة المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر.

ثالثاً: المراجع .

رابعاً: المراجع المترجمة.

خامساً: المعاجم.

سادساً: الدوريات.

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصـــادر:

- ابن أبي اصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، (ت668هـ/1269م)،

1. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبو الكرم، (ت 630هـ/ 1232م)،

2. الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

- الأدفوي: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب(ت748هـ/1347م)،

3. الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م.

- الأسنوي: عبد الرحيم(ت772هـ/1370م)،

4. طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.

- ابن إياس : أبو البركات محمد ابن أحمد(ت930هـ/1523م)،

5. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، مكتبة الشعب، القاهرة، 1960م.

- ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي (ت779هـ/1377م)،

6. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف(برحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت، 1963م.

- ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف(ت874هـ/1470م)،

7. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/ 1992م.

8. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م.

- ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت614هـ/1217م)،

9. السلوك لمعرفة دول الملوك " رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت، 1988 م.

- ابن الجزري: شمس الدين ابن أبي عبد الله محمد(ت833هـ/1429م)،

10. تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف " بتاريخ ابن الجزري"، تحقيق: عمر عبد السلام، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1998م.

- ابن جماعة: بدر الدين أبو عبد الله(ت733هـ/1332م)،

11. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق: عبد السلام عمر علي، مكتبة الضياء لتحقيق التراث، القاهرة، ط1، 2005م.

- ابن الجوزية: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الزرعي الدمشقي (ت751هـ/1350م)،

12. زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1998م.

- ابن الحاج : أبو عبد الله محمد العبدري المالكي الفاسي(ت737هـ/1336م)،

13. المدخل، مكتبة دار التراث،القاهرة، (د.ت).

- الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت(ت626هـ/1228م)،

14. معجم الأدباء، تحقيق : إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.

- الحنبلي: شهاب الدين أبو الفلاح بن أحمد ابن العماد(ت1089هـ/1678م)،

15. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار القلم، بيروت، (د.ت).

- ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن (ت808هـ/1405م)،

16. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.

17. مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1993م.

18. تاريخ ابن خلدون المسمي (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الأكبر)، دار الفكر، بيروت، 2000م.

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد(ت681هـ/1282م)،

19. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م.

- الداوودي: الحافظ شمس الدين محمد بن علي (ت945هـ/1542م)،

20. طبقات المفسرين، دار الكتب العربية، بيروت، (د.ت).

- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(ت 809هـ/1407م)،

21. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).

- الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت713هـ/1315م)،

22. كنز الدرر وجامع الغرر(الذرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق : أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1391هـ/ 1971م.

- الذهبي : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عثمان(ت748هـ/1444م)،

23. دول الإسلام، تحقيق : حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م.

- ابن زنبل : أحمد الرمال(ت960هـ/1552م)،

24. آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق : عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998م.

- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م)،

25. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود الطاحني- عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط2، 1992م.

26. معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق : محمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993م.

- السخاوي الحنفي: أبو الحسن نور الدين علي بن أحمد(د.ت) ،

27. تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط2، 1406هـ/ 1986م.

- السخاوي الشافعي: الحافظ عبد الرحمن بن محمد(ت902هـ/1496م)،

28. التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1896م.

29. الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1999م.

30. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن(ت911هـ/1505م)،

31. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1968م.

32. تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003م.

- ابن شاهين الظاهري: زين الدين عبد الباسط بن خليل(ت872هـ/1468م)،

33. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، قدمه: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، القاهرة، 1988م.

- الشرقاوي : عبد الله(د.ت)،

34. تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق: رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1416هـ/ 1996م.

- الشوكاني: محمد بن علي،

35. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).

- ابن عبد الظاهر: محي الدين أبو الفضل المصري(ت692هـ/1292م)،

36. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، مطابع القوات المسلحة، الرياض، ط1، 1976م.

37. الروضة البهية الزاهرة في خطط المعرية القاهرة، تحقيق:أيمن فؤاد سيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1996م.

- العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل ابن حجر(ت852هـ/1448م)،

38. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961م.

39. إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق : حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1972م.

- العيني: بدر الدين محمود(ت855هـ/1451م)،

40. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب القومية، القاهرة، ط2، 2007م.

- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت 807هـ/1404م)،

41. تاريخ ابن الفرات، تحقيق : قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1936م.

- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل صاحب حماة(ت732هـ /1331م)،

42. المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط1، 1906م.

- القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن الشافعي(465هـ/1071م)،

43. الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف رزيق-علي بلطجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2003م.

- القلقشندي: أبو العباس أحمد(ت821هـ/1418م)،

44. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/1922م.

- الكتبي : محمد بن شاكر(ت 764هـ/1362م)،

45. فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973م.

- الكلاباذي: أبو بكر محمد بن اسحق البخاري(380هـ/990م)،

46. كتاب التعريف لمذهب أهل التصوف، صححه: آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م.

- ابن مريم: أبو عبد الله بن أحمد المليتي التلمساني(ت1020هـ/1611م)،

47. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

- المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد القادر العبيدي (ت845هـ/1441م)،

48. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م.

49. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف(الخطط المقريزية)، دار صادر بيروت، (د.ت).

50. إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق : كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2007م.

- الملطي : عبد الباسط بن خليل بن شاهين(ت920هـ/ 1514م)،

51. نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق : محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1407هـ/1987م.

- المنصوري: ركن الدين بيبرس المنصوري الخطائي الدوادار المصري (ت725هـ/1324م)،

52. مختار الأخبار، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1413هـ/ 1993م.

53. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : دونلدس. ريتشارد، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1419هـ/1998م.

- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت732هـ/1332م)،

54. نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

- ابن الوكيل : يوسف الملواني(ت 1131هـ/1719م)،

55. تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق : محمد الشُشتاوي، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 1419هـ/ 1999م.

ثالثاً:المراجع:

- أمين: محمد محمد،

56. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980م.

- الباشا: حسن،

57. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.

- باشا : علي مبارك،

58. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة،1305هـ.

- بحر: مجدي عبد الرشيد،

59. القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1999م.

- البطاوي: حسن أحمد،

60. أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2007م.

- بك: أحمد عيسى،

61. تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1981م.

- الجزار: هاني فخري عطية،

62. النظام العسكري في دولة المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م.

- الحجي: حياة ناصر،

63. السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـ/ 1983م.

64. صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط1، 1412هـ/ 1992م.

- الحداد: محمد حمزة إسماعيل،

65. السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1998م.

- حمارنه: سامي خلف،

66. تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، 1967م.

- حمزة: عبد اللطيف،

67. الأدب المصري منذ قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.

68. الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م.

- الخولي: محمد عبد العظيم،

69. الأزهر الشريف في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2012م.

- الرباصي: مفتاح يونس،

70. المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول، الدار الوطنية للكتاب، بنغازي، ط1، 2014م.

- زكي: عبد الرحمن،

71. من تراث مصر العلمي في العصر المملوكي(بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م.

- زيادة: محمد مصطفى،

72. حملة لويس التاسع عشر على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، طأ، 1961م.

- زيدان: جورجي،

73. تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، 1931م.

- سرور: محمد جمال الدين،

74. الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1965م.

75. دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

- سلام: أيمن شاهين،

76. المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999م.

- سليم: محمود رزق،

77. عصـر سـلاطين المماليـك ونتاجـه العلمـي والأدبـي، المطبعـة النموذجيـة، القاهرة، 1962م.

78. الأدب العربـي وتاريخـه فـي عصـر المماليـك والعثمـانيين والعصـر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، 1377هـ/1957م.

- السمرائي: كمال،

79. مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، (د.م)، 1985م.

- شاكر: محمود،

80. التـاريخ الإسـلامي(العهـد المملـوكي)، المكتـب الإسـلامي، بيـروت، ط5، 2000م.

- شلبي: أحمد،

81. تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973م.

- الشيال: جمال الدين،

82. تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1967م.

- طقوش: محمد سهيل،

83. تـاريخ المماليـك فـي مصـر وبـلاد الشـام، دار النفـائس، بيـروت، ط1، 1997م.

- عاشور: سعيد عبد الفتاح،

84. العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1976م.

85. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م.

86. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م.

87. مصر في عهد دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م.

- العبادي: أحمد مختار،

88. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.

- عبد الحليم: رجب محمد،

89. العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م.

- عبد العاطي: عبد الغني محمود،

90. التعليم في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970م.

- عبد الكريم: دولت عبد الله،

91. معاهد تزكية النفوس في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.

- عبد الله: يسرى عبد الغني،

92. معجم المؤرخين المسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.

- العريني: السيد الباز،

93. المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).

- العطاري: جلال يوسف،

94. حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، الأردن ، ط1، 1432هـ/2011م.

- عطا الله: خضر أحمد،

95. الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، (د.ت).

- عنان: محمد عبد الله،

96. مؤرخو مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1999م.

- عودات: أحمد،

97. تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، اربد، 1990م.

- فرغلي: إبراهيم،

98. الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م.

- قاسم: عبده قاسم،

99. عصر سلاطين المماليك(التاريخ السياسي والاجتماعى)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 1998م.

100. عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1967م.

- كاشف: سيده إسماعيل،

101. أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1965م.

- ماهر: سعاد،

102. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1979م.

- مبارك: زكي،

103. التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، المكتبة العصرية، لبنان، (د.ت).

- مصطفى: شاكر،

104. التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1979م.

- منصور: أحمد صبحي،

105. العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2000م.

- المهدلي: السيد عقيل بن علي،

106. مدخل إلي التصوف الإسلامي، دار الحديث،(د.م)،(د.ت).

- النجار: عامر،

107. الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د.ت).

- نجيب: عامر،

108. الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، عمان، ط1، 2003م.

- النشار: السيد السيد،

109. تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م.

رابعاً: المراجع المترجمة:

- بروكلمان: كارل،

1. تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1977م.

- فيت: جاستوف،

2. القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر، بيروت، 1968م.

- ماير: ل.أ،

3. الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامه للكتاب، القاهرة، 1972م.

- موير: وليم،

4. دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابد- سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

خامساً: المعاجم:

- أدى شير: السيد،

1. الألفاظ الفارسية المعربة، دار العربي للبستاني، القاهرة، ط2، 1988م.

- الجوهري: إسماعيل بن حماد(ت393هـ/1002م)،

2. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م.

- دهمان: أحمد محمد،

3. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2012م.

- الفيروز أبادي: مجد الدين أبي طاهر محمد يعقوب(ت817هـ/1414م)،

4. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ/ 2005م.

- مسعود: جبران،

5. المعجم الرائد، دار العلم للملايين، لبنان، ط7، 1992م.

- ابن منظور: محمد بن مكرم(ت711هـ/1311م)،

6. لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م

7. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م.

سادساً: الدوريات:

- الأعرج: عبد العزيز عبد الرحمن،

1. حركة العلماء بين المغرب الأوسط الزياني ومصر المملوكية ودورها في تمتين الروابط الثقافية بين البلدين، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ وعلم الآثار، مقال منشور على الشبكة الإلكترونية.

- الشوبكي: محمود يوسف،

110. مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد العاشر، العدد الثاني،2002م.

- ماهر: سعاد،

2. الأزهر أثر وثقافة، دراسات في الإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف، مصر، العدد22، 1382هـ/1962م.